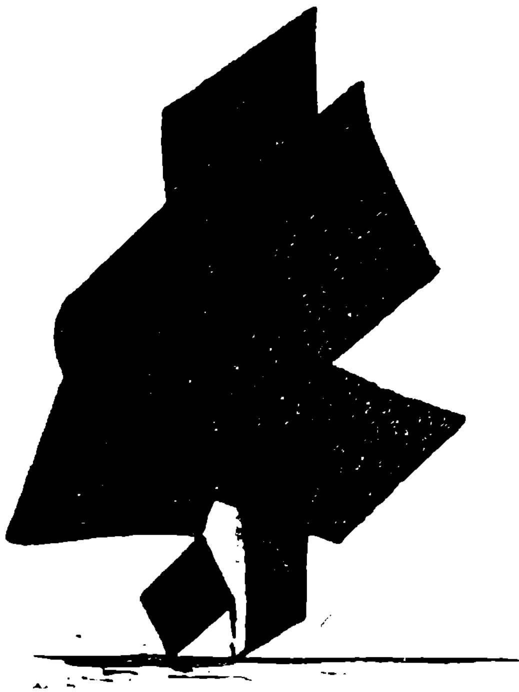
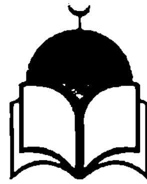
حسين محمد بافقيه

عبروا النهر مرتين

قراءات في السيرة الذاتية





كنوز المعرفة
جدة

ⓒ دار كنوز المعرفة ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بافقيه ، حسين بن محمد علوي
عبروا النهر مرتين / حسين محمد علوي بافقيه. - جدة ، ١٤٤٠ هـ
٢٧٢ ص ١٤x٢٢ سم

ردمك: ٥-٦٢-٨٠٢٦-٦٠٣-٩٧٨

١- التراجم الذاتية أ. العنوان
ديوي ٩٢٠ ١٤٤٠/١١٠٩٨

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١١٠٩٨
ردمك: ٥-٦٢-٨٠٢٦-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



كنوز المعرفة
هاتف: 6514222 - 6510421 فاكس: 6516593
جدة - الشرفية - شارع الستين - عمارة أبا الخيل
Email: info@konoozb.com

«إِنَّكَ لَنْ تَخْطُوَ فِي النَّهْرِ نَفْسِهِ مَرَّتَيْن»

هيرقليطس

(نَحْو ٥٣٥-٤٧٥ ق.م)

الإهداء

إلى أَعَزِّ النَّاس

أخي محسن

بَعْضُ حَقِّكَ عَلَيَّ

المحتويات

الإهداء ٧

المحتويات.. ٩

دِيباجة الكِتاب: حُبٌّ قديم............................. ١٣

لماذا نَقْرَأُ السِّيَر الذَّاتِيَّة؟ ٢١

السِّيرة الذَّاتِيَّة العربيَّة.. بعيدًا عن الاعتراف................. ٢٩

بَيْنَ الذَّاكرة والنِّسْيان.................................. ٣٧

لَذَّة التَّذَكُّر ٤٣

ماء الذَّاكرة ٥٧

إحسان عبَّاس وأدب السِّيرة............................... ٦١

مِنْ فَنّ السِّيرة إلى غُرْبة الرَّاعي.......................... ٨٥

تكوين رومنطيقيّ.................................... ٩٧

إنْ لَمْ.. فَمَنْ؟ لخالد الفيصل: سِيرة ذاتيَّة.. إلَّا قليلًا!........ ١٠١
سنوات الجوف.. سِيرة المكان القَصِيّ ١١٣
عَبَثُ اليتيم ١٢٥
دِبلوماسيّ مِنْ طَيْبة.. كَسْرُ الصَّمْتِ بالكلام ١٤١
بين منزلتين.. السَّرْدُ حِين يَمْكُر ١٥٥
السِّيرة الذَّاتيَّة، إرادة الكاتب وشَرْط الكتابة.......... ١٧٣
لَيْتَهُ نَسِيَ..! ١٩٣
سِيرة «واحد» مِنَ النَّاس ٢٠٣
كِتَابة الذَّات ٢١٩
غُصْن الزَّيتون وبندقيَّة الثَّائر.......................... ٢٣٩
سِيرة هشام ناظر وتركيّ الدَّخيل ومِرآة الغريبة.......... ٢٥٥
للمؤلِّف.. ٢٦٩

أَمَّا بَعْدُ، فقدْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ يَوْمًا: «ها هو ذا كِتابٌ جَيِّد»، فكان جَوَابُه: «إذنْ، فسيكونُ أمامي يَوْمٌ آخَرُ لِأَعيش!». ونحنُ لا نَطْمَعُ في أنْ نَزِيدَ حياةَ القارئِ يَوْمًا كامِلًا، بَلْ كُلُّ ما نأملُه أن يَجِدَ في هذا الكِتابِ ساعةً واحدةً، إنْ لمْ نَقُلْ لحظةً واحدةً، يُضِيفُها إلى لحظاتِ عُمْرِه!

زكريَّا إبراهيم

إنَّني، مهما يَكُنْ شأْني اليَوْمَ أوْ غدًا في دنيا الفِكْر والقلم، ما بَرِحْتُ واحدًا مِنَ النَّاس، تنعكس حياتي في حياتِهِم، وحياتُهُم في حياتي. وما قيمة ما كَتَبْتُهُ وسوف أكتبُهُ إلَّا في التَّجَاوُب بيني وبين الَّذين يقرأونني مِنَ النَّاس. وفي مَدَى التَّفاعُل بيني وبينهم. ولوْ لمْ تَكُنْ بيننا أشياء كثيرة مشترَكة لَمَا كان هنالك تجَاوُبٌ أوْ تفاعُل. فَطِينَتي طِينتُهُم. وغريزتي غريزتُهُم. وأَرضي أَرضُهُم. وسمائي وهوائي سماؤهُم وهواؤهُم. وشُعُوري باللَّذَّة والأَلَم شُعُورُهُم.

ميخائيل نعيمه

إنَّ الأشخاصَ الَّذين يَصِلُونَنا بأَنْفُسِهم وتجارِبهم هُمُ الَّذين يُنِيرون أمامَنا الماضي والمستقبَل، أَمَّا أولئك الَّذين يَذهبون بنا في شِعَابِ مِنَ الصَّنْعة «الرَّسميَّة» فإنَّهم يستنزفون جُهُودَنا في غير طائل، وينقلون تفاهة الماضي الَّذي عاشُوا فيه إلى حاضرنا الَّذي نرجوه لِمَا هو أَجْدَى.

إحسان عبَّاس

دِيباجة الكِتاب

حُبٌّ قديم

عَرَفْتُ، في عَهْدٍ بعيدٍ، خمسةَ كُتُبٍ، لها عندي، اليَوْمَ، مقامٌ أَثير، وأَذْكُرُ أَنَّني، منذ وَقَفْتُ عليها، لمْ أَسْلُها، ولمْ أَجْفُها؛ أوَّلُها **الجَمْر والرَّماد: ذِكريات مثقَّفٍ عربيّ** لهشام شرابيّ، وثانيها **حياتي** لأحمد أمين، وثالِثُها **الأيَّام** لطه حسين، ورابِعُها **في صالون العقَّاد كانَتْ لنا أيَّام** لأنيس منصور، وخامِسُها **المُنْتَقَى مِنْ دِراسات المستشرقين** لصلاح الدِّين المُنَجِّد.

كُلُّ هذه الكُتُب تَشُدُّها إلى السِّيرة الذَّاتيَّة - أو التَّرجمة الشَّخصيَّة - آصِرَةٌ ونَسَب. فأَمَّا **الجَمْرُ والرَّماد** و**حياتي** فَعَرَفْتُهُما في أوَّلِ عهدي بالجامِعة، وأَمَّا **الأيَّامُ** فَحَسْبُهُ أَنَّه أَعْظَمُ كُتُبِ هذا الفَنِّ قَدْرًا، وأَبْعَدُها صِيتًا، في الأدب العربيِّ المعاصر، وأَمَّا **في صالون العقَّاد كانَتْ لنا أيَّام** فكان سِيرةً

لأنيس منصور، مهما تَوَهَّمْناه سِيرةً للعقَّاد، وإنْ أَرَدْنا التَّحقيق سِيرة نَدْوته الأدبيَّة المشهورة، فإذا بَلَغْتُ **المُنْتَقى مِنْ دِراسات المستشرقين** فَلِلْمَقالة الأُولى فيه؛ تلك الَّتي أنشأَها المستشرق الألمانيّ الكبير كارل بروكلمان، بلسانٍ عربيٍّ مبين، ودعاها «ما صَنَّفَ علماء العرب في أحوال أنْفُسِهِم».

كان ذلك، فيما أُقَدِّر، أَوَّل عهدي بـ«السِّيرة الذَّاتيَّة»، حتَّى إذا تَقَدَّمَ بي الزَّمانُ، قَوِيَ اتِّصالي بهذا النَّوْع الأدبيّ، وصِنْوِهِ الآخَر «السِّيرة الموضوعيَّة» - وإنْ شِئْتَ الغيريَّة - واستهواني، مِنْ هذه الأخيرة، ما ارتفعَ إلى شَجَرَة الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، ولها فيها مَقامٌ لا يُدانيه مقام، لا سِيَّما أَنَّه اتَّفَقَ لي، في أَوَّل اتِّصالي بالقراءة، أنْ عَرَفْتُ كِتابًا هو أَدْخَلُ بهذا الضَّرْب مِنَ التَّأليف، لَمَّا وَقَعْتُ، على غير إرادةٍ مِنِّي، على كِتاب **تذكرة الحُفَّاظ** للإمام شمس الدِّين الذَّهبيّ (٦٧٣ - ٧٤٨هـ)، وعناية المُحَقِّق العلَّامة الشَّيخ عبد الرَّحمن المُعَلِّمِيّ اليمانيّ، وأدركْتُ، في ذلك الزَّمن المُتَقَادِم البعيد، مِقدار ما أَدَّاه العرب في هذا اللَّوْن مِنَ التَّأليف، حتَّى إذا نَظَرْتُ في بَحْث كارل بروكلمان «ما صَنَّفَ علماء العرب في أحوال أَنْفُسِهِم»، فُسِحَتْ لي معرفةٌ جديدةٌ بِلَوْنٍ آخَرَ طريفٍ مِنْ فنِّ التَّراجِم والسِّيَر، أدارَه العلماء العرب في أحوال أَنْفُسِهم، إذا استعرْتُ

عِبارة المستشرق الألمانيّ الجليل = فَسَمَتْ نَفْسي، مِنْ ذلك الوقت، إلى الوقوف على هذه النَّاحِية مِنَ التَّأليف في تراث العرب القديم والحديث.

ومِمَّا أذكره أنَّه استجلَبَ نظري عِبَارة بروكلمان، الَّتي عَنْوَنَ بها بحثه، أعني «ما صَنَّفَ علماء العرب في أحوال أَنْفُسِهم». كانتِ العِبارَةُ جديدةً عليَّ، ولَمْ ألتَفِتْ، آنئذٍ، إلى النُّكتة اللَّطيفة فيها؛ وكأنَّما أراد كارل بروكلمان - ومَقامُهُ في الدِّراسات الإسلاميَّة كبير - أن يَتَجَنَّبَ نَقْل العِبارة الأعجميَّة Autobiography إلى لسان مُضَر الَّذي رَقَشَ به بحثه، فلمْ يُؤْثِرْ تلك العِبَارة المنقولة: «السِّيرة الذَّاتيَّة»[1]، أو «التَّرجمة الذَّاتيَّة»، وكِلْتاهُما مِنَ الكَلِم الشَّائع المشهور = واحترَزَ، وأَعْرَضَ عن المصطلَح الأعجميّ، حتَّى يَتَّفِقَ العرب المُحْدَثُون على مُصطلح يُؤَدُّون به ما يريدونه مِنْ ذلك النَّوْع الأدبيّ. والحَقُّ أنَّني أَجِدُ في نَفْسي مَيْلًا إلى ما اصطنعه المستشرق الألمانيّ الجليل، وأراه أَمَتَّ صِلَةً بلسان العرب ومُرَادِهِم.

---

(١) - كان سلامة موسى أوَّل مَنِ استعمل مصطلح «سِيرة ذاتيَّة» في الأدب العربيّ المعاصِر، وَصْفًا لكِتابه **تربية سلامة موسى**. رووكي، تيتز. **في طُفُولتي: دراسة في السِّيرة الذَّاتيَّة العربيَّة**، ترجمة طلعت الشَّايب، مراجعة وتقديم رمضان بسطاويسي (القاهرة: المجلس الأعلى للثَّقافة، ٢٠٠٢م)، ص ١٢٤.

اتَّصَلَتْ أسبابي بهذا اللَّوْن مِنَ الأدب، وقَوِيَ ما بيني وبينه، في بابه الوسيع الفَسِيح «السِّيرة»، وفي قِسْمَيْها المذكورَيْن: «السِّيرة الذَّاتيَّة»، و«السِّيرة الموضوعيَّة»، وجَعَلْتُ أُعَمِّق صِلَتي بِكُتُب هذا الفنّ، فَلَمَّا أَتْمَمْتُ دراستي وظَفِرْتُ بالإجازة الجامِعيَّة، عَرَفْتُ كِتابَيْن مِنْ كُتُب العلَّامة الجليل الدَّكتور إحسان عبَّاس - رحمه الله - تَوَخَّى فيهما تيسير المعرفة النَّقْدِيَّة وتقريبها، أَعْنِي **فنّ الشِّعْر** و**فنّ السِّيرة**، ولهما عندي مَوقِعٌ عظيمٌ، يَفُوق ما أراده الشَّيْخُ الجليل مِنْهما، يومَ أنشأَ هو ورفيق دربه العلَّامة الدَّكتور محمَّد يوسف نجم سلسلةً، قَدَّما فيها نُبَذًا مِنَ النَّقْد ونَظَرِيَّة الفنون الأدبيَّة، ولكلِّ كُتُب تلك «السِّلسلة» ذِكرياتٌ حُلْوَةٌ في عقلي وقلبي ووجداني.

أحبَبْتُ «أدب السِّيرة»، بِشِقَّيْهِ، ومِمَّا عَمَّقَ هذه الصِّلة، وأَلْهَبَ ذلك الحُبّ، أنَّه اتَّفَقَ لي أنْ ظَفِرْتُ بِقَدْرٍ صالحٍ مِنْ كُتُب هذا الفنّ، وبخاصَّةٍ «السِّيرة الذَّاتيَّة» - أوْ ما صَنَّفَ العربُ في أحوال أَنْفُسِهم! - إنشاءً وتاريخًا ونَقْدًا، فقرأْتُ ما شاءَ لِيَ الله أنْ أقرأ، وكُنْتُ أترقَّبُ ما تُذِيعه دُور النَّشْر، لِأَظْهَرَ عليه، فَقَرَأْتُ وقَرَأْتُ، ووَقَفْتُ على جُمْلةٍ مِمَّا أنشأَه العرب قديمًا وحديثًا، ورأيتُني أَقْرَبَ، عقلًا ووجدانًا، إلى هذا «النَّوْع الأدبيّ»، وأَلْفَيْتُ فيه ضُرُوبًا مِنَ المتعة؛ مِنْها ما يُدْنِيهِ

إلى الأدب، ومِنْها ما يَشُدُّهُ إلى التَّاريخ، وأعجبَني ما أنشأَهُ كُتَّابٌ وأدباءٌ ومسؤولون في أحوال أَنْفُسِهم؛ أَعُدُّ مِنْهُمْ، ولا أُعَدِّدُهُمْ: طه حسين، وأحمد أمين، ومحمَّد كُرْد عليّ، وأحمد السِّباعيّ، وعزيز ضياء، وحمد الجاسر، وعليّ الطَّنطاويّ، وغازي القصيبيّ، وزكيّ نجيب محمود، وإحسان عبَّاس، ولويس عوض، وجلال أمين، وجابر عصفور، ومحمود السَّمْرة، وإدوارد سعيد، وعُمَر فَرُّوخ، هذا العلَّامة الجليل الَّذي يستحِقُّ مِنِّي كلمةً في هذه المُقَدِّمة:

عَرَفْتُ الدَّكتور عُمَر فَرُّوخ، أوَّلَ اختلافي إلى الجامِعة، وكان كِتابُهُ **هذا الشِّعْر الحديث!** باكورة ما قَرَأْتُهُ مِنْ آثاره النَّافعة، واستجلَبَ نظري في كِتابه هذا، وفي كُتُبه الأُخرى، أنَّ مِنْ عادته ووَكْدِهِ أن يَتَبَسَّطَ في مُقَدِّماتها، حتَّى تبلغ صفحاتٍ غِزَارًا، وأنَّه اعتاد أن يُدِيرَ تلك المُقَدِّمات في «أحوال نَفْسِه»، وكأنَّه لا حاجِزَ بين ما يعتقده الرَّجُل وما يَعِيشُه. فَلَمَّا تَوَثَّقَتْ صِلَتي بِكُتُبه الأُخرى، إذا بي أكثر معرفةً بحياته، ونَشْأَته، وأُسْرته، وأبويه، وأبنائه، وأساتذته، وأصدقائه، وطُلَّابه، وشُؤون أُخرى مِمَّا اضطربَ فيه، وكُلَّما اهتدَيْتُ إلى كِتابٍ آخَرَ جديدٍ مِمَّا صَنَّفَ، أُتِيحَتْ لي معرفةٌ أَعْمَقُ بأحواله، وكُنْتُ أَتَتَبَّعُ العلَّامة الجليل فيما أَلَّفَ وتَرْجَمَ ونَشَرَ، وأَبْذُل

وُسْعِي لِأَبْلُغَ ما لمْ أقرأْ مِنْ آثاره، ومِنْها مَجلَّة **الباحث**؛ تلك الَّتي أنشأَها هو وصديقُه الدَّكتور عليّ زيعور، فَلَمَّا سَمِعْتُ أنَّه أَخْرَجَ، مِنْ قَبْلُ، كِتابًا في سِيرته، دَعَاه **غُبَار السِّنين** (١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م) = لمْ يَقَرَّ لي قرار حتَّى ظَفِرْتُ به، فَلَمَّا ظَفِرْتُ به جَعَلْتُ أقرأه، فإذا قَرَأْتُه عُدْتُ إليه مَرَّةً تِلْوَ مَرَّة، وبَلَغَ بي شغفي أنْ حَدَّثْتُ عنه بعض الصَّديق، وجعلوا يسألون عن الكِتاب، ويُلِحُّون في السُّؤال، ولمْ ينالوه إلَّا بَعْدَ جُهْدٍ ومَشَقَّة، فَرَجَوْتُ القائمين على أمر «مكتبة كُنُوز المعرفة» بِجُدَّة، أن يَسْعَوْا إلى دار النَّشْر اللُبنانيَّة الَّتي نَشَرَتْه قديمًا = بإعادة نَشْره، مَرَّةً أخرى، وقدْ كان! وما ذلك إلَّا لِمَا انطوَتْ عليه سِيرته مِنْ قِيَمٍ، وما أَدَّتْهُ إلينا مِنْ دُرُوس، مهما كان بناؤها سهلًا يسيرًا.

رُبَّما انقلَبَتْ هذه «المُقَدِّمة» الَّتي أردْتُها توطئةً لكِتابٍ عن «السِّيرة الذَّاتيَّة»، إلى ضَرْبٍ آخَرَ مِنَ السِّيرة الذَّاتيَّة! وهذا صحيح؛ فمعظم ما نكتبه، لوْ تَدَبَّرْناه، موصول العُرَى بـ«أحوال أَنْفُسِنا»، إذا استعَنَّا بِعِبَارة المستشرق كارل بروكلمان، ومشدودٌ إلى «السِّيرة الذَّاتيَّة» بِأَمْتَنِ الوشائج، إذا اصطنعْنا كَلِمًا يرتفع إلى «نظريَّة الأنواع الأدبيَّة». وسواءٌ أردْتُ الأُولى أَم الأُخرى، فعسَى أن تُؤَدِّي فُصُول هذا الكِتاب بعض ما ابتغيْتُه مِنْ هذا «النَّوْع الأدبيّ». على أنَّني لا أَجِدُ كَلِمةً تُؤَدِّي عنِّي بعض ما

أُحِسُّه تُجاه «أدب السِّيرة» = هي أبلغ وأَوْجَز مِنْ كَلِمةٍ قالها إحسان عبَّاس في مُقَدِّمة كِتابه **فنّ السِّيرة**، دَلَّتْ على مِقْدار حُبِّه لهذا الفنّ، وأراها تَدُلُّ، كذلك، على موقع هذا الفنِّ في عَقْلي وقَلْبي ووِجداني.

قال العلَّامة الجليل:

فوراءَ هذه الفُصُول الَّتي كَتَبْتُها رَغْبةٌ ذاتيَّةٌ مُخْلِصةٌ في أنْ أَعْرِض موضوعًا أَحْبَبْتُهُ وعِشْتُ في تجارِب أصحابه مُدَّةً مِنَ الزَّمن

وأنا لا أُخْلِي نَفْسي مِنْ هذه «الرَّغْبة الذَّاتيَّة»، ولا مِنْ ذلك «الحُبِّ القديم» الَّذي استولَى عليَّ. وكانتْ فُصُول هذا الكِتاب «عَلَامةً» على هذه الرَّغْبة وذلك الحُبّ، تَخَيَّرْتُها مِمَّا أذعْتُه في الصِّحافة، وأَعْمَلْتُ القَلَمَ في هذه الفُصُول، مَرَّةً أُخرى، تحبيرًا، وتحريرًا، وتهذيبًا، وإضافةً، وحَذْفًا، ولاءَمْتُ ما بينها، حتَّى استوَتْ كِتابًا. وفي النِّيَّةِ - إنْ شاء الله تعالى - أنْ أُخْرِجَ كِتابًا آخَرَ، لَعَلِّي أدعوه «السِّيرتان»، أُثْبِتُ فيه فُصُولًا أُخرى ضاقَ دُونَها هذا الكِتاب، مِنْها ما كان في «السِّيرة الذَّاتيَّة»، ومِنْها ما كان في «السِّيرة الموضوعيَّة».

أرجو أنْ أكون قَدْ وُفِّقْتُ إلى الغاية الَّتي أَرَدْتُ، سائلًا الله -

تبارك وتعالَى - أن يُجَنِّبَني اللَّغْوَ والخَطَل، وأن يَنْفَعَ به.

والحمدُ لله في الأُولَى والآخِرَة.

حسين محمَّد بافقيه

جدَّة - ضاحية أبحر الشَّماليَّة

٢٣ مِنْ شَهْر جُمادى الأولى سنة ١٤٤٠هـ

hubafagih@gmail.com

لماذا نَقْرَأُ السِّيَر الذَّاتِيَّة؟[١]

ليس مِنْ سبيلٍ إلى إجابةٍ شافِيَةٍ تَجْمَعُ شتات الأسئلة الَّتي تُحاصِرُنا. ولَعَلَّنا لا نسأل أَنْفُسَنا هذا السُّؤال، ولَعَلَّنا لمْ نفكِّرْ فيه مِنْ قَبْلُ، فغايتُنا الَّتي نَرُومُها أنْ نقرأ هذه السِّيرة لسببٍ مِنَ الأسباب، وقدْ يَحْمِلنا على ذلك إحساسٌ باطِنٌ لا نُعْلِنه، قِوَامُهُ إعجابٌ مَّا بهذه السِّيرة أَوْ تلك، وعِمَادُهُ ما لصاحِبها مِنْ حَظٍّ في حياة النَّاسِ، دُونَ آخَرين لمْ نَهْتَدِ إليهم، ولمْ نَعْرِفْ مقدار ما أصابوه في الحياة، وما حقَّقوه مِنْ أَثَر.

وقراءة الكُتُب تنطوي على تجارب وخبرات غير مُحَسَّة، وقدْ لا يبوح امرؤٌ بِمَيْله إلى كِتاب، ومُجافاته لكِتاب آخَر، وانظُرْ إلى النَّاس، مِمَّنْ تَعْرِف ومِمَّنْ لا تَعْرِف، مِنْ رادة المكتبات

(١) - صحيفة القبس، ١٧ مِنْ شهر صفر سنة ١٤٣٨هـ = ١٨ مِنْ شهر تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ٢٠١٦م.

ومعارض الكُتُب، وقِفْ هُنَيْهَةً وراقِبْهم فيما يخوضون؛ فهذا يَسْعَى، مِنْ فَوْرِهِ، إلى كِتاب يَعْرِفه أوْ يَعْرِف مُصَنِّفه، وذلك يُقَلِّب كِتابًا مَّا، ثُمَّ لا يلبث أن يُعْرِض عنه، ويُقْبِل على كِتابٍ آخَرَ، وذاك حيران دَهِش.

والكُتُب خادعةٌ، ومِنْ خُدَعها أنَّها تستهويك وتستغويك بعنواناتها النَّاتئة المنحوتة بعناية بالغة، وأغلفتها الجميلة المُوَشَّاة، تلك الَّتي افتنَّتْ فيها يَدٌ ماهرةٌ صَنَاعٌ، وقدْ يخلبك الموضوع الَّذي عالَجَهُ الكِتاب، أمَّا المؤلِّفون فشأنُهم، في الأعَمِّ الأغلب، أن يَسُوقَكَ الأعلام مِنْهم إلى كُتُبهم الحديثة، ويَحْلُو لِنَفَرٍ مِنَ القُرَّاء أن يحتفُوا بكُتَّاب ومؤلِّفين لهم عندهم مقامٌ كبير، ورُبَّما وَقَعَ كوكبةٌ مِنَ القُرَّاء، وهذا ما حَدَثَ لي مَرَّةً تِلْوَ مَرَّة، في شَرَك المؤلِّفين الأعلام، فتبتاع مؤلَّفًا لبعضهم حديثًا، وإذا بِكَ حِين تقرأ مُقَدِّمته، أوْ طَرَفًا مِنْه، تعضّ إصبع النَّدم على أنْ بَعْثَرْتَ مالك في كِتابٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ.

وللأسماء اللَّامعة شأنها وخطرها في موضوع القراءة، والمشكلة كُلُّ المشكلة في المؤلِّفين الجُدُد، أولئك الَّذين تَدْفع دُور النَّشْر والمطابع بمصنَّفاتهم إلى السُّوق، ويُصْبح الأمر شاقًّا وصَعْبًا في كُتُب الأدب الخالص - الشِّعْر والرِّواية والقصَّة

القصيرة، خاصَّةً - فأَمْرُ الكِتاب الَّذي يَتَّخِذ النَّقْد أو البحث في الأدب والتَّاريخ الثَّقافيّ يسيرٌ، فلن يُعْييك الوقوف على مُقَدِّمة الكِتاب، أو النَّظر في الفهرست، وقدْ تتأمَّل ثَبَت المصادر والمراجع = فَتَثِق في الكِتاب فتقتنيه، أوْ تَجْفوه فتدفعه عنك.

وما هكذا شأن الأدب الخالص: الشِّعْر والرِّواية والقصَّة القصيرة، فأنتَ تأنس إلى شاعر - أوْ روائيّ أوْ قاصّ - تَعْرِف آثاره مِنْ قَبْلُ، وتُدْرِكُ مقدار ما أصابه مِنْ فَلَاح، فتبتاع كِتابه، مِنْ فَوْرِكَ، مُؤَمِّلًا أنْ تقطع به طَرَفًا ماتعًا مِنَ الوقْت، وقَدْ يَنْصَح لك صديق خبير بالكُتُب والمؤلِّفين: أنْ عليك بالشَّاعر هذا، أوِ الرِّوائيّ ذلك، أوِ القاصّ ذاك، فقدْ بَلَغَ أَحَدُهُم مِنَ الفنِّ والتَّجويد مرتبةً تُغْري بقراءته.

وفي السِّيرة الذَّاتيَّة، لا يقرأ القارئ إلَّا لـمَنْ كان حقيقًا بالقراءة، وهذا أصْل كامن في هذا النَّوْع الأَدبيّ؛ أن يكتب إنسان له قَدْرُهُ في الأدب أو الثَّقافة أو المجتمع سِيرته، ويَلْقَى القُرَّاء في أَنْفُسِهم مَيْلًا طبيعيًّا إلى الوقوف على تلك الحياة العريضة الَّتي ضَرَبَ فيها، ولوْ لمْ يتحقَّقْ ذلك القَدْر مِنَ العَقْدِ الضِّمْنِيّ بين الكاتب والقارئ = لَـمَا كان لتلك السِّيرة مِنْ وَجْهٍ لقراءتها.

وحَقٌّ ما أنبأَ به كولردج يَوْمَ قال: إنَّ «أيَّة حياة مهما كانَتْ تافهة ستكون ممتعة إذا رُوِيَتْ بِصِدْق»[١]، على أنَّه مِنَ الحَقِّ، كذلك، قَوْل إحسان عبَّاس: إنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة لا تَحْمِل القارئ على النَّظَر فيها، ما لَمْ يَكُنْ لكاتِبها شأن في حياة النَّاس[٢]، وهذا ميثاقٌ بين الكاتب والقارئ، يَدْفَعه إلى قراءة سِيرةٍ يَعْنِيه أمرُ صاحِبها، ويَصْرِفه عنْ أُخرى لا تَجْمعه بكاتِبها رابطةٌ مَّا.

ويُلِحُّ الميثاق الضِّمْنِيّ بين الكاتب والقارئ، كثيرًا، على أصحاب السِّيَر الذَّاتيَّة؛ ذلك أنَّ كَشْف جوانبَ مِنْ حياتهم، إنَّما هو ضَرْب مِنَ المغامرة. وعادةً مَّا نقرأ في مجاميعَ مِنَ السِّيَر الذَّاتيَّة عِبَارات يعتذر فيهنَّ المؤلِّفون إلى قُرَّائهم؛ مُفَادُها أنَّهم دُفِعوا إلى كتابة هذه السِّيرة أوْ تلك دفعًا، فسِيَرُهُمْ ليس فيها ما يُغْري بالقراءة، وهُمْ، وإنْ كانوا مِنْ أهل القلم والفِكْر = ليسُوا مِنْ أرباب السُّلْطان، ولا مِنْ أهل السِّياسة، وحياتُهم ليس فيها أسرارٌ تُهِمُّ الأُمَّة أو الوطن. هكذا يعتذرون، وهكذا يُقَدِّمون بين يَدَيْ قُرَّائهم كلماتٍ تتحلَّى بالتَّواضُع والحياء، وتَفْزَع مِنْ مَظِنَّة

---

(١) - ويليك، رينيه، وأوستن وارين. **نظريَّة الأدب**، ترجمة محيي الدِّين صبحيّ، مراجعة حسام الخطيب (بيروت: المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشْر، ١٩٨٧م)، ص ٧٧.

(٢) - عبَّاس، إحسان. **فنّ السِّيرة** (بيروت: دار الثَّقافة، د.ت)، ص ص ١٠٤ - ١٠٦.

الحديث عن النَّفْس؛ إذِ الحديثُ عنها باب مِنْ أبواب الشَّيطان! وتلقاهُم حائرين في اصطناع أسلوبٍ مَّا، أوْ طريقةٍ في الكتابة، وتَفْسَحُ لهم ضمائر اللُّغة مكانًا للتوسُّل بضمير المتكلِّم «أنا»، أوْ ضمير الغائب «هو - هي»، فعسى أن يكون في ذلك منجاة مِنَ القلق المستكِنِّ في النَّفْس.

ما للنَّاس و«حياتي»؟ لسْتُ بالسِّياسيّ العظيم، ولا ذي المنصب الخطير، الَّذي إذا نَشَرَ مذكِّراته، أوْ تَرْجَمَ لحياته، أبانَ عنْ غوامضَ لمْ تُعْرَفْ، أوْ مُخَبَّآتٍ لمْ تَظْهَرْ، فَجَلَّى الحَقَّ وأكمل التَّاريخ، ولا أنا بالمُغامِر الَّذي استكشفَ مجهولًا مِنْ حقائق العالَم، فحاوَلَ وَصْفه وأضافَ ثروةً إلى العِلْم، أوْ مجهولًا مِنَ العواطف - كالحُبِّ والبطولة أوْ نَحْوهما فَجَلَاه وزاد بِعِلْمِهِ في ثروة الأدب وتاريخ الفنّ - ولا أنا بالزَّعيم المُصْلِح المجاهِد، ناضَلَ وحارَبَ، وانتصَرَ وانهزَمَ، وقاوَمَ الكُبَراء والأمراء، أو الشُّعُوب والجماهير، فَرَضُوا عنه أحيانًا، وغضبوا عليه أحيانًا. وسَعِدَ وشَقِيَ، وعُذِّبَ وكُرِّمَ، فهو يروي أحداثه لتكون عِبْرَةً، ويَنْشُر مذكِّراته لتكون دَرْسًا

لسْتُ بشيء مِنْ ذلك ولا قريب مِنْ ذلك، فَفِيمَ أنْشر «حياتي»؟

أحمد أمين، حياتي

كنتُ قدْ فكَّرْتُ في كتابة هذه المذكِّرات عنْ حياتي منذ خمس سنوات أوْ سِتّ، ولكنَّني تردَّدْتُ في هذا الأمر. قُلْتُ لنفسي: ماذا يستفيد القارئ مِنْ هذه المذكِّرات؟ وأنا ليس لي تأثير بارز في حياة أُمَّتي، لا مِنَ النَّاحية السِّياسيَّة، ولا مِنَ النَّاحية الاقتصاديَّة.

صحيح أنَّ لي مقالات في حياتنا الاجتماعيَّة، وكانتْ مقالاتي مقروءة ومؤثِّرة على مستوًى واسع، ولله الحمد، بين أبناء وطني؛ لأنَّني كُنْتُ فيما أكتب صريحًا ومخْلِصًا وصادقًا مَعَ نَفْسي، وصادقًا مَعَ قُرَّائي الكرام.

ولكن بعض قُرَّائي طلبوا مِنِّي أنْ أكتب هذه المذكِّرات وشجَّعوني على ذلك، وقالوا: إنَّ أيَّ قارئ مِنْ قُرَّائك القُدامَى سيتطلَّع إلى أن يَعْرِف شيئًا عنْ حياتك

عبد الكريم الجهيمان،
مذكِّرات وذكريات مِنْ حياتي

لمْ يَكُنْ في نِيَّتي يَوْمًا أنْ أكتب سِيرة ذاتيَّة، لأنِّي أعلم أنَّ قُرَّاء السِّيرة الذَّاتيَّة يُقْبِلُون على الكِتاب وفي قَصْدهم أن يَرَوْا ما للكاتب مِنْ مغامرات وخوارق المواقف، وهذا وَحْدَهُ لديهم عامل باعث على القراءة وشرْط يرونه في الكِتاب. وأنا لا أملك مِنْ هذا الشَّرْط أمرًا.

وقَصْدٌ آخَر يقوم على ما سيقرأون مِنْ متعة أدبيَّة في

أسلوب أدبيّ متميِّز يُحِيل الصَّغير كبيرًا ويقوم مقام المغامرة، وأنا لا أملك مِنْ هذا الشَّرْط أمرًا.

وكثيرًا ما أَحْسَنَ أُناسٌ الظَّنَّ بي فاقترحوا أنْ أكتب سِيرة ذاتيَّة، ومِنْهم مَنْ أَلَحَّ على أنَّها واجب. وكان جوابي أنِّي لا أملك شُرُوط النُّهُوض بهذا الواجب

عليّ جواد الطَّاهر،
فُصُول ذاتيَّة مِنْ سِيرة غير ذاتيَّة

هناك دافع شخصيّ يستحثُّني إلى أنْ أسجِّل خواطري في ما مَرَّ بي خلال هذه الثَّمانين سنةً الَّتي أمضيتُها في هذه الحياة. ولكنْ، لماذا أسجِّل هذه الخواطر؟! ولسْتُ إنسانًا ذا شأن خطير ترك بصماته في سِجِلِّ التَّاريخ؟!

محمود السَّمْرة، إيقاع المدى

طافَ ذلك كُلُّه بذهن الشَّيخ وهو يسترجع آثار خطواته على طريق الحياة، وراحَ يستعيد مبرِّرات إحجامه عنْ تدوين خلاصة تجربته مَعَها: فلمْ يَكُنِ الرَّجُل مِنْ ذوي السُّلطان، ولمْ يَتَّصِلْ بأهله يَوْمًا مًّا مِنْ قريب أوْ بعيد، ولمْ يَكُنْ في موقعٍ مًّا في أيِّ حزب سياسيّ

رؤوف عبَّاس، مشيناها خُطًى

فإنَّه قدْ صَدَرَتْ بقلم المؤلِّف كُتُبٌ ورسائلُ في موضوع العقائد والعبادات وتفسير الآيات القرآنيَّة الكريمة والسِّيرة النَّبويَّة العَطِرَة - الموضوع الدَّقيق الجليل الخطير - بما إلى ذلك مِنْ موضوع التَّاريخ

والسِّيَر والتَّراجم الَّذي يتطلَّب المسؤوليَّة التَّاريخيَّة الحَسَّاسة إلى موضوع الكتابة عن الشَّخصيَّات المعاصرة، الحَرِج الشَّائك الوَعِر، إلى مواضيع الأدب والشِّعْر اللَّطيفة الرَّقيقة، وموضوعات الفِكْر الإسلاميّ والثَّقافة الإسلاميَّة الواسعة المُهِمَّة، فقدْ صَدَرَتْ عشرات مِنَ الكُتُب بقلم المؤلِّف في هذه المجالات الفسيحة المتنوِّعة، ولكنَّه لمْ يُواجِهْ في بدْء أيِّ تأليف جديد هذا الصِّراع العقليّ والتَّرَدُّد النَّفْسِيّ الَّذي واجهه في بدْء هذا المؤلَّف عنْ حياته، وقصَّة ماضيه، وقدْ مَضَتْ أعوامٌ وسنون، والمؤلِّف يُقَدِّم رِجْلًا ويؤخِّر أُخرى، يتهيَّب الخوض في هذا الموضوع، ولا يجرؤ على الكتابة فيه.

وقدْ كان لذلك أسباب عديدة، مِنْها تلك الكلمة المأثورة الحِكْمِيَّة (ما هَلَكَ امرؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ) الَّتي كُنْتُ في ضوئها أستصغر نَفْسي في مجال التَّنويه بها وأتضاءل أمامَ الرِّجَال الَّذين كُتِبَ في سِيرتهم وتراجمهم، أوْ تناولوا تقييد المذكِّرات لحياتهم، فلمْ أَكُنْ يَوْمًا سياسيًّا بارزًا، ولا قائدًا مُحَنَّكًا، ولا صاحِبَ شُهرة وجاه عريض، أوْ تربية وإرشاد، ولا نابغةً مِنْ نوابغ العِلْم والفنّ، لمْ يَكُنْ شيءٌ مِنْ ذلك حتَّى يَسُوغ لي التَّأليف عنْ نَفْسي

أبو الحسن عليّ الحسن النَّدْويّ،
في مسيرة الحياة

السِّيرة الذَّاتيَّة العربيَّة..

بعيدًا عن الاعتراف[١]

قَطَعَتِ السِّيرة الذَّاتيَّة في الأدب العربيّ المعاصر رِحْلة متميِّزة في الكتابة والتَّعبير والبَوْح، وَوَجَدَتْ في طه حسين وكِتابه **الأيَّام** (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م) القدوة والمنهج والمَثَل، وأَضْحَتِ السِّيرة الذَّاتيَّة مَعَ **الأيَّام** شَرْعِيَّة، وإنْ لَمْ يُفْصِحْ طه حسين عنْ ميثاق ذلك الكِتاب، فحارَ نُقَّادٌ في تصنيفه وتجنيسه، واطمأَنَّ آخرون إلى أنَّه «سِيرة ذاتيَّة» فريدة في حياة صاحِبها وأسلوبه مَعًا، وكُلُّهُم على أنَّه عَمَلٌ أدبيّ خالد.

فَسَحَ طه حسين الطَّريق للعرب كي يُعِيدوا الثِّقة في أدب النَّفْس، لكنَّه لمْ يكُنْ أوَّلَ مَنْ تَرْجَمَ لِنَفْسه. سَبقَه، في العصر

---

(١) - صحيفة القبس، ٢٦ مِنْ شهر صفر سنة ١٤٣٨هـ = ٢٧ مِنْ شهر تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ٢٠١٦م.

الحاضر، مؤلِّفون كتبوا في أحوال أَنْفُسِهم، مِنْهم أحمد فارس الشِّدْياق، وجرجي زيدان، أمَّا تراث العرب، فلقدْ ذَهَبَتْ تلك الأقوال الَّتي تَقْرِن أدب السِّيرة الذَّاتيَّة بالغرب أدراج الرِّياح، فللعرب ولعٌ بِكُتُب التَّراجم والسِّيَر، ولَطالما صَنَّفُوا في أحوال أَنْفُسِهم، وصار لنا مِنْ ذلك كُتُبٌ وفُصُولٌ أنشأَها فلاسفةٌ وعلماءُ وأدباءُ ومؤلِّفون، يقتضي سردها حديثًا طويلًا، لوْ أَرَدْنا بيانًا لها، وفيما كَتَبَهُ فرنتس روزنتال، وكارل بروكلمان، وشوقيّ ضيف، وإحسان عبَّاس، ما يَحُول دُون التَّكْرار.

وقدْ يَحْلُو لقائلٍ أن يُعْلِيَ مِنْ شأن أدب السِّيرة الذَّاتيَّة في الغرب، فَقِوَامُه، عندهم، على «الاعتراف»، و«الكَشْف» و«التَّعَرِّي»، وما هكذا السِّيرة الذَّاتيَّة عند العرب في ماضيهم وحاضِرِهم.

وهذا القول صحيح. وصحيحٌ ما قاله، مِنْ قَبْلُ، محمود الطَّناحيّ[1]، مِنْ أنَّ قِوَام الأمر ما دَرَجَتْ عليه الأُمَم في ثقافتها، وما تَنَزَّلَتْ فيه قِيَمُها، وما عَنَتْ له مِنْ شرائطَ في الدِّين والعُرْف، فليس لنا أنْ نَحْمِلَ الغربيِّين على ما نَشَأْنا عليه مِنْ

---

(١) - يُنْظَر مقاله «السِّيرة الذَّاتيَّة والصِّدق مَعَ النَّفْس»، في: **مقالات العلاَّمة الدَّكتور محمود محمَّد الطَّناحيّ** (بيروت: دار البشائر الإسلاميَّة، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م)، ٢/ ٤٠٨ - ٤٢٨.

شَرْطِ الدِّين والأخلاق، وليس لهم أن يَحْمِلُونا على ما نشأوا عليه مِنْ شَرْط الدِّين والثَّقافة والأخلاق، فمِنْ شرائط المُثُول في الكنيسة، عندهم، الاعتراف بالخطيئة بين يَدَيِ الكاهن، وما هكذا يفعل المسلم، فَتَحَدَّرَ إلى أدب السِّيرة الذَّاتيَّة في الغرب أثرٌ مِنَ الاعتراف الكَنَسِيّ، على ما شاع في الكُتُب الَّتي تؤرِّخ لِتَرَقِّيه وتَطَوُّره، مِن **اعترافات القدِّيس أوغسطين**، قديمًا، إلى **اعترافات** الفيلسوف والمصلح الاجتماعيّ جان جاك روسُّو، حديثًا.

وحلا لِلَفِيفٍ مِنَ الباحثين والنُّقَّاد أن يُدْرِجوا أدب السِّيرة الذَّاتيَّة في الثَّقافة «العَلْمانيَّة»، وهذه رِيْحٌ هَبَّتْ علينا مِنْ شماليّ المتوسِّط، فللقوم ما تأثَّلَ في نُفُوسهم وذاكرتهم مِنْ هيمنة الكنيسة، وغِلَظِ طِبَاع القائمين عليها في تاريخ أوربَّة، وتسلُّطهم على النَّاس فيما يؤمنون وما لا يؤمنون، وما انفكَّتِ السِّير الذَّاتيَّة في ماضي الغرب تَرْفَع نَسَبَها إلى القِدِّيسين والرُّهبان في الأديرة والكنائس، فلا تقع عين القارئ إلَّا على موعظة موصولة بموعظة، وبكاء موصول ببكاء، وخَرَجَ القارئ مِنْ كُلِّ سياحته تلك بِلَوْنٍ واحدٍ راتبٍ لا يكاد يبرحه، وكأنَّ الكهنة والرُّهبان هُمُ النَّاس، أما سِوَاهُم فليس لهم إلَّا أن يَسْمَعوا ويُطِيعوا. فَلَمَّا كَتَبَ جان جاك روسُّو اعترافاته

كان خير مُعَبِّرٍ عنْ رُوح الفَرْد في الحضارة الحديثة، وعن «العَلْمانيَّة» الَّتي تَنَادَى لها عَصْر الأنوار، وحِين مَسَّ العربَ أثَرٌ مِمَّا انتهَتْ إليه أوربَّة، تَسَرَّبَ إلى الكتابة الأدبيَّة، ومِنْها السِّيرة الذَّاتيَّة، قَبَسٌ مِنْ هذه الفرديَّة وتلك العَلْمانيَّة.

وحينذاك، أسقطَ جمهرةٌ مِنَ النُّقَّاد والباحثين، مِمَّنْ خَبَا في نفوسِهم الفحص والبحث والتَّفتيش والسُّؤال = ما لدى العرب في ماضيهم البعيد، مِنْ آثارٍ صَنَّفوها في أحوال أَنْفُسِهم، وأَسْرَفَ عبد الرَّحمن بدويّ، وهو في الذُّرَى معرفةً وعِلْمًا، فَرَجَعَ ذلك إلى عَيْبٍ في جِبِلَّةِ مَنْ دعاهُم «السَّامِيِّين»، وكان الرَّجُل، في أعقاب الحرب العالميَّة الثَّانية، مأخوذًا بـ«العقل الألمانيّ»، والجِنْس الآرِيّ.

وزَهِدَ آخرون في ما تَحَدَّرَ إلينا مِنْ تراث العرب، فيما أَلَّفوا مِنْ تراجم شخصيَّة؛ ذلك أَنَّها لمْ تُبْنَ على الاعتراف والتَّعْرِية، إذنْ فَلْيُهِلِ التُّرابَ على أيِّ تراث لا يتَّخِذ الغرب إمامًا، وهو معذورٌ، جِدُّ معذور، فالمسطرة، الَّتي يَقِيس بها، مقاييسُها غربيَّة، ما وافقَها نجح، وما خالَفَها رسب، وهُمْ في ذلك تَبَعٌ لأعيان النُّقَّاد في الغرب، ونُقَّاد الغرب معذورون إنْ لمْ يَنْظُروا إلى ما سِوى ثقافتهم وحضارتهم، والنَّقَدَةُ العرب، مِنْهُمْ مَنْ

عَرَفَ اللِّسان الفرنسيَّ، كِفاحًا، ومِنْهُمْ مَن اتَّخَذَ بينهما وُسَطاء = عَرَفوا ناقدًا فرنسيًّا مذكورًا في قومه، هو جورج ماي، ونَظَرُوا في كِتابه الجليل **السِّيرة الذَّاتيَّة**، فاتَّخذوه إمامًا، واتَّبَعوه. رَأَوْهُ قَرَنَ أدب السِّيرة الذَّاتيَّة بالغرب وحضارته، فأَمَّنُوا خَلْفَهُ، وكانوا تلاميذ كسلانين؛ فَلَمْ يستطيعوا أن يُعَرِّفوا أساتذتهم هناك بآدابٍ أُخرى في جنوبيّ المتوسِّط وشَرْقِيِّه،عَرَفَتْ مِنْ ذلك النَّوْع الأدبيّ قَدْرًا وافِرًا، ولمْ يَمْلِكوا شجاعة هذا النَّاقد الفرنسيّ، حِين خَصَّ التَّرجمة العربيَّة مِنْ كِتابه المُوْمَأ إليه، بكلمة رَجَع فيها عنْ رأْيه القديم، ذلك الَّذي قَرَنَ فيه السِّيرة الذَّاتيَّة بالغرب الأوربِّيّ

> إنَّني عَمَدْتُ، منذ بداية هذا الكِتاب، إلى ترديد فكرة شائعة مُفَادُها أنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة شَكْلٌ أدبيٌّ تختصُّ به الحضارة الغربيَّة. فلا يَسَعُنِي، إذنْ، إلَّا أنْ أغتبط بمبادرة مؤسَّسة بَيْت الحِكْمة بتونس إلى ترجمة هذه الدِّراسة ونَشْرِها على النَّاس في البلاد النَّاطقة باللِّسان العربيّ، وهي دراسة جُعِلَتْ في الأصل لجمهور القُرَّاء في الغرب. إنَّ هذه المبادرة بمثابة الحُجَّة على بُطْلان هذه الفِكْرة المتوارَثة

وإنْ كان الباعث على كتابة السِّيرة الذَّاتيَّة في الغرب «الاعتراف» بالخطيئة، فلقدِ اتَّخَذَ المؤلِّف العربيّ المسلم مِنَ

«التَّحَدُّث بنِعْمة الله» ذريعة للحديث عنْ نَفْسه، فالحديث عن النَّفْس ثَقِيلٌ بغيض، والنَّاس لا يأنسون إلى مَن يثرثر في أندية القوم مُدِلًّا بما أَحْرزه مِنْ مَجْد، وإنْ جازَ في الثَّقافة الإسلاميَّة أن يتحدَّث المرء بنعمة الله، مِصْداقًا لقوله تعالَى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحَى: ١١]، وشَفَعَ ذلك لجلال الدِّين السُّيوطيّ أن يُحْصِيَ مواهبه ومناقبه في ترجمته الشَّخصيَّة كِتاب **التَّحَدُّث بنعمة الله**، ولَمْ يَجِدِ القوم في ما أتاه مَدْخلًا إلى العُجْب أوِ الغُرُور، منذ استقرَّ في أَنْفُسِهم، وفي ثقافتهم «التَّحَدُّث بنعمة الله»، وعندهم أنَّ ذلك «مطلوب شَرْعًا»، وزادَ السُّيوطيّ فقال:

> ما زالَتِ العلماء قديمًا وحديثًا يكتبون لِأَنْفُسِهم تراجم. ولهم في ذلك مقاصد حميدة، مِنْها التَّحَدُّث بنِعْمة الله شُكْرًا، ومِنْها التَّعريف بأحوالهم لِيُقْتَدَى بهم فيها ويستفيدها مَنْ لا يَعْرِفها، ويَعْتَمِدُ عليها مَنْ أراد ذِكْرَهُم في تاريخ أوْ طبقات

وما صَنَّفَه العلماء المسلمون في أحوال أَنْفُسِهم، فيه احتفاء بالمعرفة وإدلال بها، فهي سِيرةُ كُتُبٍ وأشياخٍ وتلاميذَ وإجازاتٍ وضَرْبٍ في الأرض طَلَبًا للعِلْم، وجَدَلٍ وسِجَال، وحَالَتْ عِنايتُهم بالكُتُب والأساتذة والأشياخ دُونَ رِعايتهم

لأحوالهم الخاصَّة، في الأَعَمِّ الأغلب، على أنَّ ذلك لا يَنْفِي إلمام غير سِيرةٍ بالكَشْف والتَّعْرِيَة الفِكْرِيَّيْن والنَّفسِيَّيْن، وشاهِدُ ذلك «اعترافات» ابن الهيثم في ترجمته، وما بَسَطَهُ أبو حامد الغزاليّ في **المُنْقِذ مِنَ الضَّلال**، وما انطوَى عليه **طوق الحمامة** لابن حَزْم مِنْ نُتَفٍ اعترافِيَّةٍ، تَبَسَّطَ إحسان عبَّاس في معالجَتها والحديث عنها حديثًا ماتعًا، في كِتابه النَّفيس **فنّ السِّيرة**[١].

ولكنْ مَهْلًا! فـ«الاعتراف»، مهما يَكُنْ أَثَرُهُ، لن يَصْرِفَنا عنْ «أَصْلٍ» قارٍّ في ترجمة النَّفْس، عند المسلمين، هو فيها بِمَنْزِلة «الرُّوح»، رَأَيْنا شيئًا مِنْه فيما صَنَّفَه الإمامُ السُّيوطيُّ في شأن نَفْسِهِ، وأَدَّاه إلينا العلَّامة إحسان عبَّاس في كلمةٍ أَوْجَزَ فيها فلسفة الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، منذ اتَّجَهَتْ هِمَمُ أبنائها إلى إدارة الكلام في أحوال أَنْفُسِهم، أوْ في أحوال الآخرِين، فكانَتْ مُصَنَّفات «التَّراجِم والسِّيَر» في تُراثنا - ونستطيع أنْ نَسْلُكَ في عِدَادِها كُتُب الفهارس والأثبات والبرامج والمَشْيَخات = سِيَرَ تَلْمَذَةٍ وأشياخٍ وكُتُبٍ وتَلَقٍّ وتَحَمُّلٍ وإجازات

أَمَّا في سِيرة العالِم أو الفقيه فإنَّ المُهِمَّ هو سَرْد أسماء الأساتذة الَّذين عَلَّموه والأماكن الَّتي زارها والأحاديث الَّتي رواها، وتَتَّفق أكثر السِّيَر الإسلاميَّة

(١) - عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة، ص ص ١٢١ - ١٢٣.

في سَرْد الصِّفات الخُلُقِيَّة والعقليَّة إمَّا بالتَّنويه بها أوْ بإيراد القصص المختلِفة الَّتي تُصَوِّرها[١]

(١) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ٣١.

بَيْنَ الذَّاكرة والنِّسْيان[١]

نقرأ في **ذكريات عليّ الطَّنطاويّ** قوله: «هذه ذكريات وليسَتْ مذكِّرات؛ فالمذكِّرات تكون متسلسِلة مرتَّبة، تَمُدُّها وثائق مُعَدَّة، أوْ أوراق مكتوبة، وذاكرة غَضَّة قويَّة. وأنا رَجُلٌ قدْ أدركه الكِبَرُ فَكَلَّتِ الذَّاكرة وتَسَرَّبَ إلى مَكامنها النِّسْيان. والنِّسيان آفة الإنسان، وإنْ كان نِعْمة مِنَ الله. ولولا أنَّ المَرْء ينسى آلام الحياة ما استطاع السُّكُون إليها ولا الرِّضا بها»[٢]. وكأنَّما أرادَ أنَّ كاتب السِّيرة الذَّاتيَّة لا يَتَذَكَّر كُلَّ شيْء، ولا يَنْسَى كُلَّ شيْء.

والسِّيرة الذَّاتيَّة، مهما أَرَدْتَ لها حَدًّا، هي تلك الحياة الَّتي

---

(١) - صحيفة الرِّياض، ١٠ مِنْ شهر رجب سنة ١٤٣٣هـ = ٣١ مِنْ شهر أيار (مايو) سنة ٢٠١٢م.

(٢) - الطَّنطاويّ، عليّ. **ذكريات عليّ الطَّنطاويّ** (جدَّة: دار المنارة، ٢٠٠٧م)، ١/ ١٧.

تَتَرَجَّح بين الذَّاكرة والنِّسيان؛ بين ذاكرةٍ موشومةٍ لا تَنْسَى شيئًا، وأُخرى مثقوبةٍ لا تُبْقِي شيئًا، إنْ طَغَتِ الذَّاكرة رَدَغَتْ في دَرْبٍ زَلِقٍ محفوفٍ بالتَّفاصيل، وإنْ جَفَّتْ افتقرَتْ وأَمْحَلَتْ وأعلنَتْ مَوْتَها.

وامِّحاء الذَّاكرة واتِّقاء النِّسيان خطرٌ يتهدَّد الإنسان. وأَعْدَى عوادي الذَّاكرة الشَّيخوخة والمَرَض. وتَسَرَّبَ أَثَرٌ مِنْ ذلك إلى اللُّغة، فَأَوْغَلَتْ في دهاليز الذَّاكرة وطبقاتها، وإذا ما ظَفِرَتْ بذكرَى فهي «أغلى مقتنياتها»، وإذا ما شَحَّتْ وأصْحَرَتْ تُشَبَّه بالثَّوب تُقَلَّب جُيُوبه، ويُنْفَض، فعسَى أن نعثُر على أثرٍ مِنْها = وبالبيت نبحث في أركانه، فعسى أنْ نَحْلَى مِنْه بطائل.

نقرأ تلك التَّشبيهات في **ذِكريات** عليّ الطَّنطاويّ، وفيها يختبِئ خوفُ امِّحاء الذَّاكرة خَلْفَ كُلِّ سَطْر، فإذا عاد وفي يَده شيْءٌ مِنْها، كانتْ، حينئذٍ، «أغلى مقتنياته». وفي سِيرة مصطفى عبد الغنيّ، الَّتي دعاها **قَبْلَ الخُرُوج**، فَزَعٌ - يُوشِكُ أن يكون مَرَضًا - مِنْ جفاف الذَّاكرة، ويُشبِّه غَسَق الذَّاكرة تشبيهًا طريفًا يستعيره مِنْ مفردات الشِّطْرنج «إنَّها محاولة لِتَذَكُّر وُجُوه البيدق والخُيُول قَبْلَ أن يَسْقُط المَلِك»، فالرَّجُل مَسَّهُ طائفٌ مِنَ الخوف، وتَوَهَّمَ أنَّه في طريقه إلى النِّسْيان التَّامّ، فَمَرَضُ

«الألزهايمر» يَتَسرَّب إلى خلايا دماغه، فعسَى أن يَسْتَنْقِذَ ماضيه قَبْلَ أن يَطُمَّه النِّسيان ويَمَّحِي، فيبلغ «أرذل العُمْر»، وهو - في تلك المُدَّة - لمْ يُشَارِفِ السِّتِّين، ولولا أوراقٌ قَيَّدَ فيهنَّ جانِبًا مِنْ حياته، لَعُدِمَ القُدْرة على إثبات شيء مِنْ تلك الحياة، فما تَبَقَّى مِنْها ليس سِوى «أعشابٍ جافَّة». فهلْ بِيَدِهِ استنقاذها!

إنَّها «الذَّاكرة»، تلك الَّتي تُلَخِّص حياة هذا الكائن العجيب الَّذي يُدْعَى إنسانًا، تصوغه على هواها، وتَكِيد له بِـحِيَلها كما تشاء، تَصْلُب حتَّى تُشْبِه الـحَدِيد، وتَضْعُفُ حتَّى لَكأنَّها مُنْخُلٌ لا يكاد يحتفظ بشيْء، يَحْمِلها الإنسان في حياته كما يَحْمِل قَدَره، ويَوَدُّ، حِينًا بَعْدَ حِينٍ، أن يُنَحِّيَها، فيتخفَّف مِنْها، وينساها، ويَكِدّ، آنًا آخرَ، في استدعائها فتعصيه، ويُلِحّ في طِلَابها فتنفر وتَشْرُد، وهكذا يَقْطَع عُمْره يَتَذَكَّر وَيَنْسَى، وبين الذَّاكرة والنِّسْيان يستوي إنسانًا وُلِدَ وعاشَ فماتَ!

وليس مِنْ خوفٍ يتهدَّد الإنسان مِثْل خوفه مِنِ امِّحاء ذاكرته، وكأنَّه إذْ ذاك، لَقًى في الطَّريق، لا يَعْرِف له سبيلًا، يطالع الوُجُوه فلا يستبين لها أثرًا في فؤاده، إنَّه يعيش في الآن وفي اللَّحظة وحيدًا شريدًا. ولوْ قُدِّرَ للإنسان أنْ لا يَنْسَى فذلك عذاب

آخَر، وأَحْسَبُهُ لا يَسْتَرِيح مِنْ ثِقْل وطأتها عليه، وتَحْمِله على أنْ لا يُفَكِّر، وتَحْرِمه مَلَكَةَ أن يَسُدَّ شُحُوب النِّسيان بالتَّصَوُّر والتَّخَيُّل.

والكتابة، أَيًّا تَكُنْ، إنَّما هي مُقابَلة بين التَّذَكُّر والنِّسْيان، والكاتب حِين يُثْبِتُ جُملةً فإنَّه يَمْحو أُخرى، ويتخيَّر كلمة ويَعْدو أُخْتها، هذا هو سبيل اللُّغة، وهذا هو قَدَر الكِتابة: أنْ تكون مُرَاوَحة بين الـمَحْو والإثبات، وبين الذَّاكرة والنِّسيان، وعلى ذلك كانتْ قراءة الأدب؛ فقارئ الآثار الأدبيَّة يَبْحث في التَّعَيُّن المادِّيّ للصَّوت والكتابة، وما يستكِنُّ خلفهما، ومهما تختلِفْ ضُرُوب قراءة الآثار الأدبيَّة، فإنَّها تطلب الغائب في النَّصّ المقروء، ولن يرضَى القارئ أن يَتَقَبَّل النَّصَّ ناجِزًا، ولوْ قال الكاتب كُلَّ ما هَجَسَ في صَدْره، لَـمَا خَلَدَتِ الآثار الأدبيَّة والفلسفيَّة، في رحلة الإنسان على هذه الأرض.

والإنسان يَعيش لِيَرْوِي، كما يقول غابرييل غارسيا ماركيز، ولكنَّه، كذلك، يَعيش لِيَنْسَى، وإنْ لمْ يَنْسَ فعليه أن يَنْسَى، ومِنَ الذَّاكرة والنِّسْيان يُولَد الأدب ومختلِف أشكال الكتابة.

والنِّسْيان عُنْصُرٌ أصيلٌ في السِّيرة الذَّاتيَّة، وهذا الضَّرْب مِنَ الكتابة رَكْضٌ خَلْفَ ذاكرة طَغَى النِّسْيان عليها، ويَغُور الكاتب

في بِئْره الأُولى، يبحثُ ويفتِّش، فعسى أنْ تُعِينه، فإنْ جَفَّتْ فليس سِوى الخَيَال يُرَمِّم ما تَهَدَّمَ مِنْ ذاكرته، فللكتابة حِيَلها، ومِنْ حِيَلها قُدْرتُها على الاختلاق، وتَوَهُّمُها أنَّ ما تختلقه حَقٌّ لا مِرْيَة فيه، ولَعَلَّ هذه السِّمَة، الَّتي انطوَتْ عليها السِّيرة الذَّاتيَّة، اقتَضَتِ المُنْشِئين والنُّقَّاد أن يَعْتدُّوها هي والقصيدة الغنائيَّة سَوَاء، وأن يغفروا لكاتب السِّيرة الذَّاتيَّة غُلُوَّه وتعاظُمَه، وأن يَسْكتوا عنْ كذبه وخُيَلائه، ما وَفَى للأدب ونَزَلَ على سُنَنه، ولكنَّه يعيش، أبدًا، بين فِعْلَيْ أذْكُر ولا أَذْكُر، بين ما قاله طه حسين في السَّطْر الأوَّل مِنَ **الأيَّام**:

> لا يَذْكُر لهذا اليَوْم اسْمًا ولا يَسْتطيع أن يَضَعه حيثُ وضعه الله مِنَ الشَّهْر والسَّنَة، بلْ لا يَسْتطيع أن يَذْكُر مِنْ هذا اليَوْم وقتًا بعينه، وإنَّما يُقَرِّب ذلك تقريبًا

= وما قاله عزيز ضياء في مُفْتتح **حياتي مَعَ الجوع والحُبّ والحرب**:

> أوَّل صباح في حياتي... مَنِ الَّذي يَسْتطيع أن يَذْكر أوَّل صباح في حياته (...) ولكنْ أنا... أنا أَذْكُر أوَّل صباح في حياتي!

تَكَرَّرَتْ في الفُصُول الأُولى مِنْ سِيرة أحمد أمين **حياتي** عِبَارة «أَعْصُر ذاكرتي»، وفي المعجم: «عَصَرَ الشَّيْءَ عَصْرًا:

استخرَجَ ما فيه مِنْ دُهْنٍ أوْ ماءٍ ونَحْوه... والعَصِير: ما تَحَلَّبَ مِنَ الشَّيْء عِنْدَ عَصْرِه».

وبينما يُخْرِج العَصْرُ ما في الشَّيْء مِنْ سائل أوْ نَحْوه، فإنَّ عَصْر الذَّاكرة يَشِي بجفافها وكَلالها وضَعْفها، وكأنَّها ثَمَرَةٌ جافَّة لا يكاد يَتَقَطَّر مِنْها شيْءٌ ذو بال، هي في الثَّمرة كذلك، لكنَّ لها أثرًا مختلِفًا في السِّيرة الذَّاتيَّة، حتَّى لَكأنَّها أضحَتْ أساسًا لا يقوم له قِوَام إلَّا بها، ولا تكاد سِيرة تخلو مِنْ أثر لها، فَخَلْفَ كُلِّ ذاكرةٍ خوفٌ مِنْ عوادي النِّسْيان؛ أن يَجِفَّ البِئْر، أوْ أنْ تَعْبُر قَطَرَات النَّهْرِ سريعةً، دُون أنْ تؤوب مِنْ جديد، فَثَمَّ رغبة لدى كاتب السِّيرة الذَّاتيَّة «أن يَخْطو في النَّهْر نَفْسه مَرَّتيْن»! على عكس ما قاله هرقليطس، وإنِ استعصَى عليه أن يستجمع ذَرَّات حياته، فلا أقلَّ مِنْ أن يعيش ذلك الوهم وأن يُقْنِع قارئَه به.

لَذَّة التَّذَكُّر[1]

إنَّني إذْ أَنْكَبُّ على هذا الكِتاب فأستعيد ذكرياتِ ما كان مِنْ أمري في هذه الدُّنيا، سأكون كَمَن يعيش عُمْرَهُ مَرَّتَيْن.

ميخائيل نعيمه

سبعون، ص ١٤

كُلُّ كتابة عن الذَّات قمينة بأنْ تَنْزِل مِنَ الأدب منزلةً سَنِيَّةً، إذا تَهَيَّأَ لِمُنشئها مِنَ الفنِّ والتَّجويد ما يجعلها قريبةً مِنْ قارئها، وكُلُّ سِيرة ذاتيَّة تنطوي على متعة مُسْتكِنَّة فيها، ولوْ لمْ يُعْنَ كاتِبها بِقُوَّة الأسلوب وجَمَال السَّرد، فللذِّكريات سِحْر غالب، وللقَصِّ مَخَايِله، وعلى قَدْر اللَّذَّة الَّتي يُحِسُّها مَن يَقُصُّ عليك طَرَفًا مِنْ حياته، تَلَذُّ لك تلك الحياة المستعادة، ولا تُعَتِّم أنْ

(١) - صحيفة الرِّياض، ١٥ مِنْ شهر ذي القعدة سنة ١٤٢٩هـ = ١٣ مِنْ شهر تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ٢٠٠٨م.

تُقْبِلَ على مَن يروي لك جانِبًا مِنْ حياته، بِسَمْعِك وبَصَرِك وكُلِّ حواسِّك، ولَعَلَّ الحكاية، وهي أَصْل أصيل في الإنسان، لا تَبْلَى، مهما تَكَرَّرَتْ، بلْ تَزيدها الأَيَّام جِدَّةً وجَمالًا.

وكتابة السِّيرة - سِيرة الذَّات وسِيَر الآخَرين - تنطوي على ضُرُوبٍ مِنَ الدَّوافع، تَحمِل مُنْشِئَها على تقييد حياة أضحَتْ مِثالًا ونموذجًا يُحتَذَى، وحُقَّ لها أنْ تُدْعَى «سِيرة»، لِمَا قَرَّ فيها مِنْ معنى القدوة والنَّهْج، على ذلك النَّحْو الَّذي تَحَدَّرَ إلينا مِنْ كُتُب التَّراجم والسِّيَر والطَّبقات في التُّراث العربيّ، ويَشُدُّكَ في ذلك التُّراث تَعَلُّق أبنائه بسِيَر النَّابهين مِنَ الرِّجَال والنِّساء، في غير عِلْمٍ وفنّ؛ فمِنْ سِيَرٍ وتراجِمَ للمُحَدِّثين والمفسِّرين والفُقَهاء وطبقاتهم، إلى سِيَرٍ وتراجِمَ للنُّحاة والأدباء والمؤرِّخين والفلاسفة والحكماء والوزراء والكُتَّاب.

ولَمْ تَخْلُ الثَّقافة العربيَّة في عُصُورها القديمة مِنْ كتابة عن الذَّات، ولَمْ يَكُنِ الأمر، كما استقرَّ في وَهْم بعض الباحثين، بالقليل النَّزْر، فالسِّيرة الذَّاتيَّة - أو التَّرجمة الشَّخصيَّة - شاعتْ وفَشَتْ في العُصُور العربيَّة القديمة، وتَكَشَّفَ لجمهرة مِنَ الباحثين طائفةٌ مِنْ تلك السِّيَر، صَنَّفَها أدباء وعلماء في أحوال أَنْفُسِهم، كما هي عِبَارَة المستشرق كارل بروكلمان، وكما اهتدَتْ إلى ذلك جُمْلةٌ مِنَ الدِّراسات الحديثة.

وتختلف البواعث الَّتي تَحْمِل إنسانًا على أن يُنْشِئَ سِيرة ذاتيَّة، مِنْ كاتِبٍ إلى آخَر، وكأنَّه، إذْ يستعيد ما مضى مِنْ حياته، إنَّما يَنْزِل على رغبة كامنة في ذاته، قدْ يُفْصِح عنها، وقدْ يُخْفيها، ولكنَّه، في كِلَا الأمرين، يَصْدُر عنْ دافع، أوْ باعث، يَحْدُوه إلى كتابة تجعل «الذَّات» موضوعًا لها، ويتكشَّف الدَّافع شيئًا فشيئًا للقارئ الفَطِن، مهما أراد صاحِب السِّيرة مُواربته وإخفاءَه.

ومِنْ أَشْيَع تلك الدَّوافع: التَّسويغ - أو «التَّبرير» - يُسَوِّغ به الكاتب أفكاره الَّتي اعتقدها، ويُنافِحُ دُونَها، ويُساجِل مُناوِئيه والمتعصِّبين عليه، ومِثالُهُ **تربية سلامة موسى**؛ أنشأَها صاحِبُها دفاعًا عنْ أفكارٍ أباها المجتمع وأنكرها عليه، فلمْ يرجع عنها، وبالَغَ في مُشايعتها، واعتزل المجتمع، ولمْ يهادنْه، وأَسْرَفَ في نَقْده والخُرُوج عليه

> وقدْ يكون الدَّافع الأوَّل لكتابة هذه السِّيرة أنِّي أُحِسُّ، إلى حَدٍّ كبير، أنِّي منعزل عن المجتمع الَّذي أعيش فيه، لا أنساق مَعَه في عقائده وعواطفه ورُؤياه. وعندئذٍ تكون هذه التَّرجمة التَّبرير لموقفي مَعَ هذا المجتمع، وهو موقف الاحتجاج والمعارَضة. فأنا أكتب كي أُسَوِّي حِسابي مَعَ التَّاريخ

غير أنَّ هذه البواعث الَّتي يرجعها جورج ماي إلى أَصْلٍ

«عقلانيّ»، تقوم إِزاءَها بواعث أُخْرَى منشأُها نَفْسيّ أَوْ ذاتيّ. ومِمَّا اخْتُصَّتْ به الثَّقافة الإسلاميَّة: «التَّحَدُّث بنعمة الله»، وهو أصل قرآنيّ مَهِيب، اصطنعه نَفَرٌ مِمَّنْ صَنَّفوا في أحوال أَنْفُسِهم، فسِيرة العالِم المسلم تَصْدُر، في أغلب أحوالها، عنْ هذا الأصل، ويلقانا مِنْها سِيَرٌ وتراجمُ ذوات عدد، أَبعدُها أَثَرًا **كِتاب التَّحَدُّث بنعمة الله** لجلال الدِّين السُّيوطيّ (٨٤٩ - ٩١١هـ). ويستجلب النَّظَر أنَّ هذا الأصل القرآنيّ المَهِيب، اتُّخِذَ ذريعةً يَتَخَلَّص بها كاتِب التَّرجمة الشَّخصيَّة مِنْ ثِقْل الحديث عن النَّفْس، وتُكَأَةً للسَّرد والقَصّ، فالحديث عن النَّفْس بغيض ثقيل، فما بالُكَ بِمَنْ أنشأَ يَعْرِض «نُبُوغه» على النَّاس، كالسُّيوطيّ وغيره، يزهِّدهم في ذلك نَهْيُ القرآن الكريم عنْ «تزكية النَّفْس»، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النَّجم: ٣٢].

واستقرَّ في واعية النَّاس والثَّقافة أنَّ الحديث عن النَّفْس مِنَ المُهْلِكات، وكَرِهُوا مِنْ ضمائر اللُّغة «أنا»، وأَتْبَعُوه - متى اضطرُّوا إليه - عِبارةً شائعةً يُطَأْطِئون بها مِنْ غُلَوَاء العُجْب، كُلَّما تَحَدَّثَ أَحَدُهم عن نَفْسه: «أنا، وأعوذُ بالله مِنْ كلمة أنا»! وكأَنَّهُمْ، إذْ يستعيذون بالله مِنْ «أنا»، إنَّما يساوون بين هذا الضَّمير وإبليس، وعَهْدُ هذا الأخير بالكِبْر والغُرُور قديم.

يقول ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة:

وَلْيَحْذَرْ كُلَّ الحَذَر مِنْ طُغيان «أنا»، و«لِي»، و«عندي»، فإنَّ هذه الألفاظ الثَّلاثة ابتُلِيَ بها إبليس، وفرعون، وقارون، فـ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢] لإبليس[١]، و﴿لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزُّخْرُف: ٥١] لفرعون[٢]، و﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القَصَص: ٧٨] لقارون[٣]. وأحسن ما وُضِعَتْ «أنا» في قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفِر، المعترِف ونَحْوه. و«لي» في قوله: لي الذَّنْب، ولي الجُرْم، ولي المَسْكَنة، ولي الفَقْر والذُّلّ. و«عندي» في قوله: «اغفرْ لي جِدِّي، وَهَزْلِي، وَخَطَئِي، وَعَمْدِي، وكُلُّ ذلك عندي»[٤]

فإذا اطَّرَحْنا ما يُداخِل الحديث عن النَّفْس مِنْ ألوان

(١) - ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

(٢) - ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٥١].

(٣) - ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القَصَص: ٧٨].

(٤) - ابن قَيِّم الجوزيَّة، شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر الزَّرعيّ الدِّمشقيّ. **زاد المَعاد في هَدْيِ خير العِباد**، حَقَّقَ نُصُوصه، وخَرَّجَ أحاديثه، وعَلَّقَ عليه شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م)، ٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥.

العُجْب، وإذا نَحَّيْنا صُدُور السِّيرة الذَّاتيَّة عن التَّسويغ، وما سِوَاه مِنْ بواعثَ ودوافع = رَأَيْنا في كتابة السِّيرة رغبةً كامنةً، تَشُدُّ كاتِبَها إلى نَفْسه شَدًّا، وتختلف بواعث السَّرد، ويصبح الباعث على إنشائها نَفْسِيًّا خالصًا؛ ويَلَذُّ للكاتِب، عندئذٍ، أن يستعيد ماضي حياته، يَجِدُ فيه هناءه ومتعته ومعنى وُجُوده، ويَوَدُّ، كُلَّما استعاد تلك الحياة، لوْ شاركه القارئ في تَصَيُّد تلك المتعة، فإنْ لمْ يُفْلِحْ فلا أقلّ مِنْ أن يَجِدَ في ماضيه المستعاد، أنيسًا له في وَحْشته.

يَذْكُر عبد العزيز الخويطر في مُقَدِّمة الجُزْء الأوَّل مِنْ سِيرته الذَّاتيَّة **وَسْم على أديم الزَّمن** ما يُؤيِّد هذا الرَّأي

> ولِي عُنْصُرُ أَثَرَة في هذا، لا أُخفيه، وهو أنِّي سوف أتمتَّع، قَبْلَ القارئ، بذكرياتي كما كانتْ، ورُبَّما كانتْ مُتعتي بهذا أكثر مِنْ مُتعته، فليسمحْ لي بهذا، وَلْيَغْفِرْ لي أنْ أمشي أمامه، فأنا مُسْتَحِقٌّ ذلك، لأنَّ بعض ما سوف أذكره قدْ دَفَعْتُ ثمنه سنين مِنْ عُمْري، أشابَتِ الشَّعْر، وأنهكَتِ الجِسْم، وأضعفَتِ الحواسَّ، وكُلٌّ يُغَنِّي على ليلاه، وذكرياتي هي لَيْلاي، والحمدُ لله على ما وَهَبَنِي في حياتي، وهو أعلم بِمَا مَنَعَ، له الحَمْدُ أوَّلًا وآخِرًا
>
> **وَسْم على أديم الزَّمن**، ١/ ١٢ - ١٣

وما قرأْناهُ عند الخويطر ليس بالغريب ولا العجيب، وليس للإنسان مِنْ «تاريخ» إلَّا ما مضى مِنْ حياته، فإذا ارتفعَتْ سِنُّه تَعَلَّقَ بماضيه، وشَدَّهُ الحنين إليه، يزهو به متى ذَكَرَه، ويَلَذُّ له كُلَّما استعاده، وعسى أن يَنْطَوِي ذلك على معنًى وُجُوديّ عميق: فإلى أين يمضي بنا المستقبل؟ إنَّه يمضي بنا إلى النِّهاية، إلى «الموت» ذلك المَصِير القاتم الفاجع، وليس يَدْفَع شبح الموت سِوى الارتماء في حِضْن الماضي، وعندئذٍ تُحقِّق الكتابة معناها الوُجُوديّ، في مقاومة الفَناء والتَّشَبُّث بالحياة، فسِيرة الخويطر، تلك الَّتي أصدرها مُنَجَّمةً جُزْءًا فجُزْءًا، وأَرْبَتْ على عشرين مُجَلَّدًا = إنَّما تُخْفي في أعطافها مُدَافَعة الموتِ ومُقَاوَمةَ الفناءِ ومُغالَبَتَه، وكأنَّه استعارَ مِنْ **ألف ليلة وليلة** سِرَّها الكامن في اتِّصال «الحكاية»، فهو يَنْعَمُ بالحياة ما دامَ يكتب «حكايته»، فإذا أَمْسَكَ عن الكلام مات!

وهذا المعنى الَّذي تَكْشِف عنه سِيرة عبد العزيز الخويطر، له مَشَابِهُ في غير سِيرة عربيَّة.

نَلقاه في **أوراق حياتي** لنوال السَّعداويّ:

أرفع رأسي مِنْ فَوْق الورقة، أترك القلم لحظة.
لماذا أكتب سِيرة حياتي اليَوْمَ؟ أَلِحَنِينٍ إلى عُمْري
الَّذي مضى؟ هلْ مضى؟! أمْ في العُمْر بَقِيَّة؟ أتكون

الكلمات هي الملاذ الأخير للإمساك بِمَا فاتَ قَبْلَ
أن يفوت؟ تَثْبُتُ الصُّورة في الذَّاكرة قَبْلَ أنْ تتلاشَى؟
مُقَاوَمة الفناء مِنْ أَجْل البقاء في الوجود أو الخلود؟

أوراقي.. حياتي، ١/ ١٤[١]

وقَبَضَ عليه أنيس صايغ:

وأنا بحاجةٍ، اليَوْمَ، وقدْ لامَسْتُ الخامسة والسَّبعين
مِنَ العُمْر، أنْ أستعرض حياتي أمامَ عَيْنَيَّ: أفكاري
وأعمالي ومواقفي وصِفاتي ومشاعري وأخطائي
وتقصيراتي ونشأتي وأصدقائي وينابيع شخصيَّتي...

إذنْ فأنا أكتب لِنَفسي عنْ نَفْسي، وقدْ يَكْذِب المَرْءُ
على الآخَرين لكنَّه لا يَكْذِب على نَفْسه

أنيس صايغ عنْ أنيس صايغ، ص ص ١٣ - ١٤

ولكنْ ما الَّذي يَدْفَع إلى ذلك؟

إنَّها الشَّيخوخة، هذا الشَّبَح الرَّاعِب الَّذي يجعل الإنسان «صائرًا» لا «كائنًا»، إذا استعرْنا عِبَارة أندريه جِيدْ[٢]، و«الشَّيخوخة

(١) - أوردتْه أمل التَّميميّ في كِتابها **السِّيرة الذَّاتيَّة النِّسائيَّة في الأدب العربيّ المعاصر** (بيروت: المركز الثَّقافيّ العربيّ، ٢٠٠٥م)، ص ١٢٤. السَّعداويّ، نوال. **أوراقي.. حياتي** (القاهرة: مؤسَّسة هنداويّ، ٢٠١٧م).

(٢) - أوردَها سلامة موسى في سِيرته الذَّاتيَّة **تربية سلامة موسى** (القاهرة: سلامة موسى للنَّشْر والتَّوزيع، د.ت)، ص ٢٦٦.

- كما يقول أندريه موروا - هي الشُّعُور بأنَّه قدْ فاتَ الأوان، وأنَّ اللُّعْبة قدِ انتهتْ، وأنَّ المسرح - مِنَ الآن فصاعِدًا - قدْ أصبحَ مِلْكًا لِجيلٍ آخرَ!»[١].

والإنسان يحمد الله على نعمة «الذَّاكرة»، ففيها المَنْجَى والمَلْجَأ، وبها يَتَّقِي قسوة الحاضر ووحشيَّته، ويبني حياةً أُخْرَى باطِنة، وتُسْتَرَدُّ، آنَئِذٍ، ذكريات الطُّفُولة والشَّباب، يَدْفع بها شَبَح الشَّيخوخة. أدرك أرنست رينان هذا المعنى، فَاصطنَعَ **ذكريات الشَّباب والطُّفُولة** عنوانًا لِسيرته الذَّاتيَّة، وعَنَاهُ بقوله:

> ما زِلْتُ إلى الآن كُلَّما سَمِعْتُ أحدًا يُغَنِّي «لنْ نَعُود إلى الغاب»، أوْ «مَطَر، مَطَر، يا راعية» لا أتمالك أنْ تَعْرُوني لذلك هِزَّةٌ خفيفة[٢]

إذنْ! ما العمل؟

ليس إلَّا «الذَّاكرة» فعسى أنْ تبوح بأسرارها وأطيابها! وعساها تَكْشِف شيئًا مِنْ قُدْس أقداسها، ذلك أنَّ مَن يَفْقِد ذاكرته كَمَن يَفْقِد حياته، وهلِ الحياة إلَّا تلك الطَّبَقات الَّتي تُكَوِّنها الذَّاكرة! والإنسانُ هو الكائن الوحيد الَّذي له ذاكرة

---

(١) - إبراهيم، زكريًا. **مشكلة الحياة** (القاهرة: مكتبة مصر، د.ت)، ص ١٥٣.
(٢) - ماي، جورج. **السِّيرة الذَّاتيَّة**، تعريب محمَّد القاضي وعبد الله صولة (قرطاج: بيت الحكمة، ١٩٩٢م)، ص ٥٦.

تُسْعِدُهُ وتُشْقِيه، ولا جَرَمَ أَنَّها، بِحُلْوِها ومُرِّها، ستكون مَثابةً للنَّاس وأمنًا مِنْ سِجْن العُمْر، ذلك السِّجن الَّذي وَصَفَهُ عليّ الطَّنطاويّ فأَحْسَنَ الوصف:

> وأنا رَجُلٌ كُلَّما تَقَدَّمَتْ به السِّنُّ ازدادَ إيغالًا في عُزلته وهَرَبًا مِنْ جَماعته، فكأنَّه يَقْطَع كُلَّ يومٍ خيطًا مِنْ هذا الحَبْل الَّذي يربط زورقه بآلاف الزَّوارق الصَّغيرة الَّتي تَمْخَر عُبَاب الحياة مجتمعةً... حتَّى غَدَوْتُ وقَدْ رَثَّ حَبْلِي وتَصَرَّمَ إلَّا خُيُوطًا: طائفة مِنَ الأصحاب لا يبلغون عدد أصابع اليدين، وأماكن هي أقلُّ مِنْ ذلك؛ لا ألقى سِوَاهُم ولا أرتاد غيرها. ولمْ يَبْقَ لي في ليالِيَّ الطِّوَال مُؤْنِسٌ أوْ سميرٌ إلَّا هذه الكُتُب وهذا الماضي، أزداد كُلَّ يومٍ تَعَلُّقًا به وحنينًا إليه، أمَّا المستقبَل فأخافه ولا أجْرُؤُ على التَّفكير فيه

ولكنَّ الحياة ليستْ «إلَّا مجموعة الذِّكريات».

هذا ما خَلَصَ إليه عليّ الطَّنطاويّ في ذكرياته الَّتي وَقَفَ الموت دُون إكمالها، وخَرَجَتْ في ثمانية مُجَلَّدات بديعة. وأَقْرَبُ الظَّنِّ أنَّ هذا المعنى الوجوديّ العميق لمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ لوْ لمْ يَبْلُغِ الشَّيخوخة، تلك الَّتي عَلَّمَتْه مِنْ معاني الحياة ما لمْ يَعْلَمْهُ في شبابه. فما الَّذي تَعْنِيه الحياة، وقدْ طَعَنَ في السِّنّ؟ إنَّها تَعْنِي «الذِّكريات»

«الحياةُ الحُبُّ، والحُبُّ الحياة». هذا ما قاله شوقيّ،

ولكنِّي لَسْتُ في هذا مَعَه؛ فقدْ يموت الحُبُّ ويعيش
ناس بلا حُبّ. وما أنا مِنْ أنداد شوقيّ، لكنْ لوْ قال:
«ما العيش إلّا الذِّكريات» لكان أصدقَ

وعلى هذا فللإنسان حياتان؛ ظاهرة محدودة بِحُدُود الحاضر وسُدُوده، وباطنة جِمَاعُها ذكريات عَبَرَتْ على سَطْح التَّاريخ، ونَجَتْ مِنَ الذَّوَاء والفَناء، واختبأَتْ في طَيَّات العقل، واتَّخَذَتْها مُسْتَقَرًّا لها، فأمَّا الظَّاهرة فنَثْرِيَّة، وأمَّا الباطنة فشِعْرِيَّة، وتلك هي الحياة الحَقَّة، وهي خُلاصة التَّاريخ الإنسانيّ، ذلك الَّذي تَنَبَّهَ إليه الشَّاعر البُحْتُرِيّ، مِنْ وراء القُرُون:

عَيْـشٌ لَنَـا بِالأَبْرَقَيْـنِ تَأَبَّـدَتْ
أَيَّامُـهُ وَتَجَـدَّدَتْ ذِكْـرَاهُ
فَالعَيْـشُ مَـا فَارَقْتَـهُ فَذَكَرْتَـهُ
قِدْمًـا، وَلَيْـسَ العَيْشُ مَا تَنْسَـاهُ

وهو المعنى الَّذي نَلْقاهُ في سِيرة غابريل غارسيا ماركيز **عِشْتُ لِأَرْوِي**، وكأنَّه نَثْرٌ لِمَا قاله البُحْتُرِيُّ شِعْرًا:

الحياة ليستْ ما يعيشه أَحَدُنا، وإنَّما هي ما يتذكَّره،
وكيف يتذكَّره لِيَرْوِيَهُ

وقدْ عَبَّرَ عليّ الطَّنطاويّ، في فاتحة ذكرياته، عَمَّا تَحْمِلُهُ

«الذِّكريات» مِنْ بُذُور «الحياة»، وصاغ ذلك، وهو الكاتب البيانيّ الكبير، بأسلوبٍ مبنيٍّ على التَّشبيه المُرَكَّب، فقال:

فهذه ذكرياتي، حَمَلْتُها طُولَ حياتي وكُنْتُ أَعُدُّها أغلى مقتنياتي، لِأَجِدَ فيها يَوْمًا نَفْسي وأسترجع أمسي؛ كما يَحْمِل قِرْبَةَ الماءِ سالِكُ المَفَازة تَرُدُّ عنه الموتَ عطشًا. ولكنْ طالَ الطَّريق وانثقبَتِ القِرْبة، فَكُلَّما خَطَوْتُ خُطوة قَطَرَتْ مِنْها قَطْرة. حتَّى إذا قارَبَ ماؤها النَّفاد، وثَقُلَ عَلَيَّ الحِمْل، وَكَلَّ مِنِّي السَّاعِد، جاء مَن يرتق خرقها ويَحْمِل عنِّي ثِقْلها ويحفظ ما بَقِيَ فيها مِنْ مائها

إنَّ الإنسان يَسْتميت في استعادة ما مضى مِنْ حياته كُلَّما أوغلَ في السِّنّ وأَشْرَفَ على الهاوية، فإذا أسعفتْه الذَّاكرة جَدَّ في طِلَابِها، وكأنَّه حِين يبعثها فَتِيَّةً ذلك الشَّاعر الجاهليّ الواقف على الأطلال، يُناجيها ويهمس في أرضها المَوَات، فعساه يبعث في أوصالها الحياة، وهو يفعل ذلك لِيَدْفَع المَوْت عنْ رُوحه، أَمَّا إذا خانَتْه الذَّاكرة، لِضَعْفٍ أوْ خَرَف، فما أشقَى حياتَه! ووَيْلٌ لِمَنْ فَقَدَ ذاكرته! إنَّه يَفْقِدُ عُمْرَه كُلَّه، ولكَ أنْ تَتَخَيَّلَ إنسانًا لا ذاكرة له! إنَّه كائن مُسَطَّح، يعيش اللَّحظة دُون أن يحتفظ بها أوْ يستردَّها. أحسَّ ذلك شاتوبريان فقال:

ماذا سنكون بِدُون ذاكرة؟ سننسَى أصدقاءَنا، أَحِبَّتَنا،

> مَسرَّاتِنا، أعمالَنا. وسيعجز العبقريّ عن استجماع أفكاره، ويخسر أكثر العُشَّاق اندفاعًا رِقَّته إذا عَجَزَ عنْ تَذَكُّر شيْء. سَيُخْتَزَل وُجُودنا إلى لحظة مُتَعاقِبة مِنْ حاضرٍ يتلاشى أبدًا، ولن يكون لنا ماضٍ أبدًا. أيُّ مخلوقات مسكينة نحن، فحياتُنا مِنَ الخواء بحيث إنَّها ليستْ أكثر مِن انعكاس لذاكرتنا[(١)]

والإنسان يَلَذُّ له أن يستَرِدَّ طَرَفًا مِنْ حياته الماضية، ويألم أشدَّ الألم متى أُصِيبَ في ذاكرته، أوْ عَزَّ عليه استعادة جُزْء مِنْها، ويسعد أَحَدُنا إذا حكى له قريبٌ أوْ صَدِيقٌ طَرَفًا مِنْ صِبَاه ونشأته الأُولى، ونَلْقاه هاشِّين باشِّين، كَمَنْ وَجَدَ عزيزًا فَقَدَهُ، أوْ ضائعًا أيِسَ مِنْ وِجدانه، يَقِفُ على الأطلال، يستذكرها، ويسأل رُفقاءَه أن يستذكروها مَعَه، وكُلُّ إنسان، مهما تَكُنْ سِنُّه، لا بُدَّ أن يَقِفَ، يَوْمًا، على «الأطلال»؛ أطلال حياته، ولا بُدَّ أن يستحِثَّ رُفقاءه لِبَثِّ الحياة فيها، كما قال محمود سامي الباروديّ، في فَجْرِ العصر الحديث:

أَيْــنَ أَيَّــامُ لَذَّتِــي وَشَــبَابِي؟
أَتُرَاهَــا تَعُــودُ بَعْــدَ الذَّهَــابِ؟

---

(١) - ورنوك، ميري. **الذَّاكرة في الفلسفة والأدب**، ترجمة فلاح رحيم (بيروت: دار الكِتاب الجديد، ٢٠٠٧م)، ص ١٥٠.

ذَاكَ عَهْـدٌ مَضَـى، وَأَبْعَدُ شَـيْءٍ

أَن يَـرُدَّ الزَّمَـانُ عَهْـدَ التَّصَابِـي

فَأَدِيـرَا عَلَـيَّ ذِكْـرَاهُ إِنِّـي

مُنْـذُ فَارَقْتُـهُ شَـدِيدُ المُصَـابِ

وكما قال أحمد شوقيّ، في أَثَرِهِ، وكان يُكْثِرُ البُكَاءَ على شبابه:

اخْتِـلَافُ النَّهَـارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِـي

اُذْكُـرَا لِـي الصِّبَـا، وَأَيَّامَ أُنْسِـي

وَصِفَـا لِـي مُـلَاوَةً مِـنْ شَـبَابٍ

صُـوِّرَتْ مِـنْ تَصَـوُّرَاتٍ وَمَسِّ

عَصَفَـتْ كَالصَّبَا اللَّعُـوبِ وَمَرَّتْ

سِـنَةً حُلْـوَةً، وَلَـذَّةُ خَلْـسِ

ماء الذَّاكرة[1]

يكتب عليّ الطَّنطاويّ في ذِكْرياته:

فهذه ذكرياتي، حَمَلْتُها طُولَ حياتي وكُنْتُ أَعُدُّها أغلى مقتنياتي، لِأَجِدَ فيها يَوْمًا نَفْسي وأسترجع أمسي؛ كما يَحْمِل قِرْبةَ الماء سالِكُ الـمَفَازَة لِترُدَّ عنه المَوْتَ عطشًا

والطَّنطاويّ لمْ يَتطَلَّبِ السَّجْع والازدواج في كلمته تلك لِـيُدِلَّ بها على تمكُّنه مِنَ البيان، وأقربُ الظَّنّ أنَّه حِين أنشأ تلك الكلمة كان كَمَنْ فَكَّ صُندوقًا قديمًا، فَتَمَثَّلَ له ماضيه، فَجَعَلَ يقرأ في كُلِّ عادِيَّة مِنْ عادِيَّاته ناحيةً مِنْ حياته، وكُلَّما قَلَّبَ ذلك الصُّندوق تَمَثَّلَ له ماضيه، فافترَّ باسِمًا، فإذا بذكرياته قِرْشٌ أبيضُ ادَّخَرَه لِـمِثْل هذا اليَوْم.

---

(١) - صحيفة القبس، ١٠ مِنْ شهر صفر سنة ١٤٣٨هـ = ١١ مِنْ شهر تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ٢٠١٦م.

وتَشْبيه الذِّكْريات بـ«المُقتنيات» تشبيه طريف ودالّ. إنَّ الإنسان الَّذي تبدَّدَتْ ذِكرياته مِثْل الإنسان الَّذي لا مالَ له، أمَّا تشبيه الذِّكْريات بِقِرْبَة الماء تَرُدُّ عنْ صاحِبها الظَّمَأ في الصَّحراء المُهْلِكة، فإنَّه يُكِنُّ في داخله هَلَعًا مِنْ نفاد الماء، ومِنْ ثَمَّ العطش فالمَوْت

ولكنْ طال الطَّريق وانثقبَتِ القِرْبَة، فكُلَّما خَطَوْتُ خطوةً قَطَرَتْ مِنها قَطْرَة. حتَّى إذا قارَبَ ماؤها النَّفاد، وثَقَلَ عليَّ الحِمْل، وكَلَّ مِنِّي السَّاعد، جاء مَن يَرْتق خَرْقها، ويَحْمِل عنِّي ثِقْلَها ويحفظ لي ما بَقِيَ فيها مِنْ مائها

واستعارة الماء للذِّكْريات استعارة أصيلة في تاريخ الحياة، فَمِنَ الماء كُلُّ شيْء حَيٍّ، وخوف تَسَرُّب الماء مِنَ القِرْبة، قَطْرَةً قَطْرَةً، مُسْتكِنٌّ في كُلِّ سِيرة ذاتيَّة، باحَ بذلك صاحِبُها أمْ سَكَتَ، عَرَفَ أمْ لمْ يَعْرِفْ. وقَطَرَات الماء لدى الطَّنطاويّ، هي **البِئْر الأُولَى** عند جبرا إبراهيم جبرا، وهي **قَطَرَات مِنْ سحائب الذِّكْرَى** عند عبد الرَّحمن السَّدحان، وهي **النَّبْع القديم** عند عبد الغفَّار مكَّاويّ. والذَّاكرة كالماء مَصِيرُها أنْ تَجِفَّ، ولكنَّنا نَحْمِل أَنْفُسَنا لَعَلَّنا نفوز بِقَطْرةٍ تُطْفِئ الظَّمأ، فعسى أنْ نُـمْنَح الحياة.

وتَغُور الاستعارة المائيَّة في غير سِيرة ذاتيَّة، وتُغالي في الإلحاح على الذَّاكرة: يكرِّر أحمد أمين في سِيرته **حياتي**،

غيرة مَرَّة، عِبَارة: «أعصُر ذاكرتي»، ويَلُوذ حمد الجاسر، في مُقَدِّمة **سوانح الذِّكريات**، بِعِبارَة «وها أنا ذا أَعْصُرُها»، بَعْدَ أنْ كَلَّتْ ذاكرته، واحترقتْ مكتبته، ويخشى مصطفى عبد الغنيّ في **قَبْل الخُرُوج** فِقْدان الذَّاكرة، فأنشأَ يستعيد الزَّمن، فإذا هو «أقرب إلى السَّراب مِنْه إلى أيِّ شيءٍ آخَر»، وسعى إلى الكتابة فعسى أن يستنقذ «أعواد أعشاب الذَّاكرة» قَبْلَ أنْ تَجِفَّ تمامًا.

ويُطَالِعنا في جَذْب الذَّاكرة كَلِمٌ مأخوذ مِنَ «الـحَفْر»، يَؤول في أصْله إلى الأثَر، لكنَّه ليس ببعيد عنْ بئر الذَّاكرة الَّـتي عَفَا أثرها. يَكتب محمَّد عابد الجابريّ **حَفْرِيَّات في الذَّاكرة مِنْ بعيد**، ويكتب عبد الملك مرتاض **الحَفْر في تجاعيد الذَّاكرة**. والماء والأَثَر كِلَاهما إذا عُفِّي عليهما صَلْبٌ يابِس لا سبيل إلى الكشف عنه بما سِوى الـحَفْر، هناك نكشف بِئْرًا أوْ نَبْعًا مَطْمورًا، وثَمَّ نستدِلُّ على أَثَرٍ عَدَا عليه الزَّمان فَطَمَسَه، وفي الماء والأَثَر يَسْتَمِدُّ الإنسان مَعْنى حياته. والجابريّ - على تَشْبيهه الـحَفْر في الذَّاكرة بالـحَفْر في الأَثَر - يستعير النَّهْر لحياته، ويَسْتَبْدِل، في أسطرٍ قلائلَ، جفافَ الفلسفة بماء الأدب

> وإذا نحن شئنا الاقتصاد في الكلام، بتوظيف صورة
> أدبيَّة والكَفّ عنْ لُغة التَّحليل النَّظَرِيّ المجرَّد
> لموضوع نريد له أن يبقى القول فيه على السَّليقة ما

أمكن، قُلْنا إنَّ كاتِب هذه السُّطُور يَشْعر، حينما يلتفت وراءه ويَجُول ببصره وبصيرته، بعيدًا عنْ حاضره = يَشْعر وكأنَّ هذه السَّنين السِّتِّين الَّتي مَرَّتْ مِنْ حياته أَشْبَه ما تكون فعلًا - وهذا تشبيه مبتذَل ولكنَّه مناسب وجميل - بِنَهْر. نَهْرٍ يمتدُّ منبعه بعيدًا إلى منتصف الثَّلاثينات مِنْ هذا القرن حيث يتَّصل بروافدَ آتية مِنْ مسافات أبعد، تنقل إليه ابتسامات وانطباعات وتوضيحات اندمجتْ بصورة أو بأُخرَى في مجراه الخاصّ الَّذي يَتَّسع حِينًا ويَضيق حِينًا، يفيض ماءً تارةً ويَجِفّ أُخرى، وهو يضيِّق طريقه عَبْرَ معارجَ والتواءاتٍ ولَفٍّ ودَوَران، حتَّى إذا مضى عليه رُبْع قرن أخذ في الانقسام إلى تَيَّارين متوازييْن، متداخلَيْن ومنفصلَيْن في الوقت نَفْسه: تَغْمر أحدَهما تجربةٌ سياسيَّة، وتغْمر الآخَرَ اهتماماتٌ وهُمُومٌ ثقافيَّة، ولا زال التَّيَّاران يَغْتنيان ويتنافسان في تكامُل، أوْ قُلْ يتكاملان في تنافس

على أنَّ ما رآه الجابريّ تشبيهًا مبتذَلًا، هو أَصْلٌ أصيل في مسيرة الإنسان، منذ قال هرقليطس قولته الدَّالَّة: «إنَّكَ لنْ تستطيعَ أنْ تَعبُرَ النَّهْرَ مَرَّتَيْن»، ولا رَيْبَ أنَّ كُتَّاب السِّيرة الذَّاتيَّة كانوا، حِين استنقذوا طَرَفًا مِنْ ذكرياتهم، كمن يَعْبُرُ النَّهْرَ مَرَّتَيْن!

إحسان عبّاس وأدب السِّيرة[1]

يَغْلِب على الظَّنِّ أنَّ إحسان عبَّاس (١٣٣٩ - ١٤٢٤هـ = ١٩٢٠ - ٢٠٠٣م) كان أوَّل ناقدٍ يَقِفُ على أُصُول «فنِّ السِّيرة» وقواعده في الأدب العربيِّ المعاصر. كان ذلك لَمَّا أذاعَ في النَّاس كِتابه **فنّ السِّيرة**، عام ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م، وأنبأَ ذلك الكِتاب عنْ مقدرة فَذَّة وبصيرة نافذة في الكشف عنْ جُذُور فَنَّي «السِّيرة الموضوعيَّة»، و«السِّيرة الذَّاتيَّة»، في تُراث العرب وعَصْرهم الحاضر، وفي الآداب الأوربِّيَّة. كُلُّ ذلك في كِتابٍ ابتغَى صاحِبُه مِنْ ورائه تعريف القارئ العربيّ بهذا الفنّ الَّذي أَنشأَ يَشِيع عَقِبَ أنْ أخرجَ طه حسين كِتابه

(١) - صحيفة **الرِّياض**، ٢٣ مِنْ شهر جمادى الأولى سنة ١٤٢٦هـ = ٣٠ مِنْ شهر حزيران (يونيو) سنة ٢٠٠٥م، ٨ مِنْ شهر جمادى الآخِرة سنة ١٤٢٦هـ = ١٤ مِنْ شهر تمُّوز (يوليو) سنة ٢٠٠٥م، ١٥ مِنْ شهر جمادى الآخِرة سنة ١٤٢٦هـ = ٢١ مِنْ شهر تمُّوز (يوليو) سنة ٢٠٠٥م، ٢٢ مِنْ شهر جمادَى الآخِرة سنة ١٤٢٦هـ = ٢٨ مِنْ شهر تمُّوز (يوليو) سنة ٢٠٠٥م.

المشهور **الأيَّام** (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م)، فتنادَى نَفَرٌ مِنَ الأدباء والصَّحفيِّين والسَّاسة يُدوِّنون مُذَكِّراتهم وسِيَرَهُم الذَّاتيَّة.

لمْ تَعْرِفِ الثَّقافة العربيَّة الحديثة كِتابًا عن «السِّيرة» قَبْلَ كِتاب إحسان عبَّاس، ولمْ يَكُنْ نُقَّاد الأدب لِيُوْلُوا هذا الضَّرْبَ مِنَ الكِتابة عِنايتهم، إلَّا شيئًا قليلًا[١]، ومِنْ ذلك القليل الفَصْلُ الَّذي اختصَّ به عبد الرَّحمن بدويّ السِّيرة الذَّاتيَّة في كِتابه **الموت والعبقريَّة** (١٣٦٥هـ = ١٩٤٥م)[٢]. على أنَّه ليس بِخَافٍ أنَّ بدويًّا لَخَّصَ فيه نظراتٍ، كان المستشرق الألمانيّ فرنتس روزنتال قَيَّدَ فيهنَّ كلامًا عنْ مِقدار ما للمسلمين مِنْ سِهْمٍ في هذا الفنّ، حتَّى إذا وافانا عام ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م، ظَهَرَ القُرَّاء على كِتاب **المُنْتَقَى مِنْ دِراسات المستشرقين** لصلاح الدِّين المُنَجِّد، وفي فاتحته بحث جليل، أنشأهُ المستشرق الألمانيّ كارل بروكلمان بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، دعاه «ما صَنَّفَ علماء العرب في أحوال أَنْفُسِهم»[٣]، فإذا كانَتِ السَّنةُ الَّتي أَخْرَجَ فيها إحسان عبَّاس **فنّ السِّيرة**، ظَهَرَ القارئ

(١) - الجنديّ، أنور. «التَّراجم الذَّاتيَّة في الأدب العربيّ المعاصر»، مجلَّة الأديب، أيار (مايو)، سنة ١٩٦٨م، ص ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) - بدويّ، عبد الرَّحمن. **الموت والعبقريَّة** (الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم، د.ت).

(٣) - المنجِّد، صلاح الدِّين. **المنتقى مِنْ دراسات المستشرقين** (بيروت: دار الكِتاب الجديد، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م)، ص ص ٣ - ٢٣.

العربيّ على كِتابٍ آخَرَ صغيرٍ عنوانُه **التَّرجمة الشَّخصيَّة**[١]، وَضَعَهُ أستاذه شوقيّ ضيف. على أنَّ هذا الكِتاب الَّذي يُقاسِم **فنَّ السِّيرة** الرِّيادة، أدنَى إلى التَّاريخ مِنْه إلى النَّقْد الأدبيّ.

مَرَّ بنا أنَّ الغاية الَّتي ابتغاها إحسان عبَّاس مِنْ كِتابه، أن يأخذ بِيَدِ القارئ العربيّ إلى أُصُول هذا الفنِّ وقواعده، ولقدِ اصطنع لهذه الغاية سلسلة تَعَهَّدَها هو وزميله محمَّد يوسف نجم بالرِّعاية؛ فوضع إحسان عبَّاس **فنّ الشِّعْر** (١٣٧٣هـ = ١٩٥٣م)، وفنّ **السِّيرة** (١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م)، وأخرجَ محمَّد يوسف نجم **فنّ القصَّة** (١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م)، وفنّ **المقالة** (١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م)، ثُمَّ ما هي حتَّى أَقْبَلَ النَّاقدان الشَّابَّان على أُصُول النَّقْد الأدبيّ الحديث، وتَعَاهَدا على أن ينقلا إلى العربيَّة خير ما كُتِبَ مِنْه باللِّسان الإنـكليزيّ، فَاتَّصَلَ القارئ العربيّ بِكِتاب **النَّقْد الأدبيّ ومدارسه الحديثة**، لستانلي هايمن، بالاشتراك مَعَ نجم (١٣٧٨ - ١٣٨٠هـ = ١٩٥٨ - ١٩٦٠م)، وكِتاب **مناهج النَّقْد الأدبيّ بين النَّظريَّة والتَّطبيق**، لديفيد ديتسش (١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م)، نَقَلَهُ إلى العربيَّة محمَّد يوسف نجم وراجعه إحسان عبَّاس.

ونستطيع أنْ نَرْقَى بعناية إحسان عبَّاس بـ«السِّيرة» إلى زمن

(١) - ضيف، شوقيّ. التَّرجمة الشَّخصيَّة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م).

ضارب في القِدَم؛ إلى الصَّدْر الأوَّل مِنْ شبابه. كان في السَّادسةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمره يَوْمَ قامَتِ الثَّورة الفلسطينيَّة عام ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م. ويُهِمُّنا مِنْ ذلك الخَطْب أنَّ «مختار» قرية «عين غزال» قُتِلَ غَدْرًا، في منازعات عائليَّة، وأنَّه لَمَّا بَلَغَ القريةَ نبأُ مقتله «خَفَّ إلى مكان مقتله بقيَّة أهل البلد، صغيرًا وكبيرًا، وكُنْتُ أحد الَّذين تَطَوَّعوا لمشي تلك المسافة الطَّويلة في أرض وعرة مليئة بالأشواك والقريص. وكان أكثر النَّاس يبكون وينشجون، وعاد القرويُّون يَحْمِلون جُثَّته إلى القرية، وكُنْتُ واحدًا مِنَ الَّذين حزنوا كثيرًا لفقده، وفاتحْتُ ابنه محمَّدًا لكي يعطيني ما خَلَّفَهُ مِنْ مذكِّرات، لأنسج مِنْها سِيرةَ حياته».

ويخبرنا إحسان عبَّاس، في سِيرته **غُرْبة الرَّاعي**، أنَّه أَمَّ مِصْر عام ١٣٦٦هـ = ١٩٤٦م يريد الاختلاف إلى جامعتها، وأنَّه حَمَلَ في رحلته تلك مخطوطتين؛ أُولاهُما ترجمته عن الإنـگليزيَّة **لكِتاب الشِّعْر** لأرسطو، وأُخراهُما كِتابٌ مؤلَّفٌ عنوانُه **أبو حيَان التَّوحيديّ** - لمْ يَرَ النُّور إلَّا عام ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م - ثُمَّ أَخْرَجَ كِتابًا عن **الحَسَن البصريّ** عام ١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م. وكِلَا الكِتابَيْن يَنُمُّ عنْ شَغَفٍ مبكِّرٍ بالسِّيرة، وبخاصَّة سِيَر الزُّهَّاد والمتمرِّدين، ولا جَرَمَ أنَّ ذلك كان يلائم أفكاره، في ذلك العهد، وما نَزَلَ ببلاده فلسطين مِنْ خُطُوب.

لَمَّا حَلَّتْ نكبة فلسطين عام ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م، كان إحسان عبَّاس ما يزال على مَقاعد الدَّرْس في جامِعة فؤاد الأوَّل (القاهرة فيما بَعْد)، يصحبه زوجه وطِفْلاه، وبينما شَرَّدَتِ النَّكبة مئات الأُسَر الفلسطينيَّة، كانَتْ قدْ أنزلَتْ بعشرات الطَّلبة الفلسطينيِّين ألوانًا مِنَ العَنَاء والدَّمار والفاقة، وحَسْبُهُمْ أنَّهم وجدوا أَنْفُسَهم، فجأةً، دُونَ عائل، وانقطع عنهم ما كان يَصِلُهُمْ مِنْ وطنهم السَّليب، فعاش إحسان عبَّاس حقبة سوداء، اشتدَّتْ فيها الوطأة عليه، وتَوَالَتْ عليه النَّكبات، وكان أشدَّ ما اعترضه في تلك الحقبة فَقْد الوطن، وتَشَرُّد الأهل الَّذين هُجِّروا مِنْ ديارهم، وباتَ مُلاصِقًا للفقر والجوع والمسغبة، وقدْ كان عليه أن يُتِمَّ دراسته، وقدْ كان عليه، كذلك، أن يَرْعَى زوجه وطِفْلَيْه، فتَعَلَّقَ، في تلك المُدَّة مِنْ حياته، الَّتي أسماها «حِقبة الجوع»، بـ«سِيَر» الزُّهَّاد والجَوْعَى

وكان كُلُّ ذلك التَّوَجُّه نتاج «حِقبة الجوع» الَّتي عِشْتُها في القاهرة، وفيها كُنْتُ أُداوم قراءة سِيَر الزُّهَّاد المسلمين وسِيَر رُهْبان الصَّحراء المصريَّة، وأُحاول أنْ أرسم لِنَفْسي منهجًا يمنحني القُدْرة على مصارعة الجوع أوْ معرفة الوسائل الَّتي تُعِين على تَحَمُّله

وفي «حِقبة الجوع» هذه، اتَّصَلَ بأستاذه أحمد أمين يقرأ له

- حِين عَشَا بصره - طائفة مِنَ الكُتُب والبُحُوث والمقالات، واتَّفَقَ أنْ أَمْلَى عليه أستاذُه قَدْرًا كبيرًا مِنْ سِيرته الذَّاتيَّة المشهورة **حياتي**، وكان مِنْ ثمرة هذه الصُّحبة أنْ أنشأَ إحسان عبَّاس مقالتين؛ إحداهما عنْ كِتاب **حياتي**، والأُخرى عنْ «طريقته في الكتابة والتَّأليف»، وكِلْتا المقالتين تتَّصل اتِّصالًا ظاهرًا بأدب «السِّيرة الذَّاتيَّة»، وكِلْتا المقالتين كأنَّما كانَتْ توطئة لكِتابه **فنّ السِّيرة** (١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م)، ذلك الَّذي كَمَنَتْ وراءَ تأليفه «رغبة ذاتيَّة مُخْلِصة في أنْ أَعْرِض موضوعًا أحببْتُه وعِشْتُ تجارِب أصحابه مُدَّةً مِنَ الزَّمن»(١).

وتُوْشِكُ السِّيرة أنْ تستأثر بنشاط إحسان عبَّاس، حياتَهُ كُلَّها، ونراه يَصْرِف إليها طاقته ووُسْعه، وصار له مِنْها صُنُوف مِنَ الأعمال، تأليفًا وتحقيقًا، بلْ إنَّها استهوتْه قَبْلَ أن يُغادر بلده فلسطين إلى مِصْر، ومَرَّ بنا أنَّه مالَ إليها إثْرَ خُطُوب خَلَّفَتْها في نَفْسه حياةٌ تُشْبِهُ التَّصوُّف أوْ ما يَدْنُو مِنْه، وكأنَّما كانَتْ عنايته بكُتُب التَّراجم والسِّيَر دَيْنًا عليه، يُؤدِّيه لذلك العهد مِنْ حياته، فإذا أَقْبَلْنا على جريدة آثاره، رأينا هذا اللَّوْن مِنَ التَّأليف ظاهرًا لا تُخْطِئه العين، وحَسْبُنا أنْ نَذْكُر مِنْ تلك الآثار:

(١) - عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة، ص ٤.

الحَسَن البصريّ (١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م)، وأبو حَيَّان التَّوحيديّ (١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م)، والشَّريف الرَّضِيّ (١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م)، وبدر شاكر السَّيَّاب (١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م)، وأخبار وتراجم أندلسيَّة (١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م)، ونَفْح الطِّيب مِنْ غُصْن الأندلس الرَّطيب، للمَقَّرِيّ (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م)، والوافي بالوَفَيَات، للصَّفَدِيّ - الجُزْء السَّابع - (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م)، ووَفَيَات الأعيان، لابن خَلِّكان (١٣٨٨ - ١٣٩٢هـ = ١٩٦٨ - ١٩٧٢م)، وطبقات الفُقَهاء، لأبي إسحاق الشِّيرازيّ (١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م)، وفَوَات الوَفَيَات، لابن شاكر الكُتُبِيّ (١٣٩٣ - ١٣٩٧هـ = ١٩٧٣ - ١٩٧٧م)، والذَّخيرة في مَحاسن أهل الجزيرة، للشَّنْتَرِينيّ (١٣٩٤ - ١٣٩٩هـ = ١٩٧٤ - ١٩٧٩م)، ومعجم الأدباء، لياقوت الحَمَوِيّ (١٤١٣هـ = ١٩٩٣م)، ومعجم العلماء والشُّعراء الصِّقِلِّيِّين (١٤١٤هـ = ١٩٩٤م). فإذا وافانا عام ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م ظَهَرْنا على سِيرته الذَّاتيَّة غُرْبة الرَّاعي.

قال رضوان السَّيِّد: إنَّ إحسان عبَّاس عَلَّلَ له سِرَّ عنايته بكُتُب التَّراجم، بقوله:

> إنَّ النُّخْبة العالِمة في عُصُور الثَّقافة العربيَّة الزَّاهرة، كانَتْ تتأمَّل ذاتها ودَوْرها أوْ أدوارها، مِنْ خِلال تدوين

التَّراجم والطَّبقات، باعتبار ذلك مِرآةً لها، وتعبيرًا عنْ مرجعيَّتها في تَحَمُّل العِلْم وتداوُله وتوارُثه في بيئات مفتوحة، تستند تراتبيَّتها إلى التَّطوير والإنجاز[١]

وعَقَّبَ رضوان السَّيِّد على ذلك فقال: «والواقع أنَّ هذه الفكرة قديمة لدى إحسان عبَّاس؛ فقدْ ظَهَرَتْ في كِتابه الصَّغير البالغ الدِّلالة: فنّ السِّيرة، سنة ١٩٥٦م»[٢].

كان إحسان عبَّاس يَعْتَدُّ السِّلسلة الَّتي ينتسب إليها كِتاب فنّ السِّيرة لا تَجُوز عَتَبَة «التَّعريف»، وأنَّ غايتها الَّتي تبتغيها ليستْ إلَّا تعريف القارئ العربيّ بالفنون والأنواع الأدبيَّة. وعندي أنَّ هذا الكِتاب - وسائر كُتُب السِّلسلة - يتخطَّى هذه الغاية، ولَعَلَّه التمس إنشاء ضَرْبٍ جديدٍ مِنَ المعرفة النَّقْديَّة، لا يَقِفُ عند حُدُود العَرْض والتَّرجمة والتَّلخيص، وإنَّما يَجُوزها فيخوض في نَظَرٍ وتأمُّلٍ نَقْدِيٍّ وفلسفيٍّ، على غير ما أُنْشِئَتْ له تلك السِّلسلة، وكان، بِحَقٍّ، عَمَلًا نَقْدِيًّا رصينًا، يحفل، على قِدَمه، بالأفكار الجديدة، وأَحْسَبُه يُضارِع الكُتُبَ الَّتي تَصَدَّى لها نُقَّاد أوربِّيُّون مذكورون، أَظْهَرُها - فيما نحن

(١) - السَّيِّد، رضوان. «إحسان عبَّاس والتُّراث العربيّ»، مجلَّة الدِّراسات الفلسطينيَّة، خريف ٢٠٠٣م، ص ٦٩.
(٢) - السَّيِّد، رضوان. المرجع السَّابق، ص ٦٩.

بسبيله - كُتُب أندريه موروا، وجورج ماي، وفيليب لوجون. ثُمَّ إنَّ في كِتاب إحسان عبَّاس خصيصةً هي تَعَمُّقُه جُذُور «السِّيرة»، و«السِّيرة الذَّاتيَّة» في التُّراث العربيّ، ووقوفه على أهمِّ ما تَمَخَّضَ عنه هذان الفنَّان في الأدب العربيّ المعاصر، ولا سِيَّما كُتُب **الأيَّام** لطه حسين؛ و**عبقريَّات العقَّاد**؛ و**جبران** لميخائيل نعيمه؛ و**حياتي** لأحمد أمين؛ و**حياة الرَّافعيّ** لمحمَّد سعيد العريان... وسِوَاها.

لاءَمَ إحسان عبَّاس بين التَّاريخ والتَّحليل، وبَرَأَتْ دراسته للسِّيرة مِنْ آثار النَّظرات الاستشراقيَّة، تلك الَّتي ذاعَتْ في القرن التَّاسِعَ عشرَ، وتَلَقَّاها بِقَبُولٍ حَسَنٍ نَفَرٌ مِنَ المثقَّفين العرب واحتفلوا لها احتفالًا. وقدْ تَقَدَّمَ، مِنْ قَبْلُ، رأيٌ انتحله عبد الرَّحمن بدويّ، وتَحَمَّسَ له في كِتابه **الموت والعبقريَّة**، استجلَبَ فيه كلامًا مستهلَكًا مكرورًا، يتبوَّأُ فيه الغرب مقامًا سَنِيًّا يَقْصُر دُونه الشَّرق، واعتدَّ ذلك خصيصةً تُوْشِكُ أنْ تكون جِبِلَّةً لا يُستطاع الخروج عليها. وعنده أنَّ

> الفارق بين الرُّوح السَّامِيَّة والرُّوح الآرِيَّة كالفارق بين المخلوط والمزيج في لُغة أصحاب الكيمياء. فعناصر الرُّوح الأُولى منفصلة عنْ بعضها البعض، لا تتفاعل ولا يتأثَّر الواحد مِنْها بالآخِر إلَّا بمقدارٍ ضئيل.

بينما هي في الرُّوح الثَّانية مرتبطة كأقوَى ما يكون الارتباط، مُتَّحِدَة كأوثق ما يكون الاتِّحاد. فالزَّمان بالنِّسبة إلى الرُّوح الأُولى مُكَوَّن مِنْ آناتٍ ولحظاتٍ متناثرةٍ ومتنافرة؛ لا تَذْكُر اللَّاحقة مِنْها السَّابقة، ولا تشير الحاضرة مِنْها إلى المستقبلة أوْ لا تكاد. ولكنَّه عند الرُّوح الآرِيَّة كُلٌّ متَّصِلٌ مستمرٌّ، يدعو كُلُّ جُزْءٍ مِنْه الجُزْءَ الآخِر، إنْ كان فيه ثَمَّتَ أجزاء، وبه يُهيب. فالماضي مستمرٌّ في الحاضر، والمستقبل كامِنٌ في هذا الحاضر كذلك، وكأنَّ الزَّمان كُلَّه حاضرٌ مستمرٌّ خالد![1]

على ذلك قامَتِ التَّرجمة الذَّاتيَّة لدى «الآرِيِّين»، مِنْ يونانيِّين وفُرْس، وعلى ذلك كان اهتمام «السَّامِيِّين»، ومِنْهم العرب، بالتَّرجمة الذَّاتيَّة، غَيْرَ أنَّ تَأَثُّر هؤلاء المتأخِّرين بـ«الرُّوح الآرِيّ» لمْ يَخْلُ، في مذهبه، مِنَ «الانفصال» و«الهَبَاء» و«التَّشَظِّي»![2]

كان إحسان عبَّاس أقوى إحساسًا بالتَّاريخ، وأَمَسَّ رَحِمًا بحركته وسَيْره، بَرَأَ كِتابه مِنَ الأحكام المُعَدَّة سابقًا، وسَلِمَ منهجه مِنَ الجَدَل الفائل في الأعراق والثَّقافات والعُقُول.

---

(١) - بدويّ، عبد الرَّحمن. **الموت والعبقريَّة**، ص ١١٣.
(٢) - بدويّ، عبد الرَّحمن. المرجع السَّابق، ص ص ١١٤ - ١١٦.

هكذا تتجاور التَّجارِب التَّاريخيَّة للأُمَم، وهكذا ينمو «الحِسُّ التَّاريخيّ» لديها، يَدُلُّنا على ذلك أنَّ القرآن الكريم عَمَّقَ الإحساس بالتَّاريخ عند العرب[١]، حِين قَصَّ عليهم قصص الأُمَم الخالِيَة، يريد بذلك إثارة «العِبْرَة»[٢]، دُونَ أنْ تَجُور هذه الغاية الخُلُقيَّة على الكتابة التَّاريخيَّة نَفْسها

ولكنَّ مِنَ المدهش حَقًّا أنَّ هذه الغاية الخُلُقيَّة كانتْ أضعف المَظاهر حِين بدأَ المسلمون بكتابة السِّيَر، وقدْ بدأوها بكتابة سِيرة الرَّسول، وكان هذا البدء يشير إلى دَرْسٍ أخلاقيٍّ عميقٍ في حياتهم، لوْ شاءوا أن يتَّخِذوا سِيرة الرَّسول لتك الغاية، ولكنَّهم لمْ يفعلوا بلْ كتبوا سِيرته تحت مؤثِّرات أُخرى، نُفْرِد مِنْها بالتَّمييز عاملين كبيرين: الأوَّل أنَّ سِيرة الرَّسول جُزْء مِنَ السُّنَّة، فهي والحديث مَصْدران مِنْ مَصادر التَّشريع... والثَّاني أنَّ المسلمين كانوا قدْ ورثوا نظرة الجاهليَّة للتَّاريخ، وهي نظرة قائمة على «الأَيَّام» وطبيعة الحرب وشؤون القتال؛ ولذلك اهتمَّ كُتَّاب السِّيَر، قَبْلَ كُلِّ شيء، بمغازي الرَّسول... ولمْ يَكُنْ هذا مَحْض تقليدٍ لنظرة الجاهليِّين، بلْ كان في مستلزمات الجماعة الإسلاميَّة ما يؤيِّده ويدعو

(١) - عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة، ص ١٢.
(٢) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ١٢.

إليه؛ ذلك لأنَّ الفُتُوحات الإسلاميَّة الَّتي انبثقَتْ عن انتصار الإسلام في الجزيرة، كانتْ في حاجة إلى سَنَد مِنْ سُنَّة الرَّسول في هذا المجال: كيف يعامِل الأسرى والنِّساء والأطفال ويُقَسِّم الفَيْء، وهلْ يُرْوَى عن الرَّسول ما يوضح فنون الحصار، وهلْ تبيح الأعمال الحربيَّة قَطْع الشَّجَر وتخريب الزُّروع وقَطْع المُؤَن لِيَلْجَأَ العَدُوُّ إلى التَّسليم؟[١]

وغيرُ خافٍ أنَّ التَّاريخ كان، في أصل نشأته، جُزْءًا مِنْ عِلْم «الحديث»، يؤيِّد ذلك أنَّ كُتُب «السِّيَر» و«التَّراجم» و«الطَّبقات»، متى تأمَّلْناها، كانَتْ تقوم على «الإسناد»[٢]، ولا سِيَّما سِيرة الرَّسول ﷺ فبينما وَفَتِ السِّيرة النَّبويَّة، في مَصادرها الأُولى، عند ابن إسحاق والواقديّ وابن سعد والبلاذريّ، لِصَنْعة التَّاريخ

أَضْفَتِ الكُتُب المتأخِّرة نَوْعًا مِنَ التَّقديس على شخصيَّة الرَّسول لا يُلْمَح في المَصادر الأُولى. ويَظْهَر الرَّسول في أكثر الرِّوايات المبكِّرة، كما صَوَّره القرآن ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، ثُمَّ انصرف الكاتبون في السِّيرة إلى تدوين دلائل النُّبُوَّة وشمائل النَّبِيّ، وبذلك أَخَذَتِ العناصر التَّاريخيَّة

---

(١) – عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ص ١٢ – ١٣.
(٢) – عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ص ١٤ – ١٥.

تتضاءل أمام الغايات الخُلُقِيَّة في كِتابة السِّيرة، واتَّجَهَ كُتَّاب «الدَّلائل» مِنْ أمثال أبي نُعَيْم والبيهقيّ، ومؤلِّفو أعلام النُّبُوَّة كالسِّجِسْتانيّ والماورديّ إلى إثبات أكثر ما يمكن مِنَ المعجزات ونِسْبتها للنَّبيّ[١]

فإذا يَمَّمْنا وُجُوهنا نَحْوَ الشَّمال، رأيْنا أنَّ السِّيرة لمْ يختلِفْ شأنها كثيرًا في الآداب الأوربِّيَّة، عَمَّا كان في الأدب العربيّ القديم؛ استسلمَتْ، عندنا، لمذهب أصحاب التَّصوُّف والمَناقب، وحُفَّتْ، عندهم، بغير قليلٍ مِنْ أدواء الضَّعْف والنَّقْص، وأرادها مُنْشِئُوها على أنْ تكون سِجِلًّا لحياة المتصوِّفة والقِدِّيسين، وتقييدًا لكراماتهم، وإذا هي عارِيَةٌ مِنْ تجارب الإنسان ومُكابدته، وإذا بالعاطفة الدِّينيَّة تَسَلَّطَتْ على كُلِّ أنحائها[٢]، حتَّى إذا تَقَلَّبَ الغرب، وخاصَّةً فرنسة وإنـگلترة، في أَتون الثَّورة واضطربَتْ أحواله الاجتماعيَّة، وتَنَاهَبَتْه الأفكار، فَارتفعَتْ قِيَمٌ وهَوَتْ أُخرى، وبَزَغَ نَجْم «الطَّبقة الوسطى» = خَفَّ نَفَرٌ مِنَ الكُتَّاب يُصَوِّرون حياة العظماء، واستهوى هذا النَّوع مِنَ الأدب جمهرة واسعة مِنَ القُرَّاء[٣].

---

(١) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ١٧.

(٢) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ٣٨.

(٣) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ٤٠.

كان ذلك في القرن الثَّامِنَ عشرَ للميلاد، ذلك القرن الَّذي يُعَدُّ، بِحَقٍّ، عصر الدَّكتور جونسون Dr.Johnson ورفيقه بوزول Boswell، و«كِلَا الرَّجُلَيْن قدْ أدَّى لفنِّ السِّيرة يدًا لا تُنْكَر. وواحدُهما لا يُذْكَر في تاريخ الأدب منفصلًا عن الآخَر. فعنْ طريق بوزول، بَقِيَتْ صورة جونسون «الإنسان» حَيَّةً على الزَّمان؛ - أمَّا جونسون... هذا الرَّجُل كان بعيدَ الأثر في تاريخ السِّيرة، لأنَّ حُبَّه للصَّراحة والصِّدق، وثورته على التَّكلُّف والتَّزوير، والإلحاح على أنْ لا تكون السِّيرة خُطبة رِثاء أوْ تأبين = كُلُّ هذه غَيَّرَتْ مِنْ نظرة النَّاس إلى مهمَّة السِّيرة»[1].

كان ذلك في «السِّيرة الموضوعيَّة»، فإذا أَقْبَلَ يَدْرُس «السِّيرة الذَّاتيَّة»، في القِسْم الآخِر مِنَ الكِتاب = استجلبَ النَّظَرَ وفاءُ إحسان عبَّاس لأُصُول هذا الفنِّ، وأَظْهَرِ المُبَرِّزين فيه، مهما كان الكِتابُ صغيرًا، ولمْ تَصُدَّهُ طريقة «التَّعريف» الَّتي أَخَذَ بها، عنْ أن يُلِمَّ بالأصْل والنَّشأة، وأن يأتيَ على أهمِّ أعلامه، في الغرب والشَّرق، فإذا استوفَى القارئُ ذلك القِسْم، خَرَجَ مِنْه، وهو أَسَدُّ نَظَرًا بهذا النَّوْع الأدبيّ، فأَدَّى للتَّاريخ ما يستحقُّه مِنْ تأمُّل، وأَدَّى للنَّقْد الأدبيّ ما يرجوه قارئ «السِّيرة الذَّاتيَّة»، مِنْ

(١) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ص ٤١ - ٤٢.

أعلامها الغربيِّين والعرب، في كلامٍ لَمْ يَرْجُ مِنْه إحسان عبَّاس الإشارة والإلماح، مهما كان موجَزًا مختصَرًا، ووُفِّقَ، كثيرًا، إذْ ساقَ القول في ضُرُوبٍ مختلفاتٍ مِنْ تلك السِّيَر، وكان فيها «ناقدًا» لا «ناقِلًا»، على غير ما يُؤَمِّله قُرَّاء سلسلةٍ أُرِيدَ لها، في أَصْل نشأتها، أنْ تلتزم «التَّعريف» و«التَّلخيص»، حتَّى إذا بَلَغَ قارئُها الصَّفحة الأخيرة مِنَ الكِتاب، كان أَشَدَّ درايةً بتاريخ هذا الفنِّ الأدبيّ وقواعده، وأَعْمَقَ معرفةً بِمَوَاطِن الضَّعْف والقُوَّة فيه، في كلامٍ يَجْمَع إلى ثقافة النَّاقد وإحاطته، قُوَّةَ العِبَارة، وتَعَمُّقَ أُصُولَ النَّقْد الأدبيّ، والتَّهَدِّي إلى ما يريد، بِعِبَارة غير مُلْتَوِية، ومنطق غير ذِي عِوَج، وكان الكِتاب، بِحَقٍّ، مستوعِبًا لأمثلة السِّيرة الذَّاتيَّة، في تاريخها البعيد، وحتَّى زمن إنشائه.

وفي عام ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م أخرج إحسان عبَّاس كِتابه النَّفيس **بدر شاكر السَّيَّاب: دراسة في حياته وشِعْره**. وأَظْهَرَنا الكِتاب على منهجٍ في كتابة «السِّيرة» جديدٍ، يُبايِن ما استَتَبَّ في دراسات الأدب العربيّ الحديث. ومُجْمَلُ ما يقال هُنا: إنَّ إحسان عبَّاس لَمْ يَفْصِلْ بين حياة الشَّاعر وشِعْره، ولكنَّه دَرَسَ بدر شاكر السَّيَّاب

في إطارٍ مِنَ الشُّؤون العامَّة والخاصَّة الَّتي أثَّرَتْ في
نَفْسِيَّته وشِعْره، ولهذا آثرْتُ طريقةً تَجْمع بين التَّدَرُّج

الزَّمنيّ والنُّمُوّ (أو التَّراجُع) النَّفْسيّ والتَّطَوُّر (أو الانتكاس) الفنِّيّ، فكان السَّيَّاب الإنسان والسَّيَّاب الشَّاعر مَعًا دائمًا على المسرح المكانيّ والزَّمانيّ، ذلك لأنِّي أرى أنَّ هذه الطَّريقة تُوَسِّع مجال الرَّؤية لدى القارئ لأنَّها تُقَدِّم له زوايا ثلاثًا لا زاوية واحدة. وأنا أَعْلَمُ أنَّ التَّاريخ صورة الفِعْل الإنسانيّ والإرادة الإنسانيَّة على الأرض، وأنَّ دراسة الشِّعْر على مَجْلًى مِنَ الحقائق التَّاريخيَّة لا تَعْني انتقاصًا مِنْ سِماته الفنِّيَّة، خُصُوصًا حِين يتَّفق الدَّارس والقارئ على أنَّ ذلك الشِّعْر كان جُزْءًا مِنَ الحركة الكُلِّيَّة في التَّطوُّر الجماعيّ، بلْ كان عاملًا هامًّا في تلك الحركة، ولمْ يَكُنْ تهويمًا في دنيا الأحلام الذَّاتيَّة. كذلك فإنَّ دراسة دخائل النَّفْس لا تَعْنِي تشخيص «المرض» لدى الفنَّان مِنْ أَجْل التَّحليل النَّفْسِيّ ذاته، وإنَّما هي وسيلة لِفَهْم طبيعة المنابع الَّتي فاض الشِّعْر عنها. وقدْ خضع السَّيَّاب في وقفته التَّاريخيَّة والنَّفْسِيَّة لعواملَ عنيفةٍ تركتْ آثارًا عميقةً في شِعْره، ومِنْ ثَمَّ كان لا بُدَّ لاستبانة تلك الآثار مِنْ دراسة تلك الوقفة في موكب الجماعة وفي عُزلة الذَّات على السَّواء. وكُلُّ فَصْل للشِّعْر عنْ ذلك الموقف قدْ يُعَرِّض الدَّارس للتَّجريد أوْ للأخذ بالعُمُوميَّات[1]

(١) – عبَّاس، إحسان. **بدر شاكر السَّيَّاب؛ دراسة في حياته وشِعْره** (بيروت: المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، ١٩٩٢م)، ص ٥.

وليس بِخَافٍ على إحسان عبَّاس استقلال الأثر الأدبيّ عنْ صاحِبه وتَمَيُّزه مِنْه، وأنَّه لا يستقيم، في كُلِّ الأحوال، أنْ نَتَّخِذَ الأوَّل دليلًا على الآخِر. إنَّه على بَيِّنَةٍ مِنْ ذلك، وإنَّه قدِ احتاطَ فأنشأَ يَدْرُس بدر شاكر السَّيَّاب وشِعْره على هَدْي ذلك المنهج الَّذي اصطنعه، مِنْ قَبْلُ، في كِتابه فنّ السِّيرة، ولمْ ينزلقْ فيما انزلق فيه نَفَرٌ مِنَ الدَّارسين، مِمَّن اتَّخذوا الشِّعْر ذريعة إلى حياة صاحِبه

ولكنَّني لا أرى أَشَدَّ تضليلًا مِنْ هذا العنوان «حياة فُلان مِنْ شِعْره»، كما فَعَلَ العقَّاد في كِتابه عن ابن الرُّوميّ. والخطأ عند العقَّاد في العنوان لا في الكِتاب، فهو قدْ قام بِحَقِّ التَّاريخ، حِين جَمَعَ الأخبار الممكنة عن الشَّاعر، ثُمَّ حاول أن يَجِدَ في الشِّعْر صورةً لشخص ابن الرُّوميّ، وبعض أخباره... أمَّا أن يترجم أحد الدَّارسين لشاعرٍ، بالاعتماد على شِعْره فَحَسْبُ، فتلك مسألة لا يمكن تحقيقها؛ لأنَّ الشِّعْر لا يُصَوِّر إلَّا حالةً وجدانيَّةً أوْ شبيهةً بها، في لحظات معدودات، مِنْ حياةٍ قدْ تكون غير قصيرة. وكذلك أخطأَ الَّذين حاولوا أنْ يكتبوا حياة شكسبير بالاعتماد على مسرحيَّاته، وأن يَلُمُّوا عناصر شخصيَّته، مِنَ العناصر المكوِّنة لشخصيَّاته في الرِّوايات. بلْ إنَّ العمل الفنِّيّ حِين يحتوي على عناصرَ مِنْ حياة الفنَّان

نَفْسه أوْ شخصيَّته فإنَّ هذا لا يعني أنَّ مِنْ حَقِّنا إخراج هذه العناصر، وإدراجها في سِيرة نكتبها، لأنَّ هذه العناصر حِين دَخلَتْ في البناء فَقَدَتْ معناها الفرديّ الشَّخصيّ وأصبحَتْ مادَّة إنسانيَّة محسوسة. وشيْء آخَر هو أنَّ ما يُصَرِّح به الفنَّان، رُبَّما لمْ يَكُنْ مِمَّا حَدَثَ له، بلْ مِمَّا يحلم به ويتمنَّاه، ورُبَّما كان قِنَاعًا يخفي وراءه شخصيَّته الحقيقيَّة. فالعمل الفنِّيّ ليس وثيقة مِنَ الوثائق الَّتي تُسْتَعْمَل في كتابة السِّيرة، وإذا أُخِذَ شيْء مِنْ ذلك فلا بُدَّ أن يؤخَذ بحذرٍ بالغ[١]

التمسَ إحسان عبَّاس الصِّلة بين الفنّ والتَّاريخ، وكان حَذِرًا كُلَّ الحَذَر[٢]، لمْ يَبْنِ مِنْ شِعْر السَّيَّاب سِيرة له، ولمْ يُسْقِطْ حياته على شِعْره، لكنَّه تَقَصَّى سَيْر تلك الحياة وتَرَقِّيها طَوْرًا بعد طَوْر، وجَعَلَ يُدِيم النَّظَر في شِعْره، ويتأمَّل التَّطوُّر الَّذي وُفِّقَ إليه، وحظَّه مِنْ تبَدُّل مضمونه، وكان اتِّصال السِّيرة بالشِّعْر على أَشُدِّهِ في الصَّدر الأوَّل مِنْ حياة السَّيَّاب، وفي أثناء مُنَاجَزَته للفنّ الشِّعْريّ[٣]، ثُمَّ لا يلبث الشِّعْر أن يفترق عن

(١) – عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة، ص ص ٨٦ – ٨٧.
(٢) – صبحيّ، محيي الدِّين. د. **إحسان عبَّاس والنَّقْد الأدبيّ** (طرابلس – تونس: الدَّار العربيَّة للكِتاب، ١٩٨٤م)، ص ٥٩.
(٣) – صبحيّ، محيي الدِّين. المرجع السَّابق، ص ٥٩.

السِّيرة «افتراقًا وئيدًا في البداية، وحاسمًا في منتصف السِّيرة، ثُمَّ يعود عند مَرَض السَّيَّاب إلى وَصْل اللُّحْمة بينهما وَصْلًا يزداد باشتداد المَرَض عند السَّيَّاب وهُبُوط طاقته الإبداعيَّة»(١).

ويذكر محيي الدِّين صبحي أنَّ «هذا المنهج يَجِدُ مسوِّغاته في طبيعة الأمور: فالمراهق يمتزج شِعْره بِذاته، وكذلك المريض الَّذي يستشرف المَوْت»(٢)، ويقتضي ذلك غياب الرُّموز الفنيَّة الَّتي تُمْعِن في الفصل بين السِّيرة والشِّعْر، حتَّى تَضْمُر وتغيب، فـ«في مِثْل هذه الأحوال يصعب على المَرْء أن يتحوَّل عنْ ذاته، خاصَّةً أنَّه يرى نَفْسه تقترب مِنَ المَوْت كُلَّ لحظة. وهذا بِدَوْرِهِ يُسَوِّغ للنَّاقد أن يعود إلى مَزْج السِّيرة بالشِّعْر، فيستدلّ بأحدهما على الآخَر أوْ يفسِّره، لأنَّ موضع الشَّاهد واضح وقريب، ولأنَّ هَمَّ الشَّاعر في البَوْح والنَّجوى والشَّكوى أكبر مِنْ هَمِّه بتجويد القريض أوْ تشفيف الرَّمز وتعميقه»(٣).

استطاع إحسان عبَّاس أن يَنْزِل على شَرْط السِّيرة الموضوعيَّة لبدر شاكر السَّيَّاب. اتَّخَذَ لها ما تُؤَدِّيه الشَّهادات

---

(١) - صبحيّ، محيي الدِّين. المرجع السَّابق، ص ٦٠.
(٢) - صبحيّ، محيي الدِّين. المرجع السَّابق، ص ٦٠.
(٣) - صبحيّ، محيي الدِّين. المرجع السَّابق، ص ٦١.

الشَّفويَّة والوثائق الخَطِّيَّة[١]، فإذا أَعْوَزَهُ ذلك أنشأ يفترض ويُخَمِّن ويُرَجِّح، على أنَّه كان معتدِلًا فيهما، فلمْ يَطْغَ التَّلوين الخَيَاليّ على عمله، وبِوُسْعِنا أنْ نَعْتَدَّ كِتابه هذا مزيجًا مِنَ «السِّيرة» و«النَّقْد» مَعًا؛ فيه مِنَ السِّيرة رواؤها ورونقها، ومِنَ النَّقْد صرامته ودِقَّته، لا تطغى معرفة «السَّارد» على معرفة «الشَّخصيَّة» ولا تَبْغِي عليهما، إلَّا ما يتيحه التَّحليل والتَّناوُل وموازنة الأشياء. على أنَّه - مهما اتَّخَذَ الشَّهادات الشَّفويَّة والوثائق الخَطِّيَّة ذريعةً لبناء سِيرة الشَّاعر = لمْ يشتطَّ به الخَيَال، كثيرًا، فيصرفه عن السِّيرة الَّتي تَكَلَّفَ إنشاءها، وعساهُ لمْ يَنْسَ كلامًا له قديمًا كان قدْ أَثبتَه في كِتاب فنّ السِّيرة، قال فيه: إنَّ أندريه موروا لَمَّا أنشأ سِيرة الشَّاعر شِلِّي، أقامها على جُمْلة مِنَ الوثائق، حتَّى إذا كَتَبَ، كان التَّلوينُ الخَيَاليُّ عمودَ تلك السِّيرة، لكنَّه ذلك الخَيَالُ الَّذي لا تأباه حياة شِلِّي

> ومِنْ أشهر الكُتَّاب الَّذين يمزجون بين المَيْل القصصيّ والسَّرد التَّاريخيّ أندريه موروا فإنَّه أخرج مِنْ سِيرة شِلِّي «Ariel» قصَّة ممتعة سَلِسة يكاد لا يميِّزها القارئ مِنْ أيّ قصَّة مُحْكَمة النَّسْج والتَّشخيص... ولا شَكَّ أنَّ حياة شِلِّي كما صَوَّرها موروا غير متخيَّلة

---

(١) - عبَّاس، إحسان. بدر شاكر السَّيَّاب؛ دراسة في حياته وشِعْره، ص ٦.

وإنَّما هي مُسْتقصاة مِنَ الرَّسائل والوثائق، مكتوبة بشكل يُخَيَّل إلى القارئ أنَّها مِن اختراع الكاتب نَفْسه[١]

فإذا أَقْبَلْنا على الكِتاب، رأيْنا أنَّ إحسان عبَّاس لمْ يَخْرُجْ عنْ معهود السِّيرة الموضوعيَّة وأُصُولها: وَقَفَ على أَصْل بدر شاكر السَّيَّاب ومَحْتَده، وأَلَمَّ بنشأته، وجاءَ على تعليمه، ووَصَفَ قريته «جيكور» تلك الَّتي تَرَدَّدَ اسمها، كثيرًا، في شِعْره. كُلُّ ذلك وغيره أَدَّاهُ إلينا بأسلوبِ مَنْ كان هَمُّه الوفاء للتَّاريخ والأدب مَعًا؛ أَمَّا التَّاريخ فما تُؤَدِّيه الوثيقة والرِّسالة، وأَمَّا الأدب فباصطناعِهِ التَّخييل وفنون القَصّ

على امتداد شَطِّ العرب إلى الجنوب الشَّرقيّ مِنَ البصرة، وعلى مسافةٍ تقطعها السَّيَّارة في خمسٍ وأربعين دقيقة تقع «أبو الخصيب» الَّتي تُمَثِّل مركز قضاء تابع لِلَواء البصرة يَضُمُّ عددًا مِنَ القُرى، مِنْ بينها قرية لا يتجاوز عدد سُكَّانها ألفًا ومِئَتَيْ نسمة تقع على ما يُسَمَّى «نهر أبو فلوس» مِنْ شَطِّ العرب، وتُدْعَى «جيكور»، تسلك إليها في طريق ملتوية تمتدُّ بالماشي مدى ثلاثة أرباع السَّاعة مِنْ أبي الخصيب، وهي الزَّاوية الشَّماليَّة مِنْ مُثَلَّثٍ يَضُمُّ أيضًا قريتين أُخْريين

---

(١) - عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة، ص ص ٥١ - ٥٢.

هُما بقيع (بكيع) وكوت بازل - قُرًى ذات بيوت مِنَ اللَّبِن أو الطِّين، لا تتميَّز بشيء لافِتٍ للنَّظَر عنْ سائر قُرى العراق الجنوبيّ، فهي عامرة بأشجار النَّخيل الَّتي تُظَلِّل المَسارح المنبسطة، ويحلو لأسراب الغِربان أنْ تُرَدِّد نَعِيبها فيها، وعند أطراف هذه القُرى مَسارح أُخرى منكشفة تُسَمَّى البيادر تَصْلُح لِلَعِب الصِّبيان ولَهْوِهِم في الرَّبيع والخريف، وتغدو مَجالًا للنَّوارج في فصل الصَّيف، فكُلُّ امرئٍ يعمل في الزِّراعة، ويشارك في الحصاد والدِّرَاس، ويستعين على حياته بتربية الدَّجاج أو الأبقار، ويَجِدُ في سُوق البصرة مَجالًا للبيع أو المُقايَضة، ويحصل على السُّكَّر والبُنّ والشَّاي وبعض الحاجات الضَّروريَّة الأُخرى لكي ينعم في قريته بفضائل الحضارة المادِّيَّة، وإذا كان مِنَ الطَّامحين إلى «الوجاهة» فلا بأس أن يفتح «ديوانًا» يستقبل فيه الزَّائرين مِنْ أهل القرية أوْ مِنَ الغُرَباء لِيُشاركوه في فضائل تلك الحضارة المادِّيَّة[١].

غُلامٌ ضاوٍ نَحيل كأنَّه قَصَبة، رُكِّبَ رَأْسُهُ المستدير كَحَبَّة الحنظل، على عُنُقٍ دقيقةٍ تميل إلى الطُّول، وعلى جانِبَي الرَّأس أُذُنان كبيرتان، وتحتَ الجبهة المستعرِضة الَّتي تَنْزِل في تَحَدُّبٍ متدرِّجٍ أنْفٌ كبيرٌ يَصْرِفك عنْ تأمُّله أوْ تأمُّل العينين الصَّغيرتين

---

(١) - عبَّاس، إحسان. بدر شاكر السَّيَّاب؛ دراسة في حياته وشِعْره، ص ١١.

> العاديَّتين، على جانبيه فَمٌ واسع، تَبرُز «الضَّبَّة» العُلْيا مِنْه، ومِنْ فَوْقِها الشَّفَة، بُرُوزًا يجعل انطباق الشَّفتين فَوْقَ صَفَّيِ الأسنان كأنَّه عَمَلٌ اقتساريّ، وتَنْظُر مَرَّةً أُخرى إلى هذا الوَجْه «الحِنطيّ» فَتُدْرِك أنَّ هناك اضطرابًا في التَّناسُب بين الفَكِّ السُّفْلِيّ الَّذي يَقِفُ عند الذَّقَن كأنَّه بقيَّة علامة استفهامٍ مبتورةٍ، وبين الوجنتين النَّاتئتين وكأنَّهما بدايتان لعلامَتَيِ استفهامٍ أُخريين قدِ انزلقتا مِنْ موضعيهما الطَّبيعيَّين(١)

وهذا الكِتاب، مهما استعان بِفُنُون السَّرْد، ومهما اتَّصَلَ بها، قليلًا أوْ كثيرًا = إنَّما هو «دراسة في حياة السَّيَّاب وشِعْره»، نَظْهَر فيه على سِيرة الشَّاعر، في كُلِّ أطواره. وبينما مضى في ذلك إذا به يَصِل السِّيرة بِنَفْسِيَّة الشَّاعر وفَنِّه، ووُفِّقَ الكاتب كثيرًا، وبَرَأَتْ دراسته مِنْ ذلك العَوَار الَّذي تَفَشَّى في كُتُبٍ، أنشأَ أصحابُها يَفْصِلون فيها بين مسألتين: «حياة الشَّاعر» و«شِعْره»، فإذا استوفوا الأُولى خاضوا في الأُخرى، وكأنَّنا إزاءَ دراستين لا دراسة واحدة؛ تحتلُّ حياةُ الشَّاعر صَدْرَ الكِتاب، ويحتلُّ فَنُّه عَجُزَه. وأعانَ على ذلك أنَّ إحسان عبَّاس أراد أن يكون مؤرِّخًا وناقدًا، وتَقَدَّمَ القول، مِنْ قَبْلُ: إنَّه استعان بما تُؤَدِّيه الوثيقة والرِّسالة والخَبَر الشَّفَوِيّ، فإذا أَعْوَزَهُ كُلُّ أولئك

---

(١) – عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ١٥.

تَوَصَّلَ إلى ما يريد بالافتراض والتَّرجيح والتَّخمين والتَّصوُّر، على نَحْوِ ما يُبْرِزُهُ هذا الشَّاهِد:

> ولَسْنا نستطيع أنْ نُحَدِّد عالَمه الثَّقافيّ الخاصّ حينئذٍ، ولكنَّا نتصوَّر أنَّه كان يُكْثِر مِنْ قراءة الشِّعْر - وبخاصَّةٍ ما كان يُنشر مِنْه في الصُّحُف - ولمْ يَكُنْ في أحداث الحياة العراقيَّة أثناءَ الحرب ما يحدِّد له موضوعه الشِّعْريّ المفضَّل(١)

تَحَرَّرَ إحسان عبَّاس في دراسته لحياة السَّيَّاب وشِعْره مِنْ تقاليد الدَّرْس الجامِعيّ، ونَضَا عنْ شاعره هالة «التَّقديس»، تلك الَّتي لا ترى في سِيَر النَّابهين إلَّا الكمال، فَعَرَفْنا السَّيَّاب إنسانًا كغيره مِنَ النَّاس، وأَفْلَحَ إذْ لمْ يُنْشِئْ سِيرة «مَناقب». ولمْ يَحْجُبْ إعجابُهُ بشاعره عنه وعنَّا مَواطِنَ القُوَّة والضَّعْف والوَهَن، فكان السَّيَّاب، مهما وُفِّقَ في فَنِّه، شاعرًا اختلفَتْ عليه أحوالٌ مِنَ القُوَّة والضَّعْف والقُصُور، وتَرَجَّحَ شِعْره قُوَّةً وفُسُولةً، فما أَسْرَفَ النَّاقدُ في الثَّناء، ولمْ يَكُنْ فيه مِنَ الغالين، وكان، بِحَقٍّ، ناقدًا يَزِنُ الشِّعْرَ بميزان البصيرة والخِبْرة، ولمْ يَمْنَعْهُ إذا مَرَّ به شِعْرٌ واهٍ ضعيف، أن يقول: شِعْرٌ واهٍ ضعيف! ولمْ يَتَكَلَّفْ له الأعذار، ولكنَّه يَرْمِيه بأشنع الألفاظ؛ فقصيدة

---

(١) - عبَّاس، إحسان. بدر شاكر السَّيَّاب، ص ٢٣.

«الخريف» «بليدةٌ بطيئةٌ لا تنبض فيها حياة»[١]، وقصيدة «في المساء» «تشكو مِنْ ثلاث نقائص: ضَعْف التَّركيب، وافتعال المُطابَقات، وتفاهة الواقع الَّذي يريد الشَّاعر تصويره»[٢]، وقصيدة «خِطَاب إلى يزيد» «شاذَّة في شكلها فإنَّها على طريقة القصيدة الكلاسيكيَّة، شاذَّة في موضوعها بالنِّسبة لباقي القصائد... وأنا أعتقد أنَّها قصيدة متكلَّفة وأنَّها أيضًا لا تُمَثِّل رُوح السَّيَّاب، الَّذي كان - في بعض اللَّحظات - يرى في الحَجَّاج بَطَلًا عربيًّا، رُغْمَ ما قَرَأَهُ في كُتُب التَّاريخ مِنْ أخبارٍ (صحيحة أوْ مكذوبة) عنْ عَسْفِهِ، ولهذا فإنَّه اتَّخَذَ في قصيدته طريقةَ التَّهويل بالفاجعة والتَّحَزُّن على الضِّعاف والصِّغار العِطَاش، دُون أنْ تُوحِي قصيدته بمعنى البُطُولة الَّتي يُمَثِّلها الحسين نَفْسه»[٣].

مِنْ فَنّ السِّيرة إلى غُرْبة الرَّاعي

كأنَّما كان إحسان عبَّاس على موعدٍ مَعَ السِّيرة الذَّاتيَّة، بَعْدَ أنْ مضى مِنْ عُمْرِهِ زمنٌ طويلٌ وهو في سِيَر الآخَرين، وكأنَّما أتاح له القَدَر أن يُخْرِج، في صَدْر شبابه، كِتابه **فنّ السِّيرة**، وأن

(١) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ص ٢٦ - ٢٧.
(٢) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ٤٠.
(٣) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ١٠٠.

يَشْرَع، بعد ذلك، في تأليف طائفة مِنَ الكُتُب ونَشْرها، وأن يَغْلِبَ على تلك الكُتُب أنْ تكون في السِّيَر والتَّراجم = كأنَّما كان قَدَرًا مقدورًا أن يلتفت إلى أحوال نَفْسه، فيُنْشِئ فيها كِتابًا، هو النَّاظر والمنظور إليه، وهو الكاتب والمكتوب فيه، فكانَتْ سِيرتُهُ **غُرْبة الرَّاعي**، تلك الَّتي أذاعها في النَّاس سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م، بعد أنْ مَضى له مِنَ العُمْر سِتٌّ وسبعون سنةً، أنفقَ الشَّطْرَ الأعظمَ مِنْها في البحث والتَّرجمة والتَّأليف والتَّحقيق والتَّدريس، في غير جامِعة عربيَّة وأجنبيَّة، فكانَتْ هذه الحياة جديرةً بِسِيرةٍ ذاتيَّة.

ولكتابة السِّيرة الذَّاتيَّة، عند إحسان عبَّاس، حالان، فـ«النَّاس مهما يَطُلْ عليهم الأبد وتختلفْ أحوالهم هُمْ أَحَدُ رَجُلَيْن: رَجُل وَصَلَ إلى حيث يؤمِّل وانتصر على الحياة وصِعَابها، وأحسنَ التَّخَلُّص مِنْ ورطاتها وشِعابها، ورَجُل كافَحَ حتَّى جَرَحَتْهُ الأشواك وأدركه الإخفاق. وكِلا العامِلَيْن، أَعْنِي الوُصُول والخيبة، يبلغان بالتَّجربة حَدَّ النُّضْج على شرط واحد: هو اكتمال التَّصَوُّر لأطراف هذه التَّجربة ورؤيتها عند التَّطَلُّع إلى الماضي، على أساس نظرة ذاتيَّة خاصَّة، ولولا هذا الشَّرْط لكان كُلُّ إنسان قادرًا على أن يكتب سِيرة حياته. وإنَّك لَتستمع إلى أشخاص يَقُصُّون عليك قصصًا مِنْ أحداث

حياتهم، يُمْتِعك سماعها ويبعث فيك شيئًا مِنَ النَّشْوة، ولكنَّهم يعجزون عنْ أن يكتبوها سِيرةً كاملة، لأَنَّهم يعجزون عنْ أن يَرَوْا مكانهم مِنَ الحياة»[1].

قال إحسان عبَّاس هذا الكلام يَوْمَ كان في السَّادسة والثَّلاثين مِنْ عُمْره، ومُجْمَلُ ما انتهَى إليه صاحِب فنّ السِّيرة: أنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة ليس بمُستطاعها أنْ تبلغ غايتها مِنَ الإتقان والتَّجويد، ولا أنْ تُغْرِيَ القُرَّاء بها، ما لَمْ يَكُنْ لها عواملُ تَشُدُّها إلى الفنِّ شَدًّا، أهمُّها أن يكون صاحِبُ السِّيرة «شخصًا ذا تَمَيُّز واضح في ناحية مِنَ النَّواحي»، و«أن يكون صاحِبُها ذا صِلَة دقيقة بأحداث كبرى، أوْ أن يكون مِمَّنْ لهم مشاركة في بعض تلك الأحداث، أوْ أن يكون... ذا نَظْرَةٍ خاصَّة إلى الحياة وحقائق الكون»[2].

لَمْ يَكُنْ إحسان عبَّاس، حِينَ أنشأَ غُرْبة الرَّاعي، رَجُلًا مِنْ غِمَار النَّاس، لكنَّه وُفِّقَ إلى أن يتبوَّأَ مقامًا سَنِيًّا في الثَّقافة العربيَّة الحديثة؛ في التَّأليف والتَّرجمة والبحث والتَّحقيق، وكان الرَّجُل في جِهَاده العِلْمِيّ مِثَالًا يَحْتَذِيه أجيالٌ مِنَ

(١) - عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة، ص ١٠٢.
(٢) - عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ١٠٤.

المثقَّفين العرب وناشئتهم، رَضِيَ عنه اليمين واليسار والوسط، وعساه أَدَّى إلى أُولاء وهؤلاء وأولئك ما يَرْجُونه، واتَّفقَ عليه أصحاب المَشارِب المتباينة؛ مَنْ مالَ مِنْهُمْ إلى التُّراث، ومَنْ مَدَّ بَصَرَهُ إلى الثَّقافة الحديثة، سواءً بِسَوَاء، ويَصْدُق فيه وَصْفُهُ للشَّخص الَّذي يَجُوز له أن يكتب سِيرة ذاتيَّة:

> وكاتِبُ السِّيرة الذَّاتيَّة قريب إلى قُلُوبنا؛ لأَنَّه إنَّما يكتب تلك السِّيرة مِنْ أَجْل أن يُوْجِد رابطةً مَّا بيننا وبينه، وأن يُحَدِّثَنا عنْ دخائل نَفْسه وتجارِب حياته، حديثًا يَلْقَى مِنَّا أُذُنًا واعية، لأَنَّه يثير فينا رغبة في الكشف عنْ عالَمٍ نجهله، ويُوْقِفنا مِنْ صاحِبه موقف الأمين على أسراره وخباياه؛ وهذا شيْء يبعث فينا الرِّضى، وقدْ يأسرنا فَيُحَوِّل أنظارنا عنْ نَقْد الضَّعيف والواهي في سرده، ويَحْمِلنا على أنْ نتجاوز له عن الكذب، ونتقبَّل أخطاءه بِرُوح الصَّديق[١]

وحَقًّا كانَتْ سِيرته العِلْمِيَّة وإخلاصه للعِلْم والبحث والتَّأليف والتَّدريس باعِثَيْن على الرِّضا والإعجاب؛ فالرَّجُلُ، منذ الصَّدْر الأوَّل مِنْ شبابه، كأَنَّما نَذَرَ نَفْسه للعِلْم، وكان حَظُّه مِنَ الثَّقافة واسعًا، يَوْمَ أَقْبَلَ عليها في ذلك العَهْد البعيد، ويَكْفِينا أنْ نُلِمَّ ببرنامج دراسته في الكُلِّيَّة العربيَّة بالقدس،

---

(١) – عبَّاس، إحسان. المرجع السَّابق، ص ١٠١.

ونَنْظُرَ في المَعارف الَّتي أُتِيحَتْ له ولأترابه في الكُلِّيَّة؛ تَعَمَّقَ دَرْسَ اللُّغة العربيَّة وآدابها، وأَلَمَّ باللُّغة اللَّاتينيَّة، واتَّصَلَ، شيئًا مَّا، بالتَّاريخ اليونانيّ والتَّاريخ الرُّومانيّ، وتاريخ الفلسفة، فإذا خَلَا إلى نَفْسه، وانتزَعَ لها شيئًا مِنَ الفراغ، فلا أَحَبَّ إليه مِنَ الاستماع إلى الموسيقا الكلاسيكيَّة.

ولكَ أنْ تَعْرِفَ أنَّه لَمَّا عُيِّنَ مُعَلِّمًا في ثانويَّة صَفَد تَوَلَّى تدريس التَّاريخ والجغرافيا واللُّغة العربيَّة، وحِين استقالَ مُعَلِّمُ اللُّغة الإنـگليزيَّة دُفِعَ إلى تدريسها. ومَرَّ بنا، مِنْ قَبْلُ، أنَّه أَحْسَنَ اللُّغة الإنـگليزيَّة في سِنٍّ مبكِّرة، ثُمَّ لَمَّا تَهَيَّأَتْ له الفُرصة تَعَلَّمَ اللُّغتَيْن الإيطاليَّة والإسبانيَّة. وتَقَدَّمَ القول: إنَّه، في أَوَّلِ هُبُوطه القاهرة، حَمَلَ في حقيبته مخطوطتَيْن؛ إحداهُما ترجمة **كِتاب الشِّعْر** لأرسطو، والأُخرى كِتابه **أبو حَيَّان التَّوحيديّ**، فَلَمَّا أَقْبَلَ على دُرُوسه في الجامِعة، كان قدْ تَعَمَّقَ فَهْمَ الأدب والنَّقْد الإنـگليزيَّيْن، فَوْقَ ما أَتَاحَتْهُ دُرُوس أساتذته في قِسْم اللُّغة العربيَّة وآدابها، فإذا مَضَيْنا في الزَّمان استوى لنا إحسان عبَّاس، ذلك النَّاقد والعالِم والباحث والمُحقِّق والمترجِم والمؤرِّخ والأستاذ الجامِعيّ المذكور، وكان قَمِينًا بتدوين سِيرته الذَّاتيَّة.

كانَتِ السِّيرة الذَّاتيَّة «مشروعًا» غير مُفَكَّرٍ فيه، أوْ مشروعًا مؤجَّلًا، ولمْ يَدُرْ في خَلَدِهِ أنْ يُدَوِّن سِيرته إلَّا حينما رَجَاهُ رَهْطٌ مِنْ أصدقائه أن يكتب في شأن نَفْسه. وعلى حُفُول حياته بالتَّدريس والتَّأليف والتَّرجمة والتَّحقيق، وعلى ضَرْبه في الأرض يَحْمِلُهُ بَلَدٌ إلى آخَر = فإنَّ أخاه بَكْرًا لمْ يُغْرِهِ بذلك، وعنده أنَّ حياة أخيه إحسان «تخلو أوْ تكاد مِنْ أحداث بارزة تثير اهتمام القارئ وتطلُّعاته»، ووافق رأي بكر هوًى في نَفْس إحسان، وأَيَّدَهُ بقوله: «كان ما قاله أخي وصديقي بكر صحيحًا، فأنا أَعْرِف أنَّني لمْ أشارِكْ في أحداث سياسيَّة، ولمْ أَتَوَلَّ مناصبَ إداريَّة، ولمْ أَكُنْ عضوًا في حِزْب، ولمْ أَكُنْ مسؤولًا عنْ مشروعات اقتصاديَّة؛ إلى آخِر ما هنالك مِنْ نشاطات تُعَرِّض الفَرْد للمسؤوليَّات الاجتماعيَّة والوظيفيَّة».

كأنَّما كان إحسان عبَّاس يبحث عنْ ذريعة تَصْرِفه عنْ كتابة سِيرته الذَّاتيَّة، وإنَّه يَعْرِف، قَبْلَ سِوَاه، كُتَّابًا ومؤلِّفين وضعوا كُتُبًا في أحوال أَنْفُسِهم، دُونَ أن يَلُوا أمرًا مِنْ أُمُور النَّاس، ولا خاضوا في السِّياسة، بلْ إنَّ نَفَرًا مِنْهم لمْ تستقِمْ لهم حياةٌ إلَّا إلى جِوَار الكُتُب. إنَّه يَعْرِف، لا شَكَّ في ذلك، ضُرُوبًا مِنْ تلك السِّيَر الَّتي أرادها أصحابها خالصةً لأَنْفُسِهم، لا تكاد تُجاوِزهم، إلَّا شيئًا قليلًا، وتستطيع أنْ تَسُوق، في اطمئنان،

الأيّام لطه حسين، وحياتي، لأحمد أمين، مِمَّا دَرَسَه إحسان عبَّاس، وبمقدورك أنْ تُضيف إليها سِيَرًا أُخرى لغير أديبٍ ومُثَقَّف، أَدَّتْ للقُرَّاء ما يَرْجُونه مِنَ اللَّذَّة والمَتاع، وحَسْبُنا أنْ نَذْكُر مِنْها ما أنشأه عُمَر فَرُّوخ، وزكيّ نجيب محمود، ومحمَّد حسن فقي، وعزيز ضياء، وكمال الصَّليبيّ... وآخرون.

وَمَعَ ذلك كَتَبَ إحسان عبَّاس سِيرةً، ابتغى مِنْها أمرين؛ بيان سِيرة إنسانٍ أنفق حياته كُلَّها يُعَلِّم ويؤلِّف ويُحَقِّق ويترجم، وأن «يُمَثِّل تجربة إنسان حاول في كُلِّ خطواته أن يُخْلِص للعِلْم بصدق ومحبَّة»، وأن ينتفع القُرَّاء والدَّارسون مِمَّا انطوَتْ عليه سِيرته و«يستطيع أنْ يستمِدَّ مِنْها الدَّارسون معلوماتٍ صحيحةً عنْ حياة مؤلِّفِ هذه السِّيرة وشيْء مِنْ عصره».

لمْ يَحْفِلْ إحسان عبَّاس، كثيرًا، باصطناع بناء فنِّيّ بعينه، وقال في مُقَدِّمة سِيرته: إنَّه سيختار «أسلوبًا بسيطًا كأنَّه حكاية ممتدَّة، مُرَاعِيًا إلى حَدٍّ كبيرٍ التَّدَرُّجَ الزَّمنيّ، لاعتقادي أنَّني لا أنوي أنْ أُقَدِّم للنَّاس رواية، حيث يستبيح الكاتب لِنَفْسه أن يتلاعب بالزَّمن فيُقَدِّم ويؤخِّر؛ ويُطْلِق العنان لِخَيَاله في بناء شخصيَّات لمْ تَعِشْ على هذه الأرض».

وأعاد سَبَب اختياره لـ«الأسلوب البسيط» - وهو العالِم

بفنّ الرِّواية - إلى أنَّه إنَّما يُقَدِّم عَمَلًا قدْ يفيد الدَّارسين، وبوُسْعِنا أنْ نُضِيف أمرًا آخَرَ لَعَلَّه أن يكون سببًا كامنًا في اصطناعه ذلك الأسلوب، وهو ذلك «التَّشاؤم» الَّذي استولَى على نَفْسه، لـ«حُلُول الشَّيخوخة وامتلاء النَّفْس بألوانٍ مِنَ المَرَارة والخيبة».

فإذا تَقَدَّمْنا في السِّيرة وأنشأْنا نتأمَّل بناءها؛ وإذا عَدَوْنا «رُمُوز الخوف» و«رُمُوز الطُّمأنينة» = تَبَيَّنَ لنا مَيْل **غُرْبة الرَّاعي** إلى «التَّقرير» و«التَّسجيل»، ونَأَتِ الذَّاكرة الاستعاديَّة الَّتي عليها قِوَام السِّيرة، عن التَّخييل والتَّلوين؛ ذلك أنَّ الغاية الَّتي ابتغاها إحسان عبَّاس ليستْ إلَّا الوفاء للصِّدق التَّاريخيّ، فَتَوَجَّهَتْ عنايته إلى «مضمون» السِّيرة لا «شَكْلها»، ذلك المضمون الَّذي يُقَدِّم، بين يَدَيِ السِّيرة، حياةَ إنسانٍ نَذَرَ نَفْسه، منذ نُعُومة أظفاره، للعِلْم والبحث والتَّأليف، وكان لِحَياته المعجونة بالغُرْبة، والفَقْد، والفَقْر، والجوع، ثُمَّ تَغَلُّبه على كُلِّ تلك الصِّعاب = أثرٌ في قارئها، وكأنَّما القارئ الَّذي يُقْدِم على قراءة هذه السِّيرة، ما يزال لصاحِبها سلطانٌ عليه، وهو يَعْرِف، مِنْ قَبْلُ، أنَّه إزاءَ شخصيَّةٍ فَذَّةٍ، تَسُوق إليه نجاحها، دُون أنْ تُشْعِره بالاستعلاء أو التَّبَجُّح، وإنَّما قُصَاراها أنْ تُؤَدِّي إليه ذلك بكلماتٍ هي أَدْنَى إلى الصِّدق والاعتدال، وتَصِل

ماضيها بحاضرها بأيسر مذاهب القول وطُرُقه، على نَحْوٍ يُذَكِّرنا بما قاله إحسان عبَّاس نَفْسه في كِتابه فنّ السِّيرة:

> والغاية الأُولَى الَّتي تُحَقِّقها السِّيرة الذَّاتيَّة هي الغاية المزدوجة الَّتي يُؤَدِّيها كُلُّ عَمَلٍ فنِّيٍّ صحيح، أَعْنِي تخفيف العِبْء على الكاتب بِنَقْل التَّجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها؛ فهي متنفَّس طَلْق للفنَّان، يَقُصُّ فيها قصَّةَ حياةٍ جديرةٍ بأنْ تُستعَاد وتُقْرَأ[1]

إذنْ، كانَتِ الصُّورة الَّتي تَكَلَّفَ إحسان عبَّاس أداءَها إلى قارئه، هي صورة «العالِم»، وكانَتْ سِيرته بَسْطًا وبيانًا لها. نَعَمْ، في غُرْبة الرَّاعي كثيرٌ مِمَّا يَتَشَوَّف إليه القارئ، يَعْرِف أَدَقَّ صِفاته؛ يُشارِف «الإنسان» في «العالِم» = لكنَّه، مهما تَوَسَّعَ وتَبَسَّطَ، لَمْ يَخْرُجْ عن الشَّرْط الَّذي أراده لِسِيرته: أنْ تكون سِيرةً «عِلْمِيَّة» و«فِكْرِيَّة»، هذا شَرْط الإنشاء، وهو، كذلك، شَرْط القراءة والتَّلقِّي، وكأنَّه أراد أن يُذَكِّر قارئَه، ويقول له: إنَّكَ بإزاءِ سِيرةِ أستاذٍ ومؤلِّفٍ ومُحَقِّقٍ ومترجِمٍ، مهما اتَّسعَتْ غُربة الرَّاعي لضُرُوبٍ مِنْ أدب التَّرجمة الشَّخصيَّة.

ولَعَلَّ سِيرة «العالِم» أحكمَتْ طوقها فضَمُرَ «الاعتراف» فيها، وإذا بنا إزاءَ عالِمٍ أَخَذَ نَفْسه بغيرِ قليلٍ مِنَ التَّحفُّظ

(١) – عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة، ص ١٠٧.

والاحتياط والحِشْمة والتَّصَوُّن. كان على أن يبوح بما طواه صدره، وأن يَصْدَعَ بالقول، لكنَّه آثَرَ السَّلامة. قال في شبابه كلامًا هو أدنَى إلى «الاعتراف»، حِين وَضَعَ كِتابه فنّ السِّيرة، فلمَّا جاوَزَ الشَّباب، ودَلَفَ إلى الشَّيخوخة، عَرَفَ الفَرْقَ ما بين الشَّابِّ المُغَامِر والشَّيخ الرَّزين

> وكُنْتُ في شبابي متحمِّسًا للصَّراحة الكُلِّيَّة في كتابة السِّيرة الذَّاتيَّة ولكنِّي حِين وَقَفْتُ أمام التَّجرِبة بِنَفْسي، وَجَدْتُ أنَّ حماسة الشَّباب لا تستمرّ بعد عهد الشَّباب، وأنِّي لا أستطيع أنْ أتحمَّل مسؤوليَّة تلك الصَّراحة، وأنَّ مجتمعي لا يزال يَصُدُّ عنْ تَقَبُّلها

وإنَّنا لَنَرَى «الشَّيخ» يحتاط ويتصوَّن فلا يكاد يفصح عنْ أسماء نساء عَرَفَهُنَّ في صِباه وفُتُوَّته!

> بَدَأَتْ هذه العُطلة الصَّيفيَّة في القرية متوتِّرة، وظَلَّتْ كذلك فقدْ حَدَثَ ذات يَوْم أنْ لقيتُ فتاةً بدا لي أنَّها جميلة، فخفق لها قلبي وأصبحْتُ أحرص على أنْ أراها اتِّفاقًا أوْ تَعَمُّدًا، ولوْ لمحةً، وسأُطْلِق عليها اسْم «نَوَار»، ولكنِّي لمْ أُفاتِحْها بكلمة واحدة، ولمْ تُحِسَّ بوجودي ولمْ تَعْرِفْ شيئًا عنْ مشاعري نَحْوَها

على أنَّ إحسان عبَّاس لمْ يَكُنْ بمستطاعه أن يلتزم ما أَكْرَهَتْهُ عليه «الشَّيخوخة» مِنَ «التَّحفُّظ» و«التَّصَوُّن»، ورأيْناه

فإذا هو أكثرُ صراحةً وأشدُّ «قسوةً»، وإنَّه لَيَقُصُّ علينا طَرَفًا مِنْ صِلته «الفاترة» بزوجه، وعَسَاهُ أراد أنْ لا يُخلِي سِيرته مِنَ «الاعتراف»، أوْ كأنَّه أراد «التَّنفيس» عنْ «كَبْتٍ» استولَى على حياته، وعساه أراد مِنْ ورائه إكمال صورة «النَّموذج» الَّذي ضحَّى برغباته وإرادته، استجابةً لرغبة أبيه وإرادته، وإنَّه لَيُنْبِئُنا أنَّه لمْ يَكُنْ له يَدٌ في اقترانه بزوجه «الرِّيفيَّة»، وأنَّه لمْ يَجْسُرْ على أن يأبَى إرادة أبيه، وإنَّه لَيُذْعِن له، ويَنْزِل على شُرُوط التَّقاليد «الرِّيفيَّة»، ورُغْمَ ذلك ما تَزَالُ الرَّغبة في التَّخَلِّي عنْ زوجه تُلازمه، مِنْ حِينٍ لآخَر، حتَّى استكان للأمر، رحمةً بالأبناء، وإشفاقًا على تلك المسكينة.

التزمَ إحسان عبَّاس الوقار، وغَشِيَهُ التَّحفُّظ. كان بِوُسْعه أن يسكت، لوْ أراد، فلا يضمِّن سِيرته شيئًا عنْ زوجه، وفي الحَقِّ إنَّ القارئ لا يكاد يَقِفُ على أَثَرٍ لها. كان بوُسعه أن يفعل ذلك، فلا تحتلُّ الزَّوجة المسكينة إلَّا «هامشًا» يسيرًا، لكنَّه لمْ يَسْطِعْ على ذلك صبرًا، وإذا به يبوح بما وَقَرَ في صدره، طُولَ عُمْره، فَلَمَّا أنشأَ يكتب **غُرْبة الرَّاعي**، كأنَّما نَكَأَتِ الكتابة جُرحًا ليس إلى بُرْئه مِنْ سبيل

بعد ثلاثة أَشْهُر مِنْ ذلك الحِوار غير المتكافئ الَّذي
جرى بيني وبين والدي، وهو حِوار أمقته جِدًّا لأنَّه
عقيم غير منتِج، وأنا – لأسبابٍ كثيرة – لا أستطيع أنْ

أواجِه والدي بالقُوَّة الَّتي أتمنَّاها، ولوْ أنِّي استطعْتُ
أنْ أواجهه بِقُوَّة لمْ يَكُنْ لي أدنَى أملٍ في إقناعه، وأنَّه
لن يَحُلَّ المشكلة إلَّا الثَّورة عليه وإعلاني العِصيان
على تنفيذ رغبته - بعد ثلاثة أَشْهُرٍ جاء إلى صَفَد مَرَّةً
أُخرى لِيقول لي: إنَّ أهل خطيبتك يَشْكُون مِنْ عدم
الكتابة إليهم. قُلْتُ: ليس مِنْ حَقِّهم هذه الشَّكوى فأنا
لا أَعْرِفُهم ولا أَعْرِف ابنتهم الَّتي تُسَمِّيها خطيبتي، ولا
أدري بِمَ أُخاطبهم وكيف أُخاطبهم. والكتابة لا تَتِمُّ
بين فريقين يجهل أحدهما الآخَر

والحقُّ أنَّ **غُربة الرَّاعي**، على ما فيها مِنْ فنّ، وعلى استعادتها شيئًا مِنَ الماضي = كانتْ متنفَّسًا لإحسان عبَّاس، وانتصارًا متأخِّرًا على نَفْسه، لَمَّا أمضَى ما أراده والده؛ أراده على الزَّواج فتزوَّج، دُون أن يُستَأْمَر، حتَّى إذا كان في السُّودان، بُعَيْدَ تَخَرُّجه في الجامِعة، عَقَدَ العزم على أن يَبُتَّ ما بينه وبين زوجه، وما إنْ عالَنَها بعزمه حتَّى رَجَعَ واستكان

فقدْ تَحَدَّثْتُ إلى زوجتي بهدوء أنْ لا بُدَّ مِنَ الانفصال
وَلْيَذْهَبْ كُلٌّ مِنَّا في طريقه (دُون إعلان الطَّلاق) ولمْ
تعترضْ على ذلك، وكانتْ مسافرة لِتَزُورَ أهلها الَّذين
لجؤوا إلى طولكرم، ثُمَّ بَعْدَ أقلَّ مِنْ ساعة لَحِقْتُ بها
ورَجَوْتُها أنْ تنسى ما قُلْتُ؛ فأنا لا أُطِيق أنْ أزيد بها
وبِطِفْلَيْنا عددَ اللَّاجِئين وَلْتَمْضِ الحياةُ بنا كيفما كانتْ

تكوين رومنطيقيّ

والآنَ، بَعْدَ أنْ تَشَعَّبَ بنا الحديث، يَمْنَةً ويَسْرَةً، لا يَفُوتُنا القول: إنَّ **غُرْبة الرَّاعي** إنَّما تَدُلُّ على أنَّ إحسان عبَّاس ذو تكوين رومنطيقيّ، وأنَّ أقصى آثار هذا التَّكوين يرتفع إلى نشأته الرِّيفيَّة، حتَّى إذا اتَّصل بالكُلِّيَّة العربيَّة بالقُدْس، جَذَبَه الشِّعْر اللَّاتينيّ «الرَّعويّ»

> ولا بُدَّ أنْ أقول: إنَّه جَذَبَني الجانبُ الرَّعَوِيّ (Pastorl) في الشِّعْر اللَّاتينيّ والإنـگليزيّ، وبخاصَّة قصيدة ملتون «ليسداس» في رثاء صديقه كنغ، واتَّحَدَتْ طوابع هذه المؤثِّرات مَعَ الحياة الرِّيفيَّة، فأصبحَ الرِّيفيُّون هُمُ الرُّعاة، في نظري، وأصبحَ الرِّيف هو «أركاديا» أو الموئل المِثَاليّ للرُّعاة

إذنْ، فَجِمَاعُ حياة إحسان عبَّاس إنَّما هو تمثيلها لِـ«غُرْبة الرَّاعي»، فحياتُهُ ما انفكَّتْ تَحْمِله مِنْ «غُرْبةٍ» إلى «غُرْبة»، غَيْرَ أنَّ «المقادير» تَحْنُو عليه، وتدفع به إلى الأفضل والأنجع. والَّذي يَظْهَرُ مِنْ أحداث هذه السِّيرة، أنَّه كأنَّما كان منذورًا للعِلْم، منذ الصَّدْر الأوَّل مِنْ شبابه: فأستاذه يرشده هو وزملاءَه إلى مجلَّة **الرِّسالة**، وما إنْ تشتدّ الأزمة حتَّى تنفرج فيختلف إلى «الكُلِّيَّة العربيَّة» بالقُدْس، وما إن يخوض لُجَج الحياة، حتَّى يَهْبِط مصر لإتمام دراسته الجامعيَّة، فإذا حَلَّتْ

نكبة فلسطين (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م)، كابَدَ صُرُوف الزَّمان، وعاشَ ما أسماه «حقبة الجوع» = وإذا به يَلْقَى مِنْ أساتذته المصريِّين العطف والرِّعاية؛ التمسَ له أستاذه شوقيّ ضيف وظيفةً في إحدى مدارس القاهرة، وَسَعى أستاذه أحمد أمين إلى «كُلِّيَّة غوردون» في الخرطوم، في توظيفه، فأصبح أستاذًا فيها، حتَّى إذا ألقى عصا التَّرْحال في الخرطوم، تَدَيَّرَها عَشْرَ سنوات، واتَّخَذَ السُّودان وطنًا والسُّودانيِّين أهلًا = تأبى صُرُوف الأيَّام إلَّا أن يُجَدِّد «الرَّاعي» غُربته الأبديَّة، فَيَتَحَوَّل عن الخرطوم إلى لبنان، وتفتح بيروت ذراعيها له، وطابَ له المقام فيها، حتَّى إذا بَلَغَ سِنَّ التَّقاعُد وانقطع عن الخِدْمة، خَطَبَتِ الأردنُّ وِدَّهُ، فَشَدَّ الرِّحَال إليها، وكانتْ عَمَّان، مَحَطَّته الأخيرة، بَعْدَ أنْ عَلَتْ سِنُّه، ويشاء الله أن يُدْرِكَهُ المَوْتُ فيها، بعيدًا عنْ مَلاعِب طُفُولته في «عين غزال».

كابَدَ إحسان عبَّاس ما شاء له الله أن يُكَابِد، وأوشكَتْ حياته أنْ تكون كُلُّها غُرْبةً أبديَّةً، يَحْمِلُه بلدٌ ناءٍ سحيق إلى بلدٍ آخَرَ ناءٍ سحيق، وتَشْحُبُ في ذاكرته الأمكنة الَّتي مَرَّ بها، أوْ تلك الَّتي آوتْهُ، حِينًا مِنَ الزَّمان، ولمْ يَبْقَ مِنْ تلك الذَّاكرة إلَّا إحساسٌ مُرٌّ بالغُرْبة الَّتي أحكمَتْ طوقها عليه، وأَسْلَمَتْهُ «الشَّيخوخة» إلى إغراقٍ متَّصَلٍ في «التَّشاؤم» و«الحُزْن العميق»، وكأنَّ حاصل ما

بَلَغَهُ وآلَ إليه كلامٌ قاله فيصل درَّاج = نقرأ فيه أنَّ سِيرته إنَّما تَحْكِي «حُزْن الإنسان ولَوْعته المتجدِّدة، فألوان المعرفة المتعدِّدة، كما خِبْرة العُمْر الطَّويلة، لا تأخذ الإنسانَ إلى حيث شاء عَقْلُه بلْ إلى المكان الَّذي وَصَلَتْهُ قَدَماه. وعنْ هذا الانزياح بين مشيئة العَقْل وقُوَّة القَدَمَيْن يَصْدُر ذلك الحِسُّ المُلتاع بهشاشة الوُجُود، وبهشاشة المعارف والأحلام الإنسانيَّة في آن»(١).

وإذْ يَبْلُغ إحسان عبَّاس هذه المرتبة مِنَ الألم والحسرة، فليس ثَمَّ إلَّا «الرَّاعي» الَّذي تنطوي عليه نَفْسه، يلوذ به، ويأخذه إلى «الماضي المستعاد»، فهو، إنْ لمْ يستطِعْ أن يَخْطُوَ في النَّهر نَفْسه مَرَّتين - كما تُنْبِئ عِبارةٌ للفيلسوف هرقليطس أثبتَها على الغلاف الدَّاخليّ لِسِيرته - فليس أقلّ مِنْ أن يَسْتَرِدَّ شُعُوره بذلك «النَّهر»، فكانَتْ تلك الأبياتُ الَّتي وَطَّأَ بها لِسِيرته الذَّاتيَّة، وفيها شُعُور ذلك الطِّفْل الَّذي كان ذاتَ يَوْمٍ في إهابه:

فِـي دَفْتَـرٍ لِـي قَدِيـم ... كَتَبْتُ هَذِي السُّطُورْ
«أَمْسِ الَّذِي عَاشَ فِينَا ... أَمْسَى وَرَاءَ الدُّهُورْ
يَمُـورُ فِينَـا سَـنَاهُ ... لَكِنَّهُ لَا يَجُورْ
شُـكْرًا لَـهُ قَـدْ نَعَانَـا ... لِوَشْكِ عَامٍ جَدِيدْ

---

(١) - درَّاج، فيصل. «غُربة الرَّاعي أوْ سِيرة الرُّوح الباحثة عن الحقيقة»، في: مِحْراب المعرفة؛ دراسات مُهداة إلى إحسان عبَّاس، تحرير إبراهيم السَّعافين (بيروت: دار صادر ودار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٧م)، ص ٢٥٥.

أَمَـاتَ مُقْبِـلَ عُمْـرٍ ذَبْحًا بِشَفْرٍ حَدِيدْ
فَضَـاعَ مَـا نَتَرَجَّـى وَعَاشَ مَا نَسْتَعِيدْ»

إنْ لَمْ.. فَمَنْ؟ لخالد الفيصل:

سِيرة ذاتيَّة.. إلَّا قليلًا![1]

تَذَكَّرْتُ سِيرة فيلسوف الوضعيَّة المنطقيَّة زكيّ نجيب محمود، وأنا أقرأ كِتاب الأمير خالد الفيصل **إنْ لَمْ.. فَمَنْ..!!؟**[2]، بِعُنْوانه الغامض الغريب، وقَطْعِه المُبَايِن للمعهود مِنَ الكُتُب، وأُسلوب تسطيره الَّذي يُشْبِه الشِّعْر، وما هُوَ بِشِعْرٍ، وإنْ لمْ يُخْلِهِ مِنْه، كُلَّما واتاه ذلك.

قُلْتُ: إنَّ كِتاب خالد الفيصل أَذْكَرَني سِيرة زكيّ نجيب محمود **حَصاد السِّنين**، تلك الماتعة الحزينة، فهلْ كان كِتاب الأمير مُشْبِهًا «تغريدة البَجَعَة»؟ ظاهِرُهُ كلامٌ عَذْبٌ جميلٌ، تَلُوحُ فيه، مِنْ بعيد، نَغْمةٌ شَجِيَّةٌ حزينة؟

---

(١) – صحيفة الوطن، ٧ مِنْ شهر رمضان المبارك سنة ١٤٤٠هـ = ١٢ مِنْ شهر أيار (مايو) ٢٠١٩م.

(٢) – الفيصل، خالد. إنْ لمْ... فَمَنْ..!!؟ (الرِّياض: المؤلِّف، ١٤٣٨هـ).

لمْ يُرِدِ الأمير أن يُصَنِّفَ كِتابه، وقَطَعَ على القُرَّاء والنُّقَّاد الطَّريق؛ لَمْ يُسَمِّهِ «مذكِّراتٍ شخصيَّةً»، ولا «سِيرةً ذاتيَّةً»، ولا «تقاريرَ رسميَّةً»، ودعا هذا الضَّرْب مِنَ الكتابة «تَجْرِبةً إنسانيَّةً»، وكأنَّه أَعْرَضَ عن «الاسْم»، وآثَرَ «المُسَمَّى»، وعَدَا الشَّكْل: «السِّيرة»، و«المذكِّرات»، وأراد المضمون، وحارَتِ المكتبة الوطنيَّة فصنَّفَتِ الكِتاب «نَثْرًا عربيًّا»، ثُمَّ استراحَتْ!

أقربُ الظَّنِّ أنَّ خالد الفيصل اتَّقَى «النَّوْع الأدبيّ»، بِحُدُوده ورُسُومه، وَتَحاماه، ولَمْ يَشَأْ أن يَعْنُوَ له، أوْ كأنَّه أراد أن يتفلَّتَ مِنْ قواعد الفَنِّ، حتَّى يكون بمنجاةٍ مِنْ نُقَّاده، يُقَوِّي ذلك أنَّ جمهرةً مِنَ الكُتَّاب تَرَخَّصُوا، حِين أنشأوا شيئًا في أحوال أَنْفُسِهم، ولمْ يُلِحُّوا، كثيرًا، على «النَّوْع الأدبيّ»، واحترزوا فما أطلقوا على ما أنشأوه عِبَارة «سِيرة ذاتيَّة»، وإنْ آنَسَ بعضهم في كلمة «مذكِّرات» ما يُعْفِيهم مِنْ قواعد النُّقَّاد ومُماحكاتهم، وكانَتْ «قِصَّة الحياة»، و«الذِّكريات»، و«المذكِّرات» أسامِيَ تحتملها الكِتابة، وتُدْنِيها مِنَ «السِّيرة الذَّاتيَّة»، مهما ظُنَّ ابتعادها، ولعلَّ الأميرَ جَلَا شيئًا مِنْ حياته في هذه «الشَّذَرات»، فيها شيءٌ مِنْ سِيرته، لكنَّها ليسَتْ كُلَّ سِيرته، وأرجَأَ الكتابة عنْ حياته الخاصَّة، وما اتَّصَلَ بِنفْسه، وفَرَحِهِ وأَلَمِهِ، بعيدًا عنْ رُسُوم «الإمارة» وتقاليدها = إلى كَتابٍ آخَرَ لا يَضِيره، آنئذٍ، أن يَدْعُوَهُ، بِمِلْءِ فَمِه: «سِيرة ذاتيَّة».

ورَفْعُ الكِتابة إلى أَبٍ أعلى، ليس تَرَفًا يطلبه النُّقَّاد والدَّارسون، ولا مَنْدُوحة لنا عن «التَّسْمِيَة»، نُطْلِقها على كُلِّ ما يَتَّصِل بنا، فإذا رأيتني دَعَوْتُ هذا الضَّرْبَ مِنَ الكتابة «سِيرةً ذاتيَّة»، فلا تَحْمِلْ قولي على ولع النُّقَّاد بـ«النَّوْع الأدبيّ»، ولكَ أنْ تلتمس فيه أصلًا في طَبْع الإنسان، غايتُهُ أن يَدْعُوَ الأشياء بأسمائها، مهما أراد الكاتب والأديب التَّفَلُّت مِنْ ضِيق التَّسمِيَة إلى رحابة الحياة، ونحن نقرأ القصيدة ونرفعها، رأسًا، إلى الشِّعْر، وكذلك المَقامة، والقِصَّة، والرِّواية، والمسرحيَّة. على أنَّ بِوُسْع النُّقَّاد أن يخالفوا الأمير، فيرتضُوا «التَّجربة الإنسانيَّة» معنًى للكتابة ومضمونًا لها، لكنَّهم لن يَعْدِلُوا عنْ رَفْع هذا الضَّرْب مِنَ التَّأليف إلى أَبيه الأدبيِّ الأعلى، ويَرَوْهُ لَوْنًا مِنْ ألوان «السِّيرة الذَّاتيَّة»، أوْ «سِيرةً ذاتيَّةً إلَّا قليلًا»! ولا بأس على الأمير إنْ خُولِفَ، فَعَلَيْهِ أن يكتب، وعلى النُّقَّاد أن يُعْرِبُوا!

أنشأَ الأمير كِتابه لَمَّا أَشْرَفَ على الثَّمانين، وليس شَرْطًا أن يكتب الإنسان في شأن نَفْسه متى عَلَتْ سِنُّه، وإنْ شاءَ أن يكتب المَرْءُ سِيرته في شيخوخته، وكأنَّما أَشْعَرَتْه الكتابة عنْ ماضيه أنَّه عاش عُمْره مَرَّتَيْن، أوْ عساه أدركَ أَنَّه ليسَتْ له حياة إلَّا ما عاشه فرواه، كما يقول غابرييل غارسيا ماركيز، فإذا وَلِيَ أمرًا مِنْ أُمُور النَّاس، فَحَسْبُه أن يتذكَّر ما أنجزه، يريد به

تذكير النَّاس وتقييد أَثَرٍ يَدُلُّ عليه. على أنَّ عَهْد خالد الفيصل بـ«السِّيرة الذَّاتيَّة» قديم، يُؤَيِّد ذلك كِتابه **مسافة للتَّنمية وشاهِد عِيان** (١٤١٩هـ)، يَوْمَ كان أميرًا لعسير، وإنْ لمْ نستطِعْ أنْ نَجُوز به «عَتبَة الذَاتِيَّة»، مهما أراده الأمير كِتابًا في «التَّنمية»، وما يَدْخُل في عِدَادِها.

والحَقُّ أنَّ هناك فَرْقًا بين كِتابَيْ **مسافة للتَّنمية وشاهِد عِيان**، و**إنْ لَمْ... فَمَنْ..!!؟**؛ كُتِبَ الأوَّل، والأمير في السِّتِّين (١٤١٩هـ)، والآخِر، وهو في التَّاسعة والسَّبعين (١٤٣٨هـ) = وفَرْقًا في الرُّوح والنَّفْس والجَسَد والغاية. صحيح أنَّ الأمير لمْ يُخْلِ كِتابه الأخير مِنْ كلامٍ في «التَّنمية»، لكنَّه تَميَّزَ بذلك «البَوْح» الحزين، وصحيحٌ أنَّه أَظهَرَنا في الكِتاب الأوَّل على قِطَعٍ مِنْ نَفْسه، أَدْنَتْه مِنْ أدب «السِّيرة الذَّاتيَّة»، لكِنَّ كِتابه هذا الأخير لعلَّه أراد أن يُظْهِرَنا، في بعض فُصُوله، على «نَفْسه»، بعيدًا عنْ رُسُوم «الإمارة» وحُدُودها، وأباح لقارئه أن يُلِمَّ بشيء مِنْ حياته؛ طِفْلًا، وفَتًى، وشابًّا، وكَهْلًا، وشَيْخًا، على أنَّ ما أَدَّاه إلينا لمْ يَخْلُ مِنْ حَذَر «الأمير»، فَفَسَحَ لنا مِنْ تلك الحياة قَدْرًا، وحَجَبَ قَدْرًا آخَرَ، وليس للسِّيرة الذَّاتيَّة مِنْ قِوَامٍ إلَّا بهما.

ويُخَيَّل إليَّ أنَّ الكِتاب يُظْهِرُنا على شيء مِنَ «التَّنازُع» في شخصيَّة خالد الفيصل؛ بين (الطِّفْل، الفتى، الشَّابّ)، و(الأمير). يَنْزِع الفتى إلى طبيعة الفِتْيَان، وتُغالِبه تقاليد «الإمارة»، مهما كان صَبِيًّا. يجلس في مجلس خاله الأمير سعود بن عبد الله بن جلويّ، في الأحساء، «طِفْلًا لا تَصِل قدماي الأرض، ولكنَّني كُنْتُ مأخوذًا بحزمه وعدله وقِلَّة كلامه»، ويَسُوق إلينا شُعُورَ «الطِّفْل» لَمَّا رأى، أَوَّل مَرَّةٍ، جَدَّه «الملك». كان النَّاس يستقبلون، في مطار الأحساء، «الملكَ عبد العزيز»، ونائبَه في الحجاز «الأميرَ فيصلًا»، أمَّا الطِّفْل فكان يَرْمِي بَصَرَه فيما تَرَاحَبَ مِنَ الأرض، يُفَتِّش عنْ «جَدِّهِ»، و«أبيه»:

لمْ أَعْرِفْ نَفْسي فَقَطْ في الأحساء
ولكنَّني قابلْتُ - أيضًا - وعَرَفْتُ جَدِّي ووالدي
لأوَّل مَرَّة على أرضها
حَضَرَ الملك عبد العزيز للأحساء
يتفقَّد شعبه ودولته
وهَبَّ النَّاسُ لاستقباله وحُسْن وِفَادَته
وخَرَجْتُ وأخي سَعْد إلى المطار

أرضًا فضاءً لا مبنى عليها ولا شِعَار

وهَبَطَتِ الطَّائرة

ولمْ تَلْفِتِ انتباهي

لأنِّي أبحث عنْ غيرها

وتَرَجَّلَ مِنْها اثنان!!

لمْ أُشاهِدْ مِثْلهما أَحَدًا في حياتي

وتَسَمَّرَتْ قَدَماي.. وتَعَلَّقَتْ عيناي

وتحقَّقَتْ أمنياتي

ويلقانا هذا الشُّعُور، مَرَّةً أخرى، حِينَ هَبَطَ الطِّفْلُ خالدٌ مدينة جُدَّة، ورأى، لأوَّل مَرَّة، أخاه الأميرَ محمَّدًا يستقبله في المطار، فجعل ينظر إليه بِعَيْنٍ مِلْؤها الدَّهَش، ويتفحَّصه - كما قال - مِنْ رأسه إلى أخمص قدميه. لكنْ، مَهْلًا، فللإمارة تقاليدها، وعلى الأمير - ولوْ كان طِفْلًا، أوْ فتًى - أن ينزل على شَرْط تلك التَّقاليد.

تَلَقَّنَ الفتى خالد مِنْ والدته أَوَّلَ دَرْسٍ مِنْ دُرُوس الإمارة، لَمَّا آبَ إلى مَسْقط رأسه مكَّة المكرَّمة:

أَمَّا في مكَّة فقدْ عُدْنا إلى بيت «حارَة الباب»

الَّذي وُلِدْتُ فيه

(...)

هناك

نَزَلَتْ معي والدتي مِنَ الطَّابق العُلْوِيّ

إلى الطَّابق الأرضيّ يَوْمًا

وأشارَتْ إلى غُرْفة المجلس وقالَتْ:

هذا مجلس فيصل

وأنتَ ابن فيصل

اجلسْ للنَّاس في مجلس أبيك

وأحسِنْ استقبالهم

واستمِعْ واستوعِبْ

واتَّصَلَ «التَّنازُع» بين طبيعة «الطِّفْل» وتقاليد «الإمارة»، حتَّى انتصرَتْ هذه الأخيرة، فليس للأمير، وإنْ كان «طِفْلًا»، أن يلعب، وليس له أن يَلُوذ بِطَبْعه، وكانَتْ نشأته مترجِّحَةً بين «المراقَبة والمعاقَبة»؛ يراه المُرَافِق الموكول به يلعب مَعَ أقرانه، فينهره، ويَشُدُّه إلى «التَّقاليد» الَّتي لا ينبغي له أن يتأخَّر عنها:

كان كُلَّما رآني ألعبُ مَعَ الأطفال

يَنْهَرُنِي ويقول.. بلهجته:

«نِبِيكْ مِثْل أبوك تشد وتنزل

وانت تِبِي تلعب مَعَ البزران؟!»

أيْ: نريدك كأبيك تقود الرِّجَال

وأنتَ تريد اللَّعِب مَعَ الأطفال؟!

حِينئذٍ، تَعَلَّمَ الطِّفْل خالد أن يَحْزَن كالأطفال، ويتخيَّل نَفْسه مَعَ الرِّجَال، مهما كانَتْ «تقاليد الإمارة» قاسية على قَلْب الطِّفْل ووجدانه.

ويعود إلى الطَّائف، إِثْرَ تَعَثُّر دراسته في أمريكة، فيلقاه أستاذه المَكِّيُّ غاضبًا

إذا بأستاذٍ لنا في النَّموذجيَّة

يقترب مِنِّي.. فسلَّمْتُ عليه.. ولكنَّه كان غاضِبًا

يقول بلهجته المَكِّيَّة:

«اخْسْ.. كسفتنا الله يِكْسِفَكْ..

ضيَّعْت أربع سنين صايع في أمريكا..

ما دخلت الجامِعة حتَّى الآن؟!»

يأخذ خالد الفيصل قارئ «سِيرته؟»، فَنَعْرِف قَدْرًا صالحًا مِنْ نشأته، ما بين الميلاد، في مكَّة المكرَّمة، سنة ١٣٥٩هـ، والنَّشْأة في الأحساء، وإلمامه، أَمَدًا قصيرًا، بالرِّياض. وما

هي حتَّى يؤوب إلى مكَّة المكرَّمة، وتَنَقَّلَتْ حياته بين جُدَّة والطَّائف، فإذا استوفَى تعليمه العامَّ اختير له، ولإخوته، إتمام الدِّراسة الجامِعيَّة في أمريكة، قَبْلَ أن يُقَرِّر قَطْع دراسته فيها، ويُؤْثِر عليها بريطانية وجامِعتها العريقة أكسفورد، وإذا بِمَنْ إليهم الأمر يُفَوِّضون إليه العمل مديرًا لرعاية الشَّباب، ثُمَّ نَلْقاه، بَعْد حِينٍ، أميرًا لعسير، سبعةً وثلاثين عامًا، فأميرًا لمكَّة المكرَّمة، فوزيرًا للتَّربية والتَّعليم، لكنَّه لا يلبث في الوزارة غير قليل، حتَّى يُسَمَّى «مستشارًا لمَلِك البلاد»، وأميرًا لمكَّة المكرَّمة، مَرَّةً أخرى.

وفي الكِتاب - متى استوفيْناه - قِطَعٌ مِنْ نَفْس خالد الفيصل وذاته، ولولا هذه «الذَّاتيَّة»، لَعُدَّ الكِتاب «تقريرًا» أوْ «سِجِلًّا»، أراد الأمير، مِنْ ورائه، تقييد ما أنجز، ولا ضَيْرَ في ذلك، ما وَفَى الكاتب لتلك «الذَّاتِيَّة» الَّتي تَطْغَى، فيكون الكِتاب «سِيرةً ذاتِيَّة»، وتَضْعُف فإذا هو «تاريخٌ» كأيِّ كِتابٍ في التَّاريخ، أوْ «تقريرٌ» لا يُبايِن سِوَاه مِنَ التَّقارير. وعندي أنَّ الكِتاب أَفْلَحَتْ فُصُولُه الأولى، خاصَّةً، في أنْ تَصِلَنا بـ«نَفْس» خالد الفيصل، فإذا تَقَدَّمْنا فيه، كان لهيئة «الأمير» «المسؤول» الغَلَبَة على ما سِوَاها، وشيئًا فشيئًا يَضْمُر ما عَدَدْناه «سِيرةً ذاتيَّةً»، ويَذْوِي ما

فيه مِنْ «ذاتيَّةٍ»، لولا أنَّه يَلُوذ بِنَفْسه، فَنَظْهَر على شيء مِنْ أَلَمِهِ وحُزْنه، ولولا قصائده ومُقطَّعاته الَّتي بَعَثَتِ «الذَّاتِيَّة»، كُلَّما أوشك أثرها أن يَضْمُر، وسَرْعان ما نستعيد ذلك الطِّفْل والفتى والشَّابّ الَّذي أرادتْه «تقاليد الإمارة» على أن يكون، في كُلِّ أحواله، «جادًّا»، كما رآه أستاذه في أمريكة العلَّامة المؤرِّخ الجليل الدَّكتور فيليب حِتِّي!

أَثْبَتَ خالد الفيصل على الغلاف الأخير لكِتابه عِبَارة «كِتاب ليس فيه «أنا»»، فَهَلْ خلا الكِتاب مِنْ أَثَرِ هذه الكلمة وسطوتها؟

كأنَّما أراد خالد الفيصل أن يَفِرَّ مِنْ هذه «الأنا» البغيضة، ولطالما اتَّقَى الكاتِب المسلم، في ثقافتنا، هذه الكلمة، فإذا اضْطُرَّ إليها، حَمَلَ ما أنشأَه في شأن نَفْسِه على مقصود الآية الكريمة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى: ١١]، أَوْ لعلَّه أراد «مُخاتَلَة» القارئ و«مُشاغبته»، حتَّى يَضْرِب في غابة «التَّصنيف» إلى غير نهاية، مُلْقِيًا على الكِتاب «قَلَق التَّسْمِيَة». وهَلْ بمقدُور كاتبٍ - مهما أراد - النَّجاة مِنْ «أنا»؟ أمَّا إذا أَخَذْنا برأيٍ للنَّاقد الأمريكي بول دي مان، يَعْتَدُّ فيه كُلَّ أنواع الكتابة، مهما اختلفَتْ، لَوْنًا مِنْ ألوان السِّيرة الذَّاتِيَّة، وأنَّ أيَّ كِتاب يَحْمِل اسْم مؤلِّفٍ ما، هو بعض آثار ذلك النَّوْع الأدبيّ

فلا سبيلَ، عندئذٍ، إلى اتِّقاء خالد الفيصل، في فاتحة كِتابه ومنتصفه، عِبَارة «سِيرة ذاتيَّة»، إلَّا في حالةٍ واحدةٍ، أَصْلُها غائرٌ في ثقافتنا، يَتَهَيَّبُ فيها الكاتِبُ المسلمُ الحديث عن النَّفْس، ويَتَجَنَّبُ تلك «الأنا» الَّتي لا سبيل إلى اتِّقائها!

سنوات الجوف.. سِيرة المكان القَصِيّ(١)

كأنَّما أراد عبد الواحد الحميد أن يَتَّقي الحديث عن النَّفْس، فَعَمَدَ إلى عِبَارة **سنوات الجوف** واتَّخَذَها عنوانًا لكِتابٍ، جازَ أنْ ندعوه «سِيرة ذاتيَّة»، أوْ «ترجمة نَفْس»(٢)، لكنَّه أمعنَ في صَرْف قارئه عنْ هذا الوَجْه، فأَتْبَعَ العنوانَ الكبيرَ عنوانًا آخَرَ صغيرًا نقرأ فيه عِبَارة «ذكريات جِيل».

على أنَّ القارئ مهما أراد الكاتبُ صَرْفه عن «السِّيرة الذَّاتيَّة»، غيرُ مستطيعٍ أن يأخذه بعيدًا عنْ ذلك النَّوْع الأدبيّ. نَعَمْ إنَّه لا يستطيع أن يَحْمِل المؤلِّفَ على رغبته، لكنَّه، كذلك، لن يَخْرج عَمَّا وَقَرَ في صَدْره، لا سِيَّما أنَّ المؤلِّف أثبتَ على

(١) - صحيفة مكَّة الإلكترونيَّة، ٥ مِنْ شهر ربيع الأوَّل سنة ١٤٤٠هـ = ١٣ مِنْ شهر تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ٢٠١٨م.

(٢) - الحميد، عبد الواحد خالد. **سنوات الجوف** (الجوف: مركز عبد الرَّحمن السُّديريّ الثَّقافيّ، ١٤٣٩هـ = ٢٠١٧م).

الغلاف صورة شخصيَّة غائرة في الزَّمن، يلوح مِنْها ذلك العهد الَّذي كانتْ فيه الجوف مَدْرَج نَشْأَته ومسرح أحلامه.

قدْ يقال: إنَّ عبد الواحد الحميد لمْ يُرِدْ أن يكون أَثِرًا، فَتَجَنَّبَ الحديث عنْ سِيرته، واختارَ الجِيل سبيله إلى ترجمة نَفْسه، لكنَّك كُلَّما تَقَدَّمْتَ في الكِتاب أدركْتَ أَنَّكَ إنَّما تقرأ سِيرة جِيل، وسِيرة مكان، وتقرأ، كذلك، سِيرة إنسان ينتمي إلى هذا الجِيل وذلك المكان، ولَعَلَّكَ خَشِيتَ أنَّ الكاتب الَّذي اتَّقَى الحديث عنْ نَفْسه، وأنكر ذاته = يُحَوِّل كِتابًا معدودًا في أدب السِّيرة الذَّاتيَّة إلى «ذكريات»، إنْ نَفَعَتْ دارِس التَّاريخ والمأثورات؛ فلن ينتفع بها قارئ الأدب - والسِّيرةُ الذَّاتيَّةُ نوْعٌ أدبيّ - متى أراد أن يَجْلُوَ حياةَ إنسانٍ مِنْ لَحْمٍ ودَمٍ، وقدْ طالما جَنَى كُتَّابٌ ومؤلِّفون على أَنْفُسِهم وعلى الكتابة وعلى الأدب = فاستسلموا لِلَذَّة السَّرْد، وجعلوا يتبارَوْن في تعداد ما كان عليه «الزَّمن الجميل»، مِنْ عاداتٍ لا تَعْرِفها الأجيال الجديدة، وتقاليدَ هي جُزْءٌ مِنْ تراث تلك الأمكنة والسَّاكنيها.

هذا ما حَكَّ في صدري ساعةَ نَظَرْتُ في الكِتاب، ثُمَّ لَمَّا مَضَيْتُ أقرأ فواتحه. والحمد لله على أنْ خَيَّبَ عبد الواحد الحميد ظَنِّي؛ فلمْ يَجْلِسْ مِنْ قارئه مجلس «الواعظ» يَقُصُّ

عليه حديثًا مُكَرَّرًا مُمِلًّا، عنْ أمكنةٍ أهملها الزَّمان، وجِيلٍ كابَدَ الصِّعاب، وأنشبَ أظفاره في الصَّخْر، ثُمَّ أفاءَ اللهُ - تبارك وتعالى - عليه بأن يجتاز كُلَّ تلك الخُطُوب، ومَضَى في تعليمه الأَوَّلِيّ والعامّ، حتَّى إذا أَتَمَّ التَّعليم الثَّانويّ، اختلفَ إلى الجامِعة، فَلَمَّا تَخَرَّجَ فيها ابتُعِثَ إلى الغرب، فعاد إلى وطنه يسبقه لقب «دكتور»، ونَعْرِف، بعد ذلك، تَتِمَّة «الحكاية»، ما بين الجامِعة، واللِّجان العُلْيا، ووكالة الوزارة، ومجلس الشُّورى، حتَّى صار «نائب وزير»!

وفي الحَقِّ إنَّ القارئ يَعْرِف ذلك، سواءٌ أَخْرَجَ عبد الواحد الحميد **سنوات الجوف** أمْ طَوَاها وسَكَتَ عنها، فالرَّجُل لمْ يَكُنْ مِنْ غِمَار النَّاس، ودَأَبَ، منذ سنينٍ، على أن يكتب فُصُولًا في الصِّحافة، بعضُها في هُمُوم الصَّنْعة؛ في الاقتصاد والتَّنمية، وبعضُها في مَنازِعَ مختلفةٍ، يُشَمُّ مِنْ وراء كلماتها أنَّ الرَّجُل كأنَّما أَسْكَتَ في داخله صوت الأديب، ونَزَلَ على شَرْط التَّخصُّص العِلْمِيّ والوظيفة الكبيرة.

لكنَّ هذا الحَذَر سَرْعانَ ما يَزول كُلَّما أنشأْتَ تقرأ فصلًا، فإذا أتممْتَه، أَسْلَمَكَ إلى الفصل الَّذي يليه، وإذا بكَ لا تقرأ في الكِتاب ما تَوَهَّمْتَهُ، ثُمَّ إذا بكَ تَحْمَد للكاتب أنْ لمْ يَعْلَقْ بحبائل

الذِّكرى ومَصَايد «الزَّمن الجميل»، ولمْ تقرأ في طُول الكِتاب وعَرْضه كلامًا جَعَلَهُ توطئةً لطِفْلٍ نابهٍ نابغٍ، قاسَى الحياة حتَّى انتهى إلى ما انتهَى إليه. لمْ يصنعْ عبد الواحد الحميد ذلك، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ ماضيه في «صَنْعة الأدب» - وما لنا لا نقول: «حرفة الأدب»، وعَهْدُهُ بها قديم، وتَمَرُّسه في الكتابة = لمْ يَخْلُوَا مِنْ نزعة إنسانيَّة، وإنْ كانَتْ في الاقتصاد والتَّنمية = كُلُّ ذلك عَصَمَ الكِتاب مِنَ الوقوع في ذلك الشَّرَك، مهما كَتَبَ عنْ نَفْسه، ومهما كَتَبَ عنْ مدينةٍ ينتمي إليها، وجِيلٍ هو واحدٌ مِنْ أفراده.

ويُعَرِّفُكَ الكِتاب أنَّ عبد الواحد الحميد أَحَبَّ الأدب والصِّحافة، منذ كان شابًّا يافعًا في الجوف، وأنَّه عاش سنوات صعبة قاسية، لمْ يَعْرِفْ فيها الماء النَّظيف، ولا أنوار الكهرباء. فَلَمَّا أَتَمَّ تعليمه الثَّانويّ، كانتِ النِّيَّة أن يَدْرُس اللُّغة الإنـكليزيَّة، أو الإعلام، لولا أنَّ أَحَدَ أساتذته زَيَّنَ له دراسة الاقتصاد، فتَرَجَّحَ هذا العِلْم النَّافِر الكزّ في فؤاد صاحِبنا، وضَمُرَ في وجدانه ما كان ينشئه، آنئذٍ، مِنْ قصصٍ، ما كان يُدْرينا - لوْ أَخْلَصَ لها - أنْ سيَصِيرُ مِنْه أديبٌ قاصٌّ معدودٌ في الأدباء القَصَّاصين، وعساه أعادَ إلى أذهاننا أسماء جَمَاعةٍ نَعْرِفهم حَقَّ المعرفة، لمْ يَصْرِفْهم الاقتصاد ولا القانون عنْ

«غواية» الأدب، مِنْهم غازي القصيبيّ، وله في قَلْب صاحِبنا وفِكْرِهِ مقامٌ سَنِيّ. على أنَّه لَمَّا اختار الكتابة عنْ شيْء هو أدنى إلى نَفْسه مِنْ سائر صُنُوف الكتابة = كانتْ سنوات النَّشأة في الجوف، تلك الَّتي عَرَفَ فيها طه حسين، والعقَّاد، ونجيب محفوظ = قدْ آزَرَتْه، فأنشأَ يكتب عنْ تلك النَّشأة، وعنْ ذلك الجِيل الَّذي يَعْتزي إليه، فكانتْ موهبة الأمس أمانًا له، ولمْ يَتَعَثَّرْ، كما تَعَثَّرَ سِوَاهُ!

وأَحْسَبُ أنَّه ما كان مَظنونًا أن يتعثَّرَ عبد الواحد الحميد؛ ذلك أنَّ الحياة الثَّقافيَّة في المملكة عَرَفَتْ فيه الكاتب والمثقَّف، قَبْلَ أنْ تَعْرِفَ فيه «المسؤول» ذا المنصب الرَّفيع، وهو، مهما ارتقَى في الوظيفة، ومهما تَقَلَّدَ مِنْ مَنْصِب = واحدٌ مِنْ «قبيلة» المثقَّفين، مثلما كان غازي القصيبيّ، المسؤولُ والوزيرُ والسَّفيرُ، حقيقًا بأن يُحَدِّثنا عنْ قبيلة الشُّعراء، يَوْمَ أذاعَ في النَّاس كِتابه اللَّطيف البديع **عنْ قبيلتي أُحَدِّثُكُمْ**!

لن يستخفي على قارئ **سنوات الجوف** تلاؤم ما بين الأدب والاقتصاد والتَّنمية، وكُلَّما تَقَدَّمْنا في فُصُول الكِتاب، بَرَزَتْ لنا سِيرة عبد الواحد الحميد وجِيله، ولمْ يَسْتَلِبِ الاقتصادُ ولا التَّنميَةُ أَخَصَّ ما تُؤَدِّيهِ السِّيرة الذَّاتيَّة، وهو تعبيرُها عنْ نَفْس

كاتِبها، مهما أَلْمَمْنا بالتَّحَوُّل الَّذي أصابَ مدينة «سكاكا»، حيث وُلِدَ ونَشَأَ وترعرع. نَعَمْ أنشأَ عبد الواحد الحميد يُحَدِّث قارئَه عَمَّا أصابَ مدينته مِنْ تَحَوُّل، لكنَّه أَحْسَنَ إذْ لَمْ يَفْصِلْ ما بين مدينته ونَفْسه - وجِيله - ودَلَّتْنا تلك الفُصُول على سنوات النَّشأة، وقَرَأْنا فيها ما هو أَلْصَقُ بذاته، ورَأَيْنا، مثلما رأى، الدَّهَش والعَجَبَ، حينما اتَّصَلَتْ حياته بِبُداءات التَّنمِيَة والنُّهُوض؛ في مدينته سكاكا الَّتي أَلِفَتْ بُيُوت الطِّين، ثُمَّ في مدينة عرعر؛ تلك الَّتي دعاها «أُمَّ الدُّنيا»، للَّذي أتاحه لها «خَطُّ التَّابلاين»، لَمَّا مَرَّ بها، مِنْ أسباب النُّهُوض والتَّقدُّم، وكان ما رآه فَوْقَ ما يَحْتَمِلُهُ ذلك الفَتَى الجوفيّ. فَلَمَّا أَمَّ الرِّياض، في ذلك العهد البعيد، كانَتِ العاصمة، في عينيه، «أُمَّ الدُّنيا وأباها»! وأدرك أنَّ حياته في «مُدُن الأطراف» لَمْ تَكُنْ لِتَعْنِي شيئًا في طَوْر النُّهُوض والتَّنمِيَة، فَعَبَّ مِنْ مباهج الرِّياض، لَمَّا استَبْقَتْه فيها بعض الوقت، لعارِضٍ صِحِّيٍّ أَلَمَّ به!

على أنَّ سكاكا الجوف، وإنْ كانتْ مِنْ «مُدُن الأطراف» = لها حياةٌ أُخرى تَقَلَّبَتْ فيها، وأتاحَ لها موقعها القَصِيّ أنْ تَتَّصِلَ بمجتمعات وثقافات عربيَّة مُجاورة. وأنتَ تَعْرِف أنَّ الجوف تُسامِتُ العراق وسوريَّة والأردنّ، وإلى كُلِّ تلك البُلدان رَدَّ عبد الواحد الحميد ذلك التَّنوُّع في ثقافتها. أَلِفَ أهلوها

سِجْنات السُّوريِّين والأردنيِّين والفلسطينيِّين، ومازَجُوهُمْ في الشَّارع والمَتْجَر والمعهد والمدرسة، بَلْ إنَّ أبناءَها، مِمَّنْ اختلفوا إلى المدارس، كانوا قدِ اعتادوا وُجُوه مُعَلِّمين وَفَدُوا إليها مِنْ إنـكلترة وإيرلندة، ثُمَّ إنَّ التَّنميَة، لَمَّا تأَخَّرَتْ عنْ مُدُن «الأطراف»، جَعَلَتِ الجوفيِّين يلتمسونها خارِجَ بلادهم، واكتفُوا مِنْها بالمُمْكِنِ المُتاح، مهما كان نَزْرًا قليلًا؛ فثقافةُ تلك الأمكنة القَصِيَّة - وإنْ كانتْ جُزْءًا مِنَ المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة - مَدينةٌ، في ذاكرة عبد الواحد الحميد وجِيله، لِأَثِير الإذاعات الَّذي يَبْلُغهم شيءٌ مِنْه، في الجوف وما حَوْلَها، مِنَ الأردنّ وفلسطين والكويت والعراق. وعَسَاهُمْ عَرَفُوا طَرَفًا مِنْ حياة تلك المجتمعات العربيَّة، وألوان الثَّقافة والفنِّ والأدب فيها = فَوْقَ ما عَرَفُوه مِنْ ثقافة بلادهم الَّتي يَعْتَزُون إليها وينتسبون.

كان عبد الواحد الحميد مفتونًا بسنوات الجوف وذكريات الجِيل الَّذي ينتسب إليه، وكانتِ الجوف - رُغْم تأخُّر التَّنميَة عنها - مجتمعًا متسامحًا، لا يَعْرِف أهلوها التَّشدُّدَ في الدِّين ولا الغُلُوَّ فيه. وعلى أنَّ الجوفيِّين يرتفعون، في عُمُومهم، إلى قبائِلَ عربيَّة = فلمْ يكونوا لِينتسِبوا إلى ما سِوَى الجوف، فَلَمَّا أَخَذَتِ التَّنمية تَدِبُّ، شيئًا فشيئًا، في مَرَافِقِها، تَبَدَّلَ الحالُ غير الحال، وإذا بذلك المجتمع الَّذي لا يَعْرِف العصبيَّة القَبَلِيَّة،

وطائفةٌ مِنْ أبنائه تَلُوذُ بالتَّعَصُّب والمُفاخَرات القَبَلِيَّة، وإذا بالتَّسامُحِ الدِّينيِّ الَّذي نُشِّئُوا عليه يَشْحُب، وجَعَلَتِ التَّيَّاراتُ الَّتي تَسَرَّبَتْ إليهم تُنازِعُهُمْ ما نُشِّئُوا عليه، فَبَلبلتْ أفكارَ نابتةٍ مِنْهم، وأصبحوا وكأنَّهم لمْ يَرَحُوا رائحةَ التَّسامُحِ مِنْ قَبْلُ!

أَلَحَّ عبد الواحد الحميد، كثيرًا، على تلك السَّنوات، وعلى ذلك الجِيل. نَعَمْ لمْ نقرأْ في كِتابه أنَّه كَابَدَ حياةً صعبةً فلانَتْ، ولا فَقْرًا فاغتنَى، ولا حاجَةً، ولا عَوَزًا، ولا فاقةً، وإنْ كَابَدَ، هو وجِيلُهُ، كُلَّ ذلك وقاساه، ولوْ أنَّه فَعَلَ ذلك لَجَفَا قارِئُه قَصَّه، ولاعْتَدَّهُ ضَرْبًا مِنْ ضُرُوب الافتخار الثَّقيل على النَّفْس والعَقْل، لكنَّ عَهْدًا بالكتابة قديمًا وَقَاهُ العَثَرات. وحِين صَحَّ عَزْمُه على إنشاء سِيرتِهِ، كأنَّما الواجب اقتضاهُ أن يَصِلَها بِسِيرة الجوف وأبنائها، حتَّى كأنَّه لا انفصال بين حياة عبد الواحد وحياة مدينته.

كان عبد الواحد الحميد واحدًا مِنْ ذلك الجِيل، وأَظْهَرُ ما كان عليه أولئك الشُّبَّانُ الجوفيُّون، مِمَّنْ وُلِدُوا في عَشْرِ السَّبعين مِنَ القرن الرَّابعَ عشرَ الهجريّ[1]، وبَلَغُوا سِنَّ الشَّباب

---

(١) – عَشْر الخمسين مِنَ القرن الميلاديّ العشرين.

في عَشْرِ الثَّمانين مِنْه[١] = أَنَّهم اتَّصلوا بتلك الأفكار الَّتي استهوَتْ أجيالًا مِنَ العرب، في المشرق والمغرب. آمنوا إيمانًا ساذجًا بالعُرُوبة والقوميَّة، واحتلَّ النِّضال الفلسطينيّ موقعًا سامقًا في أفئدتهم، ولَعَلَّ عبد الواحد وجِيله مِنْ شُبَّان الجوف عَرَفُوا مِنْ تلك التَّيَّارات والأفكار فَوْقَ ما عَرَفُوه مِنْ أمر بلادهم الَّتي يَعْتزون إليها.

ونحن لمْ نَعْرِفْ أنَّ عبد الواحد تَطَبَّعَ «حَرَكِيًّا» بفكرة مِنْ تلك الفكرات السِّياسيَّة، على نَحْوِ ما كان عليه شُبَّانٌ آخرون، في غير ناحِيَةٍ مِنْ بلاده، ولمْ نَعْرِفْ أنَّ الأفكار الَّتي انتحلها أَوْرَدَتْهُ المَهالِك، كما أَوْرَدَتْ سِوَاهُ = على أنَّ في السِّيرة إلماحاتٍ إلى تَسَرُّب شيْءٍ مِنْ تلك الأفكار الضَّاجَّةِ بالثَّورة إلى مَدينته، عَرَفَها عبد الواحد مِنْ أساتذته الفلسطينيِّين، حتَّى إذا كُشِفَ أمرُ أولئك الأساتذة، أُبْعِدُوا، مِنْ فَوْرِهِمْ، عن البلاد.

ساقَ إلينا عبد الواحد الحميد ذلك، وكأنَّه يريد أن يُخْرِجَ الجوف مِنَ «الطَّرَف القَصِيّ»، ويَصِلَها، رأسًا، بما اضطرَبَتْ فيه الحياة العربيَّة، في السِّياسة والاجتماع، أوْ كأنَّما أرادَ أن يَفْصِل بين قُعُود مدينته عن رَكْب التَّنمية والتَّقدُّم، واتِّصال

---

(١) - عَشْر السِّتِّين مِنَ القرن الميلاديّ العشرين.

أبنائها بالأفكار والمَنازِع. وفي الحَقِّ إنَّ **سنوات الجوف** يستطيع قارئُهُ أن يَجُوز به عتبة الأدب - متى أراد - ويَتَّخِذه شاهدًا على حقبةٍ تَقَلَّبَ فيها شُبَّان الجوف في الأفكار الَّتي تَنَازَعَتْهم، وإنْ لمْ تَبْلُغْ أنْ هَوَتْ بهم في مهاوي الرَّدَى، أوْ على الأقلّ هذا ما أتاحه الكِتاب وأَذِنَ به.

وفي **سنوات الجوف** نَغْمَةٌ حبيبةٌ حُلْوةٌ، وحَسْبُنا أنْ نُعِيد التَّذكير بمجتمع اطَّرَحَ القَبَلِيَّة، وإن ارتفَعَ إليها، وأَقْبَلَ على الغِناء والفنِّ قَبْلَ أنْ تَزْكُمَهُ روائح «الصَّحْوة»، فَتَحْرِفه عمَّا دَرَجَ عليه، واتَّصَلَ بالسِّحْنات العربيَّة قَبْلَ أن يَعْرِف قَسَمات أبناء بلاده مِنَ السُّعُوديِّين، فإذا أنزلْنا ذلك على عبد الواحد الحميد، كاتِب تلك السَّنوات، فعسى أنْ نرى فيه مِثَالًا للجوف الَّتي تَجَرَّدَ للكتابة عنها:

كان عبد الواحد فتًى كغيره مِنْ فِتْيان الجوف، رأى في التَّعليم فُرصته الوحيدة لبلوغ ما يريد، وكان مِنْ أوساط النَّاس، لمْ يُدِلَّ على قارئه بِنُبُوغٍ ولا ما يشبهه، وكان فَرْدًا مِنْ جِيلٍ فَعَلَ مثلما فعَلَ، فَلَمَّا شارَفَ الشَّبابَ أَقْبَلَ على الثَّقافة والأدب، فَعَبَّ ما شاءَ له الله أن يَعُبَّ، مِمَّا أُتِيحَ له في مكتبة أبيه - وكان رَجُلًا مستنيرًا - وحُبِيَ في عَشْرِ الثَّمانين مِنَ القرن الهِجْرِيِّ

المنصرم، بأساتذةٍ عربٍ مثقّفين، فيهم الأديبُ والشّاعر، مهما ابتُلِيَ بآخرين قُساةٍ غِلاظ، فَلَمَّا أنشأَ يخطو خطواته الأُولى خارجَ الجوف، أدركَ، بعضَ إدراكٍ، صورة الوطن الَّذي يَحْمِل هُوِيَّته، وَجَعَلَ يتأمَّل سِحْنات مُواطنيه، أولئك الَّذين عَرَفَهم في عرعر، أوَّلًا، ثُمَّ في الرِّياض وجُدَّة. فإذا نَزَّلْنا ما سَطَّرَه في سنوات **الجوف** على حياته الَّتي نَعْرِفها، أدركْنا الأَثَر الَّذي طَبَعَتْ به الجوفُ ابنَها لَمَّا اتَّصَلَ، منذ شبابه المبكّر، بغير ناحيةٍ مِنْ بلاده، فكان لِجُدَّة الَّتي اختلفَ إلى جامعتها، والظَّهران الَّتي أمضى فيها سنوات العمل الجامعيّ، والرِّياض الَّتي ألقَى عصاه في ساحتها = مِثْل ما للجوف؛ هذه المدينة الَّتي أَوْرَثَتِ ابنَها أَظْهَرَ مناقبها: رُوحًا سَمْحًا، ونَبْذًا للتَّعصُّب، مهما يَكُنْ.

كُلُّ ذلك كان في عبد الواحد الحميد وجِيله، ذلك الجِيل الَّذي عَرَفَ الأفكار الَّتي تَنَاهَبَتْهُمْ، يَمْنَةً ويَسْرَةً، وكان، بِحَقٍّ، كما أرادَ، «قنطرةً» بين الأجيال، وأَحْسَبُ أَنَّنا نُمْسِكُ في كِتابه هذا بما يُدْنِيهِ مِنْ تاريخ الأفكار، لولا أَنَّه لاذَ بِنَفْسه واعتصمَ بها، فاستوَى له مِمَّا أنشأَ كِتَابٌ معدودٌ في أدب «التَّرجمة الشَّخصيَّة»، وكانتْ هذه «الذَّاتيَّة» الَّتي صَدَرَ عنها، لُحْمَةَ الكِتاب وسَدَاه، وحالَتْ دُون أنْ تَسْتَلِبَ «ذكريات الجِيل» أخصَّ ما تمتاز به «السِّيرة الذَّاتيَّة» مِنَ «الذِّكريات».

عَبَثُ اليتيم(١)

حِينَ تَخَرَّجْتُ مِنَ الابتدائيَّة كانَتْ سنة التَّخَرُّج هي نَفْسها سنة اقتحام جهيمان العتيبيّ للحَرَم ١٤٠٠هـ، وسنة تَخَرُّجي مِنَ الجامِعة كان اجتياح القُوَّات العراقيَّة للكويت ١٩٩٠م، وحِينَ انتهيْتُ مِنَ الماجستير كانَتْ أحداث سبتمبر في نَفْس سنة التَّخَرُّج (...) وحِين انتهيْتُ مِنَ الدَّكتوراه سَقَطَ نِظَام حُسْني مبارك في مصر!

أحمد العرفج

يَجْمَعُني وأحمد العرفج جِيلٌ واحدٌ وثقافةٌ واحدة، لكنَّه اتَّسَعَ له مِنْ مَدَارِك العَيْش ما لمْ يَتَّسِعْ لي مِنْه إلَّا مِقْدارٌ هَيِّنٌ يسير؛ وُلِدَ في بريدة عام ١٣٨٥هـ - وأنا وُلِدْتُ قَبْلَه بعام! - وتَحَوَّلَ إلى المدينة المنوَّرة صغيرًا، وعاش في غير ناحيةٍ

---

(١) - صحيفة مكَّة الإلكترونيَّة، ٢٩ مِنْ شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٤٠هـ = ٦ مِنْ شهر آذار (مارس) سنة ٢٠١٩م.

مِنْ بلادنا؛ حِينًا في الرِّياض، وحِينًا آخَرَ في المدينة المنوَّرة، وطابَتْ له الإقامة، مُدَدًا مختلفةً، في جُدَّة، والرَّسّ، وعُنَيْزة، والدَّمَّام، ومكَّة المكرَّمة، واختلَفَ إلى غير مدرسةٍ ومعهد. وأنا لمْ أبرَحْ جُدَّة، حيث وُلِدْتُ ودَرَجْتُ ونَشَأْتُ، إلَّا حِينًا مِنَ الزَّمان أمضيْتُه في الرِّياض، طلبًا للعِلْم. ومَعَ ذلك فبيني وبين أحمد ما نشترك فيه؛ عانَيْتُ اليُتْمَ مثلما عاناه، وقاسَيْتُ ألوانًا مِنَ التَّأَخُّر في الدِّراسة تُشْبِه ما قاساه، رَسَبْتُ في الصَّفّ الأوَّل الابتدائيّ، والصَّفّ الرَّابع، وكابَدْتُ مِنْ أمر مادَّتَيِ «الحِسَاب» و«الجَبْر» ما الله به عليم! حتَّى إذا أَعَدْتُ السَّنَة، في الصَّفّ الرَّابع الابتدائيّ، انقلبْتُ، بَعْدئذٍ، تلميذًا «نابِهًا»، وقدْ طالما غَبَرَ عليَّ زمانٌ ذُقْتُ فيه طَعْم «التَّنْبَلة» وبَلَوْتُها، كما ذاقها أحمد العرفج وبَلَاها.

اختار أحمد العرفج اللُّغة العربيَّة تخصُّصًا لدراسته في الجامِعة، كما اخترْتُ، وجَمَعَ عَزْمَه على أن يواصل دراسته العالية، كما عَزَمْتُ، حتَّى إذا أَتَمَّ «الماجستير»، طار إلى بريطانيَة واختار الإعلام تخصُّصًا له في «الدَّكتوراه»، واكتفيْتُ أنا، مِنَ الشَّهادات العالية، بدرجة «الماجستير»، ولمْ أشأْ أنْ أُكْمِلَ دراستي فأظفر بالشَّهادة الرَّفيعة العالية = وأَحَبَّ أحمد النَّاسَ وبالَغَ في الاجتماع بهم ومُخالَطتهم، وأَحبَبْتُهم كما

أَحَبَّهم، غير أَنَّني بالَغْتُ في العُزْلة عنهم والانطواء دُونَهم، ولمْ أُخالِطْهم إلَّا على قَدْر، واستهوَتْه «الشُّهرة»، واستهواني «الخُمُول»، وقَبْلَ ذلك وبَعْدَهُ جَمَعَ بيننا الجِيلُ والنَّشْأَةُ والتَّعليمُ والثَّقافة.

شُغِفَ أحمد العرفج بالعنوانات المسجوعة، وبالَغَ فيها حتَّى لَكأنَّه اختُصَّ بها فصارَتْ عَلَمًا عليه، فلا نقرأ له فَصْلًا يُذيعه في الصُّحُف، ولا كِتابًا يَدْفع به إلى المكتبات، إلَّا أَجْراه على تركيبٍ مزدوجٍ مسجوع، يَلْوِي له كلمات اللُّغة وعِبارَاتها متى حَقَّقَ له ما ابتغاه مِنَ السَّجْع والازدواج، وكأنَّما أراد أحمد أن يَدُلَّ بذلك على أسلوبه السَّاحر الَّذي عُرِفَ به، منذ اتَّخَذَ السُّخرية أسلوبًا له ومنهجًا، وما كان، مِنْ قَبْلُ، ساخِرًا هازئًا، وعساه كان جادًّا يَغْلُو في الجِدّ والتَّحفُّظ ويُبالغ، وتَجْلُو لنا فُصُوله الَّتي أذاعها في الصِّحافة، قديمًا، جِدَّه وتَحَفُّظَه واحتياطَه، ولَعَلَّه لوْ وَالَى الكتابة على أسلوبه القديم لَمَلَّه القُرَّاء، وما حَقَّقَ شيئًا مِنَ «الشُّهرة» الَّتي عَمِلَ لها نهارَه وسَهِرَ في طلبها ليلَه.

أَحَبَّ أحمد السُّخرية وتَفَنَّنَ فيها، وباتَ يسخر مِنْ كُلِّ شيء، وأُوتِيَ قُوَّةً على السُّخْر والإضحاك، وكان لِزَامًا عليه

إضحاك النَّاس ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. أضحكَهم، أوَّلًا، في الصِّحافة، حتَّى إذا أُتِيحَ له الاتِّصال بـ«مواقع التَّواصُل الاجتماعيّ»، وصار مِنَ المُجَلِّين فيها = اتَّسَعَ عارفوه مِنْ مُصْطَنِعي تلك المواقع، فإذا تَسَنَّى له أن يَبْلُغَ النَّاسَ في بُيُوتهم وأنديتهم، فلا بأس في ذلك، ولْتكُنْ القَنَوَات الفضائيَّة وسيلته الَّتي يُشْرِفُ بها عليهم، وظَنَّ نَفَرٌ مِنَ مُحِبِّيه ومُبْغِضيه أنْ سيكون نَفَسُ أحمد قصيرًا، فلا يستطيع الرَّكْض في برنامجه الفضائيّ، ولكنَّه ثَبَتَ له، وأثبتَ قُدْرته على أن يأتي بالجديد، وأن يَصِلَ إلى غايته دُونَ أن يتكلَّفَ لها مِنْ ألوان الجِدِّ والصَّرامة ما يَقْطع ما بينه وبين النَّاس، واحتمَلَ، مِنْ أجل ذلك، ألوانًا مِنَ القَدْح والسُّخرية الفِجَّة، دُونَ أن يَنْزِلَ عن النَّهْج الَّذي اختاره، وكان في معظم أحواله ساخِرًا ضاحكًا، يَصْنَع لكلِّ حادثة ما يُلائمها مِنْ ألوان التَّعبير، ويُؤَدِّي للنَّاس ما يرجونه مِنْه، ويبلغ مِنْ «تثقيفهم»، ما تَأَخَّرَ عنه العاملون مِنَ الصَّفوة المختارة مِنْ أساتذة الجامِعة والمثقَّفين والأدباء، ومهما أردْتَ فلن يَخْلُوَ «جِرَاب» أحمد مِنْ فائدةٍ في الأدب، أو التَّاريخ، أو المعرفة، وإنْ أدَّاها إلينا ضاحكًا مستبشِرًا.

ونُقَّادُ أحمد كُثْرٌ، لا يُستطاع عَدُّهُم، ولَهُم في نَقْده والإزراء به أقوالٌ مختلفةٌ، أُوتِيَ قُدْرَةً وصَبْرًا على احتمال ما كبر مِنْها

وما صغر، بلْ إنَّه لَيَحْتَفِي بِنُقَّادِهِ حتَّى لَيُشْفِقُ عليه مُحِبُّوه أنْ صارَ «عِرْضُهُ» مستباحًا، فإذا أردْتَ إحصاء ما أخذوه على أحمد، وَقَفْتَ على آراءٍ مختلفاتٍ: فالرَّجُل، عندهم، مولَعٌ بالشُّهْرة، مشغوفٌ بها، يتكلَّف إضحاك النَّاس لأدْنَى مناسَبةٍ، ويُقَلِّلُ مِنْ شأنه إذْ يَضْحَك ويُضْحِك، ويَنْفَسُ عليه «الكسلانون» - وما أكثرَهُمْ! - أنْ مَنَحَه الله - تبارك وتعالَى - كُلَّ هذا الوقت؛ يقرأ فيه، ويلتقي أصدقاءَه، ويُخالِط النَّاس، ويكتب في غير صحيفةٍ وَرَقِيَّةٍ وإلكترونيَّةٍ، حتَّى إذا قرأوا فُصُوله، هُنا وهناك، إذا بهم يَرَوْنَه في هذا الموقع أوْ ذاك مِنْ «مواقع التَّواصُل الاجتماعيّ»، فإذا وافاهم مساء الأربعاء، مِنْ كُلِّ أسبوع، أَطَلَّ عليهم في برنامجه الذَّائع «هلا بالعرفج»، إلى آخِر ما أعرفه وما لا أعرفه مِنْ شؤون أحمد وشُجُونه! وكأنَّما الأصْل في ثقافة النَّاس هو «التَّحَفُّظ» و«التَّزَمُّت» و«التَّثاقُل»، أمَّا الضَّحِك فمنبوذٌ صاحِبُه فَوْقَ كُلِّ أرضٍ وتحتَ كُلِّ سماء، وليس ذلك خَصِيصةً فينا، إنَّما هي «ثقافة» توشك أنْ تُصبح «كونيَّةً»، تَسْنُدُها أقوالُ مأثورةٌ، أَعْلَى فيها أصحابُها «الحُزْنَ» على «الفَرَح»، والشِّعْرَ «المتزمِّتَ الكئيب» على الشِّعْر «الفَكِهِ السَّاخِر». وللرِّوائيّ والفيلسوف الإيطاليّ أمبرتو إيكو كلامٌ عميق أدارَ عليه روايته اسْم الوردة، خُلاصَتُهُ أنَّ «الثَّقافة» الَّتي احتفظَتْ بـ«مأساة»

أرسطو، هي الَّتي أضاعَتْ «ملهاته»، حتَّى إذا أضاعَتْها بالَغَتْ في حَمْلِ النَّاس على ألوانٍ مِنَ «التَّحَفُّظ» و«التَّزَمُّت»، وأَزْرَتْ بـ«الضَّحِك» و«الفُكاهة»، فاتَّقاهما النَّاس وصَدُّوا عنهما. فإذا أَقْبَلْتَ على أحمد الضَّاحِك السَّاخِر، سَلَقَكَ مُحِبُّوك - قَبْلَ شانئيكَ - بألسنةٍ حِدَاد، وأقبلوا عليكَ باللَّوْم، واستصغروك، وقدْ ظَنُّوكَ، مِنْ قَبْلُ، كبيرًا، لا لِجُرْمٍ اقترفْتَه، إلَّا لأنَّكَ نَوَّهْتَ بفضْل أحمد ومنزلته في ثقافتنا! وإنِّي لَعَلَى يقينٍ مِنْ أنَّ نفرًا مِنَ القُرَّاء سَيَرَوْن في هذا الفَصْل حَطًّا مِنْ شأْن «الثَّقافة الرَّفيعة»، وتَدَهْوُرًا ينبغي تَدَارُكُه، لا لشيء إلَّا لأنَّني أنشأْتُه في شأْن مِنْ شؤون أحمد العرفج؛ في ضَحِكِه وسُخْرِهِ وعَبَثِه!

قُلْتُ، مِنْ قَبْلُ: إنَّ أحمد العرفج يُثَقِّفُ بالضَّحِك، إذا أَذَاعَ فَصْلًا في الصِّحافة، أوْ أَقْبَلَ على جمهوره في التِّلفاز، وقُلْتُ، كذلك: إنَّ بيني وبينه مَشَابِهَ، آكَدُها أنَّني وإيَّاه مِنْ جِيلٍ واحدٍ، مهما اختلَفَتْ بيننا سُبُل الحياة، وقَوِيَ هذا التَّشابُه في كِتابه البديع **المُهْمَل مِنْ ذكريات طالبٍ تَنْبَل: سِيرةٌ دراسيَّة مِنَ الابتدائيَّة إلى الدَّكتوريَّة**[1]!

---

(١) - العرفج، أحمد عبد الرَّحمن. **المُهْمَل مِنْ ذكريات طالِب تَنْبَل** (دبي: دار مدارك، ٢٠١٥م).

ولا شَكَّ عندي أنَّ عنوان الكِتاب سَيُعْرِض عنه قُرَّاءٌ وقُرَّاءٌ، وسيحكمون عليه مِنْ عنوانه، ما دامَ الكِتابُ يُقْرَأُ مِنْ عنوانه = لكنَّني قَرَأْتُ الكِتابَ، ولَمَّا ظَهَرْتُ على صفحاته الأولى، أدركْتُ أنَّ أحمد انتقَى مِنْ حياته العريضة الواسعة، ما اتَّصَلَ بتعليمه منذ «الابتدائيَّة» إلى «الدَّكتوريَّة»، وأنَّه قَيَّدَ، دُونَ أن يَقْصِد إلى ذلك، حياةَ جِيلٍ، أنا واحدٌ مِنْ أبنائه، ويكفيني هذا لِأُحِبَّ الكِتاب، ويكفيني ذلك لِأُقْبِلَ على أحمد، وقدْ طالما تَحَدَّثْتُ، كما تَحَدَّثَ غيري، مِنْ أولئك الَّذين وُلِدُوا في عَشْر الثَّمانين، مِنَ القرن الهجريّ الماضي (عَشْر السِّتِّين مِنَ القرن الميلاديّ العشرين) = عنْ عَهْدٍ أدركْنا فيه «فوانيس» الإنارة في الشَّوارع، وصهاريج الماء تَجُرُّها الحمير، والشَّوارع والأزِقَّة التُّرابيَّة، حتَّى إذا انتصَفَ عَقْد التِّسعين للهجرة، أَحْسَسْنا أنَّ شيئًا في بلادنا قدْ تَغَيَّرَ: حَفَرَ العُمَّال الكوريُّون الشَّوارع، وزُفِّتَتِ الطُّرُق، وعَرَفْنا التِّلفاز المُلَوَّن، والفيديو، ورأَيْنا بُيُوتًا تُهْدَم، وطُرُقًا تُوَسَّع، وشاعَتْ في ألسنة النَّاس كلمة «الهَدَد»، وأَخَذَ المحظوظون مِمَّنْ هُدِّمَتْ بيوتهم، ونالوا تعويضًا مُجْزِيًا، يتحدَّثون عن دُورٍ جديدةٍ تُدْعَى «الفِلَل»، ومُفْرَدُها «فِلَّة»، وصارَ البُسَطاء الطَّيِّبون يحلمون بـ«فِلَّةٍ»، تَعْتَنِق الأشجارُ سُورَها، وأنْ سيرتقون فيدركون «الطَّبَقات» النَّاعمة

المُرَفَّهة، ويرتعون مِثْلَما رَتَعَتْ في عَيْشٍ ناعِمٍ رَخِيّ!

إذا كُنْتَ مِنْ ذلك الجِيل فستعرف تلك المفردات، وستَشُمُّ تلك الرَّائحة الَّتي شارَفَ أحمد شيئًا واحدًا مِنْها، وهو «التَّعليم»، وستعْرِف، كما عَرَفْتُ، ما أَدَّتْه إلينا هذه السِّيرة «الضَّاحكة» «الباكية» مِنْ ألوان اللَّذَّة والمَتاع.

وعساك لوْ قَرَأْتَ كِتاب **المُهْمَل مِنْ ذكريات طالبٍ تَنْبَل** بتمامه، ستقول: إنَّني عِشْتُ مِثْل هذه الحياة الَّتي عاشها أحمد، والتحَقْتُ بمدارسَ تُشْبِه تلك الَّتي التحقَ بها أحمد، ويوشك أن يكون مُعَلِّمونا هُمْ مُعَلِّمي أحمد، والحارَةُ والشَّارعُ والزُّقَاقُ، هي حارَة أحمد والشَّارع الَّذي عَبَرَه والزُّقَاق الَّذي دَرَجَ فيه! وكأَنَّما أنشأَ أحمدُ ما لوْ أُتِيحَ لنا لأنشأْناه، ولَضَحِكَ القُرَّاء وبَكَوْا حِين يَظْهَرُون على ما كَتَبْنا، مِثْلما أضْحَكَنا أحمد وأبكانا.

وليس في ذلك موضعٌ للغرابة ولا الدَّهَش؛ ذلك أنَّ «السِّيرة الذَّاتيَّة»، على تَنَوُّعِها واختلافها، نُحِبُّها ونُقْبِلُ عليها ما رَأْينا فيها شيئًا مِنْ أَنْفُسِنا، وإنَّها كالقصيدة، والقصَّة، والرِّواية، تَصِلُنا بها شؤون، بعضُها الفنّ، وبعضُها التَّجْرِبة، ونُحِسُّها إذا أصابَتْنا «عَدْواها»؛ تلك الَّتي لها أَصْلٌ في الرُّومنطيقيَّة عريق، فنتلَقَّى هذه السِّيرة أوْ تلك ونحتفِل لها، متى أورثَتْنا تلك «العَدْوَى»

الَّتي تُصِيبنا. وبعضُ ذلك أَدَّاه إلينا أحمد في سِيرته «العِلْمِيَّة» هذه، حتَّى لَنَحْسِبُ أَنَّها «سِيرة» كُلِّ واحدٍ مِنَّا، لولا اختلاف الأسماء والأمكنة، وليس له أن يُخالِف عنْ ذلك، ما وَحَّدَتْ بين النَّاس هذه الجُملة المؤلَّفة كلماتها مِنْ أفعال: «وُلِدَ وعاشَ وماتَ»!

يقول النَّاقد الفرنسيّ جورج ماي في كِتابه **السِّيرة الذَّاتيَّة** عن رواسِمَ مكرورةٍ في هذا النَّوْع مِنَ الأدب:

> فما أكثرَ الآباءَ المفرِّطين في جفائهم! وما أكثرَ الأُمَّهاتِ المفرِّطاتِ في حُبِّهنَّ! والمدارسَ والسُّجُونَ! وتَيَقُّظَ الغرائز! وما أكثرَ ضحايا اللُّؤم البَشَرِيّ، أو الظُّلم الاجتماعيّ، أو العِشْرة السَّيِّئة! على أنَّ في التَّجربة مِنَ المفاجآت ما يَسُرُّنا أحيانًا

وما قاله النَّاقد الفرنسيّ حَقٌّ لا رَيْبَ فيه، ولولا أنَّه حَقٌّ ما مِلْنا إلى كُتُب السِّيَر الذَّاتيَّة، وإنْ تَشابَهَتْ في المبنى والمعنى، ولن يستطيع أحمد العرفج، ولا غيره، أن يُنْشِئَ سِيرةً ذاتيَّةً تُباين ما عاشه ملايين مِنَ البَشَر، وكأنَّنا، إذْ نُقْبِل على سِيرته، إنَّما نُشاركه حياةً نَحْسَبُها سَمْحةً، مهما كانَتْ قاسيةً مؤلمة، وما يُدْرِينا فَلَعَلَّنا نُوهِم أَنْفُسَنا فنتخيَّل ما فيها مِنْ إسماح، وننخدع لها مختارين طائعين.

ليس في سِيرة أحمد العرفج، في الأعَمِّ الأغلب، ما تَنبُو به حياة أَحَدٍ مِنْ جِيله. ذاقَ اليُتْم كما ذاقه آخَرون، ورَسَبَ وأعادَ السَّنَةَ، مِرَارًا، كما رَسَبُوا وأعادوا، وتَلَقَّى حياته مِنَ التَّعليم الابتدائيّ إلى الجامعيّ، على وَفْقِ «ثقافةٍ» حُمِلَ النَّاس عليها حَمْلًا، وكانَتْ حياتُه - وحياة جِيله - يَحُدُّهما عَهْدان: ما قَبْلَ عام ١٤٠٠هـ، وما بَعْدَه. هكذا استذكر أحمد، وهكذا يستذكر كُلُّ مَنْ عاشَ تلك الحِقْبة، وكانَتْ «جريمة احتلال الحَرَم المَكِّيّ الشَّريف» فيصلًا بين «قرنين» و«عصرين» و«ثقافتَيْن»، نستذكر ما قَبْلَ عام ١٤٠٠هـ بألوانٍ مِنَ الحنين، وما بَعْدَه بِيأْسٍ استولَى علينا، صَنَعَتْه على عينها «ثقافةٌ» كَرِهَتِ الحياةَ، وأرادَتْنا على أنْ نُظاهِرَها في الكراهِيَة. والحَقُّ أنَّ أحمد فاجَأني بجديده، إذْ لَمْ أَكُنْ أَعْلَم أنَّ في مدينة جُدَّة - بِضَمِّ الجيم! - مَعْهدًا عِلْمِيًّا - يرتفع نَسَبُه إلى جامِعة الإمام محمَّد بن سُعُود الإسلاميَّة - لولا أنَّه اختلَفَ إليه، في المُدَّة الَّتي تَدَيَّرَ فيها عروس البحر الأحمر - لكنَّ ذلك المعهد لَمْ يَكُنْ لِيُشْبِهَ أشقَّاءَه قُوَّةَ أَثَرٍ وسُلطانًا على النَّاس، كتلك المعاهد الَّتي اختلَفَ أحمد إلى بعضها، في عُنَيْزة وما إليها، ويَلُوح لي أنَّه أصابَه شيءٌ مِنْ أَثَر تلك «الثَّقافة»، بفعل البيئة والأُسرة، يَدُلُّنا على ذلك أنَّه تَخَيَّرَ «المعهد العِلْمِيّ» دُونَ سِواه مِنْ معاهد التَّعليم ومدارسه،

في المدينة المنوَّرة، وجُدَّة، وعُنَيْزة، والدَّمَّام، فلمَّا استوفَى التَّعليمَ العامَّ، رأيناه طالبًا في جامِعة الإمام، بِبُرَيْدة أوَّلًا، ثُمَّ في الجامِعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة، وكان بِوُسْعِهِ، وهو جَوَّابُ أمكنةٍ، أن يُتِمَّ تعليمه في جامِعة مدنيَّةٍ؛ في الرِّياض، أوْ جُدَّة، أو الدَّمَّام! لكنَّها «الثَّقافة»، تلك الَّتي سادَتْ ذلك العهد، وحَمَلَتِ النَّاس على الأَخْذ بها دُونَ سِوَاها، ولمْ يَشُذَّ أحمد عنهم، وكان واحدًا مِنْ أولئك النَّاس.

أَشْبَهَتْ حياة أحمد العرفج حياة سِوَاه مِنْ أبناء «الجِيل»، وخالَفَهم في «الوسيلة»؛ تَكَلَّفَ كوكبةٌ مِنْهم الجِدَّ والوَقَار، وألزموا أَنْفُسَهم «التَّحَفُّظ» و«الاحتياط» و«التَّزَمُّت» - لَمَّا كَبِرُوا في السِّنِّ والوظيفة والمنصب - أَمَّا أحمد فأعْرَضَ عنْ ذلك، وأَثْبَتَ ما كابَدَه في حياته - مهما كَبِرَ في السِّنِّ والوظيفة والمنصب = فما كان «نابغةً»، وإنْ أسماه أحد أشياخه «أحمد ابن حنبل»! بلْ إنَّه لَيَسُوق ألوان «المديح» و«الإطراء» في غير قليلٍ مِنَ السُّخْر والفُكاهة، وأَظْهَرَ لنا ما لو اتَّصَلَ بعضُه بغير واحدٍ مِنْ جِيله = لكان، عندهم، شأْنًا مُكَتَّمًا مسكوتًا عنه، ما داموا أَحَاطوا حياتهم بـ«التَّحَفُّظ» و«الاحتياط» و«التَّزَمُّت». وكُلُّ ما يَمُرُّ بخاطرك مِنْ سِيَر «الطُّفُولة» كان أحمد على خِلَافه، بلْ إنَّه لَيختصر حياته في التَّعليم بهذا الكلمة الصَّادمة المُؤْذِيَة: «طالب تنبل»! - والتَّنْبَلُ:

الكَسُول مِنَ النَّاس - فإذا مَضَيْتَ في السِّيرة تبَسَّطَ الكاتب في شَرْح تفاصيل تلك «التَّنْبلة»: كان «غَبِيًّا» في بعض المواضع، «بَلِيدًا» في بعض سنوات الدِّراسة، على أنَّ هذه الصِّفات الَّتي اتَّصَفَ بها، يلقانا، في سِيرته، ما يناقِضُها: كان أحمد جريئًا، مِقْدَامًا، عِصَامِيًّا، أَلُوفًا. وعَسَاهُ، اليَوْمَ، يَشْكُر تلك الأحوال الَّتي وَصَلَتْه بـ«المعهد العِلْمِيّ»، و«جامِعة الإمام»، و«الجامِعة الإسلاميَّة»، رُغْمَ النَّقْد الَّذي صَبَّه على ذلك المعهد وتَيْنِكَ الجامعتين، ويَكْفيه أنْ عَرَفَ، مُكْرَهًا أوْ راضِيًا، ألوانًا مِنَ الثَّقافة، وصُنُوفًا مِنَ الكُتُب، لمْ يَتَيَسَّرْ لكثيرٍ مِنْ أبناء جِيله الظُّهُور عليها، حتَّى إذا أنشأَ أحمد فَصْلًا، أوْ جَعَلَ يَتَحَدَّث في جَمْعٍ، رَأَيْتَ أَثَرَ «الكُتُب الصَّفراء» المَجْفُوَّة على لِسانه إذا تَكَلَّمَ، وعلى قَلَمه إذا كَتَبَ.

سأعود، مَرَّةً أُخرى، إلى «السُّخْر»، وأُنَزِّل ذلك على سِيرة أحمد.

وأعودُ فأُذَكِّر، مِنْ جديدٍ، أنْ لا لَوْمَ على أحمد العرفج إنْ هو اصطنعَ «السُّخْر» و«الفُكاهة» آلةً له، وليس لنا أنْ نستكبر فَنَجْفُوَ هذا الضَّرْبَ مِنَ السُّلُوك، ولا ذلك اللَّوْن مِنَ «الأدب»، فإذا عَدَدْناه «فَكِهًا» «ساخِرًا»، فليس يُنْزِل ذلك مِنْ قَدْره وقيمته، ما لمْ يَتَّخِذْهما ذريعةً ينال بهما مِنْ أقدار النَّاس، ووسيلةً للحَطِّ مِنْ هذا أوْ ذاك، لسببٍ يَتَّصِلُ باللَّوْن أو العِرْق أو الدِّين والمذهب

والطَّائفة، على أنَّ أحمد كأنَّما أراد أن يُذْكِرَ النَّاس بالتَّبسُّط والانشراح، وأن يُجَدِّدوا العهد بـ«ثقافة الضَّحِك»، وكان قادرًا، لوْ أراد، أن يُنْشِئَ سِيرةً «باكيةً»، «مُتَحَفِّظةً»، بَطَلُها طِفْلٌ يتيمٌ، ولا جَرَمَ أنَّه سَيَصُدُّنا عمَّا أنشأَه ما سنسفحه مِنْ ألوان البُكَاء والنُّوَاح، كُلَّما اعْتَرَضَتْه عَقَبَةٌ وأَدْرَكَتْه أُخرى، إلى أنْ ظَفَرَ، بِأَخَرَةٍ، بدرجة «الدَّكتوريَّة»، فلمْ يَنَلْها إلَّا على جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ!

كان بِوُسْع أحمد أن يَتَمَثَّلَ أخلاق «الخَوَاصّ»، فلا يَتَبَسَّطُ في حديثه، ولا يُرْسِل نَفْسه على سَجِيَّتها، إلَّا إذا كان في «الحَضْرَة»، فإذا خالَطَ «العَوَامَّ» عادَ فتكَلَّفَ الوَقَار وأَظْهَرَه، وأَبْرَزَ لهم وَجْهًا عابِسًا، وكان رائده قول الأَوَّل[1]:

فِـيَّ انْقِبَـاضٌ وَحِشْـمَةٌ فَـإِذَا
لَاقَيْـتُ أَهْـلَ الوَفَـاءِ وَالكَـرَمِ
أَرْسَـلْتُ نَفْسِـي عَلَى سَـجِيَّتِهَا
وَقُلْـتُ مَـا قُلْـتُ غَيْرَ مُحْتَشِـمِ

(١) - الشِّعْر لِمُحَمَّد بن كُناسة الأسديّ. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتَّبيين**، تحقيق وشَرْح عبد السَّلام محمَّد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجيّ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م)، ٣/ ٣٤٨؛ الأصبهانيّ، أبو الفَرَج. **الأغاني**، تحقيق وإشراف لجنة مِنَ الأدباء (بيروت: دار الثَّقافة، تونس: الدَّار التُّونسيَّة، ١٩٨٣م)، ١٣/ ٣٣٧، ٣٤٢.

فإذا نَزَّلنا كِتابه على شَرْط «أدب السِّيرة الذَّاتيَّة»، عَدَدْنا ما انطوَى عليه أَدْنَى إلى «الاعتراف»! وما ذلك إلَّا لأنَّ «ثقافة» التَّحَفُّظ والانقباض هَوَّنَتْ مِنْ شأْن «ثقافة» الضَّحِك والسُّخْر والفُكاهة، أوْ لَعَلَّ تلك «الثَّقافة» رَأَتْ أنَّه ليس مِنَ «المُرُوءَة» أن تَتَبَسَّطَ في وُجُوه «العَوَامّ»، وتُشِيع فيهم الفُكاهة والضَّحِك، فإذا أرسلَ أحمد - أوْ غيره - نَفْسه على سَجِيَّتها، إذا بنا نَعْتَدُّ ما كَتَبَه، إذا كان أديبًا كاتبًا، داخِلًا في «أدب الاعتراف»! وما باحَ الرَّجُلُ بما يَتَنَزَّه اللِّسان والقلم عنْ ذِكْرِهِ وما اعترفَ، إلَّا في ميزان «ثقافةٍ» جديدةٍ لا تُمِتُّ إلى «ثقافة» العرب بِصِلَة، وكأنَّنا، متى اصطنعْنا تلك «الثَّقافة»، نَحْمِل الأدباءَ والكُتَّابَ على أن يكذبوا، حتَّى يُلائم ما ينشئونه تلك «الثَّقافة» الطَّارئة.

كان أحمد العرفج «صادقًا»، أوْ حَسْبُهُ أنَّه أَوْهَمَني بِصِدْقه، فَرُبَّما أنزلَتْه «النُّكتة» على مُقتضاها، فأذعَنَ لها، وأرخَى لِخَياله المبدِع العِنَان = وكان قريبًا، وكَفَانِي مِنْ قُرْبه أنَّه أَحْسَنَ التَّعبيرَ عنْ جِيلٍ، تَهَيَّبَ أبناؤه كتابةَ «السِّيرة الذَّاتيَّة»، فجاءَ كِتاب **المُهْمَل مِنْ سِيرة طالِبٍ تَنْبَل** لِيُذْكِرَهُم بِحَقِّ التَّاريخ والأدب عليهم. أمَّا أنا فَحَسْبِي أنْ مَدَّ أحمد جِسْرًا ما بين نَفْسِهِ ونَفْسِي، وأنْ أَذْكَرَني يُتْمُهُ يُتْمِي، وتأخُّرُهُ في الدِّراسة تأخُّري، وأنَّه حَقَّقَ عندي ما قاله العَلَّامة إحسان عبَّاس في كاتِب السِّيرة الذَّاتيَّة الَّذي نُحِبُّه:

وكاتِبُ السِّيرة الذَّاتيَّة قريبٌ إلى قلوبنا؛ لأنَّه إنَّما كَتَبَ تلك السِّيرة مِنْ أَجْل أن يُوْجِد رابطةً مَّا بيننا وبينه، وأن يُحَدِّثنا عنْ دخائل نَفْسه وتجارِب حياته، حديثًا يَلْقَى مِنَّا أُذُنًا واعية؛ لأنَّه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالَمٍ نجهله، ويُوْقِفنا مِنْ صاحِبه موقف الأمين على أسراره وخباياه؛ وهذا شيء يبعث فينا الرِّضا، وقدْ يأسرنا فَيُحَوِّل أنظارنا عنْ نَقْد الضَّعيف والواهي في سَرْده، ويَحْمِلنا على أنْ نتجاوز له عن الكذب، ونتقبَّل أخطاءه بِرُوح الصَّديق

دِبلوماسيّ مِنْ طَيْبة.. كَسْرُ الصَّمْتِ بالكلام[١]

كُلَّما مَضَيْتُ في قراءة كِتاب **دِبلوماسيّ مِنْ طَيْبة: مَحطَّات في رحلة العُمْر** لنزار عبيد مدنيّ[٢]، أَلَحَّ عليَّ شُعُورٌ أنَّ نزارًا ما كَتَبَ هذا الكِتاب الَّذي قَصَّ علينا فيه طَرَفًا مِنْ حياته، إلَّا ليكسر أغلالًا أحكمَتْ طوقها عليه رَدَحًا مِنَ الزَّمان طويلًا، وكأنَّما أراد مِنْ وراء هذا الكِتاب أن يَدْفع كَبْتًا تَسَلَّطَ عليه، وأن يَفُكَّ قَيْدًا، وأن يَخْرُج مِنَ العَتْمة إلى الظِّلِّ قليلًا، إنْ لمْ يَسْتَطِعِ الظُّهُور في وَهَج الشَّمس، ولعلَّه خَشِيَ أن يفقد ظِلَّه فلا نَسْمع له رِكْزًا. فالرَّجُل الَّذي يَصِف حياته، منذ الأسطر الأُولى مِنْ كِتابه، بأنَّها «سعيدة»، والرَّجُل الَّذي تَحقَّقَ له مِنْ أسباب العَيْش

---

(١) - **المجلَّة العربيَّة**، شهر ذي الحِجَّة سنة ١٤٣٧هـ = شهر أيلول (سبتمبر) سنة ٢٠١٦م.

(٢) - مدنيّ، نزار عبيد. **دِبلوماسيّ مِنْ طيبة؛ محطَّات في رحلة العُمْر** (الرِّياض: المؤلِّف، مطبعة سفير، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م).

ما لمْ يتحقَّقْ لغيره، فأنَّى جُلْتَ في رحلة نزار، فإنَّك واقفٌ على حياةٍ مَسَّها خَفْضٌ مِنَ العيش، ذُلِّلَتْ له السُّبُل، فَوَطِئَها لَيِّنةً هيِّنةً، وأصابَ مِنْ مراتب النَّجاح ما شاء له الحَظّ، وفُتِحَ في وجهه الجليل مِنَ الوظائف والمَناصب، وَجَعَلَ يَرْقَى فيها صُعُدًا فإذا به، لَمَّا عَزَمَ على الاستعفاء مِنْ عمله، يُصْبح وزير دولة للشُّؤون الخارجيَّة = عساه أدرك، أخيرًا، أنَّه ما كان سعيدًا إنْ طوى الكلمات في صَدْره، وأنَّه ليس له إلَّا أن يبوح بِهِنَّ.

غير أنَّ سِيرة نزار عبيد مدنيّ، مَعَ ذلك، تحاول أنْ تقشع عنْ صاحِبها تلك القُيُود والأغلال. والسِّيرة أيًّا تَكُنْ ترمي إلى تلك الغاية، فالرَّجُل الَّذي بَلَغَ مِنْ وظائف الدَّوْلة أعلاها، تُنْبئ سِيرته عنْ إنسان ما كان له أن يُفْصِح عنْ نَفْسه، لَبِثَ، مُدَّةَ حياته في الوظيفة، لا يبارح الظِّلّ، مُتَوارِيًا، حتَّى لَيَحْسَبُهُ النَّاس صامتًا، وما هو بصامت، ولكنَّه حِين يتكلَّم فَفِي دوائرَ يَلُفُّها الصَّمْتُ ويَحُفُّ بها الرَّمْز، يدبِّج الخُطَب والبيانات فيقرأها غيره، ويعمل في السِّرّ، فَيُكاشِف النَّاسَ سِوَاه، أمَّا نزار فمكتوبٌ عليه أن يُمْسِكَ عن الكلام، وأن يتوارى عن الأنظار، ومهما بَلَغَ مِنَ الوظيفة والمنصب الغايةَ، فلن يَبرح مكانة «المُسَاعِد»، وإنِ استُوزِرَ.

نقرأ في الكِتاب أنَّ نزارًا ظَفِرَ بالإجازة الجامعيَّة في العُلُوم

السِّياسيَّة مِنَ القاهرة، والماجستير والدَّكتوراه في العلاقات الدَّوليَّة مِنْ أمريكة، ونَعْرِف أنَّه لمْ يتحوَّلْ إلى العمل في الجامِعة، لأنَّه آثرَ العمل السِّياسيّ والدِّبلوماسيّ في وزارة الخارجيَّة السُّعُوديَّة، وينبئنا الكِتاب، حِينًا بَعْدَ حِين، بأنَّ للرَّجُل نظراته في السِّياسة، وأنَّ له آراءَه في المجتمع والشَّخصيَّة القوميَّة، وسِوَاها مِنَ الأفكار الَّتي هي أقرب إلى حياة المثقَّفين والمفكِّرين مِنْها إلى حياة السَّاسة ومَنْ في رِكَابهم، ورُبَّما فَهِمْنا مِنْ صفحات سِيرته غرامه بالثَّقافة والمعرفة والكِتاب، لكنَّنا متى طَوَيْنا تلك الصَّفحات لمْ نَظْفَرْ برأْي له في الفِكْر ولا السِّياسة ولا المجتمع، فكان كِتابه هذا الَّذي سَجَّلَ فيه جوانب مختلفات مِنْ حياته، كمن يريد صاحِبُهُ أن يُنْبئَنا أنَّ له رأيًا فيما تضطرب به حياة النَّاس، دُون أن يُعالِنَهُمْ به.

وعندي أنَّ نزار عبيد مدنيّ أرادَ مِنْ وراء كِتابه هذا أن يقول: ها أنذا، ولعلَّه أحسَّ أنَّ لديه قُدرةً على أن يتكلَّم باسْمه، وأن يُشِير إلى نَفْسه، وأن يخرج مِنَ العتمة، ولا يكتفي بالظِّل، وإنَّما يُريد أن ينعم بوهج الشَّمْس كما ينعم الآخرون، وأحْسَبُ أنَّ في الكِتاب ما يُفْصِح عَمَّا أذهب إليه: إنَّ الرَّجُل الَّذي حَمَلَه عمله الدِّبلوماسيّ على الاستخفاء والصَّمْت، كان كَمَنْ أصابتْه «حُبْسَة» فعَسُر عليه الكلام، فانعقد لسانه، وخَشِيَ أنْ

لا يُبين، وعسى أن يكون في الآية القرآنيَّة الكريمة الَّتي افتتح بها كِتابه ما يَجْلو ما أقول: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨].

وأنا لا أَعْرِف لنزار عبيد مدنيّ كِتابًا قَبْل كِتابه هذا، وكُلُّ الكُتُب الَّتي وضعها، ما تزال حبيسة الأدراج، لمْ يَظْهَرْ عليها القُرَّاء، وكان سائغًا أن يقرأه النَّاس، حِين يقرأونه، وليس له مِنْ حديث إلَّا عنْ نَفْسه، حَبَسَ الكلامَ مُدَّةً طويلةً، وحِينَ انحلَّتْ عُقْدة لسانه، إذا به يُخْرِج ما اندسَّ في مكنون ضميره دُفْعَةً واحدةً، فأنشأَ يُدير قلمه في شأن نَفْسه، واستشرفَ معنى أن يكون حُرًّا لا تدفعه دُون إماطة اللِّثام عنْ حياته قُيُود الوظيفة والمنصب.

رُبَّما أرادَ نزار أن يقول كُلَّ شيء، ولكنَّه لمْ يستطعْ أن يقول كُلَّ شيء، وكاتِب السِّيرة، مهما أراد، لن يستطيع أن يُدوِّن في الطِّرْس كُلَّ ما اضطربَتْ به حياته، فللذَّاكرة أحابيلها، وللكتابة شُرُوطها، وهو لا بُدَّ أن يختارَ، وأن يُنَحِّيَ، وأن يُثْبِتَ، وأن يَمْحُوَ، حتَّى يستقيمَ له، بِأَخَرَةٍ، كِتابٌ جديرٌ بأن يقرأه القارئ، ويَجِد في قراءته لذَّةً ومتاعًا. وعلى ذلك سارَ نزار؛ أرادَ أن يَسمع لصوت نَفْسه، وأن يُؤدِّي إلى الآخَرِين ما سَمِعَه، فأدار قلمه في حياته، وإنْ شِئْنا الاحتياط في «مَحطَّات» مِنْ حياته، وانتخب مِنْ بين

«الجُذُور» إلى «الحَصَاد» ما ينحرف بِسِيرته إلى «مَحطَّةٍ» مَّا؛ فاصْطَنَعَ دِبلوماسيّ مِنْ طيبة عنوانًا لكِتابه، حتَّى إذا استوفَيْنا فُصُول الكِتاب، أَلْفَيْناه يُلِمُّ بميلاده، وأُسْرته، ونشأته، وتعليمه، وضَرْبه في الأرض، وترقِّيه في الوظائف والمناصب.

والحقُّ أنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة تُظْهِرُنا على أَخَصِّ ما انطوتْ عليه حياة كاتِبها، أوْ على ما أباحه لنا، مِمَّا كان محجوبًا عنَّا. وانتخابُه هذا الجانب مِنْ حياته أوْ ذاك، فيه تَحَرُّرٌ مِنَ القَيْد، وخُرُوجٌ على الصَّمت، وتخفيفٌ مِنْ تَلَصُّص القارئ وفُضُوله، فالسِّيرة تَعْني للقارئ، مِنْ بَيْن ما تعنيه، إشباعًا لفُضُوله وتَلَصُّصه الطَّبيعيَّيْن، غير أنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة لا تَنْضُو عنْ صاحِبها كُلَّ الأستار، ولا تكشف كُلَّ السُّجُف، ولا تتركه عاريًا مكشوفًا لِكُلِّ الأعيُن؛ فالكتابة تَقْتَضِي كاتِبَها، إنْ أراد أن يكون أديبًا فَنَّانًا، أن يُثْبِت شيئًا ويمحو شيئًا آخَرَ، وبين المَحْو والإثبات، وبين التَّذَكُّر والنِّسيان تستوي السِّيرة الذَّاتيَّة بين يَدَيْ قارئها، وفيها ما يُشْبع فُضُوله، وفيها ما يُرْضِي شوقه وتوقه إلى الفنِّ والجَمال.

وبين المَحْو والإثبات، وبين التَّذَكُّر والنِّسيان صنع نزار عبيد مدنيّ سِيرته، أراد أن يُظْهِر النَّاس عليها، أوْ على مَحطَّات مِنْها، وحِين شَرَعَ يكتب كان كَمَنْ فَتَحَ خزانة حياته، فَحَارَ: ما

الَّذي يأخذ؟ وما الَّذي يَدَع؟ وحِين استقام له ما نَوَى، وَجَدَ نَفْسه، وهو لا يُطِيق أن يتحدَّث فيما شاء، وليس له، ولوْ أراد، أن يكشف المُخَبَّأ؛ فوظيفته السِّياسيَّة الرَّفيعة تَحْمِله على التَّحَفُّظ لا الحُرِّيَّة، إذنْ فَلْيَخْتَرْ طريقًا آخرَ آمَنَ له؛ أن يستجيب لنداء نَفْسه، فيكتب عنْ حياته، وأضعف الإيمان أن يُعَرِّف أبناءه وحَفَدَته تلك الحياة، وأن يَتَّخِذَ هذا الكِتاب «متنفَّسًا للتَّعبير عنْ مواقفي الفكريَّة وآرائي ووجهات نظري تُجَاه بعض القضايا والأحداث والأُمور الَّتي اعترضَتْني مِنْ خلال سِيرة حياتي، سواءٌ ما كان يتعلَّق مِنْها بالجوانب الاجتماعيَّة، أوِ المَشَاهِد الثَّقافيَّة والفِكْريَّة، أوِ الأحداث السِّياسيَّة».

وَأَشَقُّ شيءٍ على مَنْ أمضى عُمْرَهُ صامتًا أن يتكلَّم! فما ظَنُّكَ بِمَنْ كانَتْ حِرْفته السِّياسة والدِّبلوماسيَّة؟ ولَعَلَّ نزارًا أحسَّ ذلك فَجَعَلَ يُذْكر قارئه - ولعلَّه يُذْكِر نَفْسه - أنَّ له أن يتحدَّث في شأْن نَفْسه، وأنَّه لا لوم عليه إنْ فَعَلَ ذلك

ولا إخال أَحَدًا يَضِنُّ عليَّ أوْ يَحْرمني مِنْ هذه الرَّغبة وهذا التَّشَوُّف والتَّطَلُّع، فهو - في يقيني - حقٌّ مشروع، خاصَّةً بَعْدَ السِّنين الطَّويلة الَّتي قضيتُها في الخِدْمة العامَّة

ثُمَّ لا يلبث أن يستأني فَيُذَكِّر قارئَه أنَّ ما سيقرأه إنَّما هو

«مجرَّد ذكريات لِصُوَر مِنْ حياتي، وليس تأريخًا لأحداث سياسيَّة»، ثُمَّ يمضي فيسأل قارئَه العُذْر إنْ هو تَحَدَّثَ في هذا الكِتاب عنْ نَفْسه، فما حِيلته وكِتابُهُ هذا تسجيل لذكريات شخصيَّة «لا بُدَّ أنْ تجعل مِنَ الرَّاوي مِحْوَر ما يرويه».

لمْ يَبُحْ نزار بِسِرٍّ مِنْ أسرار الدَّوْلة، ولمْ يَعْرِضْ لوثائق تتَّصِل بمسارب السِّياسة وأحابيلها، ولكنَّه كان أدْنَى إلى التَّأْريخ لسِجِلِّه الوظيفيّ. والكِتابُ، إنْ شِئْنا العُدُول به إلى التَّأْريخ لدواوين الدَّوْلة، مفيدٌ جِدًّا؛ يُظْهِرُنا على تقاليد وزارة الخارجيَّة السُّعُوديَّة، وأصحاب القرار فيها، ونُلِمُّ بِنُهُوضها وتَرَقِّيها، ونَعْرِف كيف يُصْنَع القرار ويُعَدُّ له. على أنَّ الكِتاب يُطْلِع قارئَه على طَرَف صالح مِنْ تقاليد الأُسرة الَّتي يَعْتَزِي إليها نزار، وهو، لا شَكَّ، مُفِيدٌ لِمَنْ كانَتْ غايته الوقوف على التَّأريخ الاجتماعيّ لتلك الأُسَر.

وفي ظَنِّي أنَّ كِتابَ **دِبلوماسيّ مِنْ طيبة** يُكْمِل طَرَفًا مِمَّا بَدَأَه محمَّد حسين زيدان في **ذكريات العُهُود الثَّلاثة**، وعزيز ضياء في **حياتي مَعَ الجُوع والحُبِّ والحَرْب**. على أنَّنا لنْ نقرأ في ما كَتَبَهُ نزار عبيد مدنيّ كلامًا عن الجُوع ولا الفَقْر ولا الحاجة ولا العَوَز، ولنْ نُشارِفَ في كِتابه حياةَ عامَّةِ النَّاس في المدينة

المنوَّرة. لا يتيح لنا كِتابه شيئًا مِنْ ذلك؛ وقارِئُهُ لن يَقِف على أَزْمة نَزلَتْ، ولن يَمُرَّ بجائحة وَقَعَتْ، لن يَظْفَرَ القارئ بذلك مِنْ قريب ولا مِنْ بعيد، ويصعب عليه أن يَتَّخِذ كِتاب نزار مرجعًا يَدْرُس فيه أحوال الحياة العامَّة، ولكنَّه، حَتْمًا، سَيَظْفَرُ في تلك السِّيرة بجوانبَ مِنْ حياة أبناء الأعيان، وبطرائفَ مِنْ تقاليد الأُسَر ذوات الجاه، وكِبَار المُلَّاك، في ناحيةٍ مَّا، وفي حقبةٍ مَّا، وعسى أن يَلُوح لنا مِنَ الكِتاب ما يَجْلُو صِلات هذه الأُسَر بالسُّلْطة مهما عَلَتْ، وهي صِلات تَغُور في التَّاريخ وتضرب فيه، ونستبين مِنْ كلام نزار أنَّ مِنْ تقاليد أُسْرته استقبالَها في مَنْزِلها مُلُوكَ البلاد حِين يَؤُمُّون المدينة المنوَّرة، ويُفْهَمْ مِنْ كلامه أنَّه ما اختيرَ عضوًا في مجلس الشُّورى إلَّا تكريمًا لأبيه الَّذي كان عضوًا قديمًا فيه، في أثناء نشأته، فساغَ أن يَرِثَ الابْنُ وظيفةَ أبيه.

وسواءٌ أَعَدْنا صَمْت نزار إلى وظيفته السِّياسيَّة الخطيرة، أوْ إلى إيثاره العُزْلة منذ نُعُومة أظفاره، أوْ إلى تقاليد التَّربية والنَّشأة الَّتي دَرَجَتْ عليها أُسْرته = فإنَّ أثر ذلك كُلِّه بادٍ في ما اختطَّه في سِيرته، وإنْ كُنْتُ أَمِيل إلى أنَّ التَّقاليد الَّتي دَرَجَتْ عليها الأُسَر العريضة الجاه، صَنَعَتْهُ على عَيْنِها؛ فالمدينة المنوَّرة لا تَتكَشَّف لنا في عاداتها وتقاليدها، ولا في مَظْهَرٍ مِنْ مظاهرها الاجتماعيَّة إلَّا مِنْ وراء حجاب، ولا تَجْلُو لنا سِيرته

حياة النَّاس، وما نُشِّئوا عليه، إلَّا نَقْلًا عنْ كِتاب تاريخيّ، أوْ سِيرة ذاتيَّة لأديب مِنَ الأدباء، وهو إنْ وَصَفَ شيئًا فإنَّما يَصِف «آنِيَتَه»، وبيتَ أُسْرته الَّذي لا يختلف عنْ بُيُوت مَن يَدْعوهم «أعيان المدينة». ومَعَ أنَّ بيت أُسْرته تَفْصِله خطوات معدودة عنِ المسجد النَّبويّ الشَّريف، فإنَّ حواجزَ حالَتْ دُون نزار والمجتمع، ويكفي أنْ نَعْرِف أنَّه كان «مُحَرَّمًا» على أبناء كِبَار المُلَّاك مخالطة عامَّة النَّاس في الحارَة والزُّقَاق.

كان البيت هو مِحْور حياتي، والحَقْل الَّذي نَمَتْ فيه شخصيَّتي وتَكَوَّنَتْ عناصر خُلُقي وخصائص نَفْسِيَّتي، وعلى الرُّغم مِنْ أنَّ «الحارَة» أو «الزُّقَاق» - كما كُنَّا نُسَمِّيه - كان يلعب دورًا مهمًّا في حياة أقراني وزملائي في المدرسة، فإنَّه لمْ يمارسْ أيَّ تأثير على حياتي، فلقدْ كان مُحَرَّمًا علينا اللَّعِب في «الزُّقَاق»، وبِصِفَةٍ خاصَّةٍ التَّواجُد خارج البيت بَعْدَ غُرُوب الشَّمس مهما كانتِ الظُّروف والأحوال. وأذكر أنَّني في أحد الأيَّام تَجَرَّأْتُ وبقيتُ، خلْسة وفي غفلة مِنَ الرَّقابة المفروضة، عِنْدَ عتبة المدخل الرَّئيسيّ للبيت إلى وقت صلاة العشاء تقريبًا، وحين عاد أبي إلى البيت رآني متلبِّسًا بذلك الجُرْم الَّذي نِلْتُ بسببه ما أستحِقُّه مِنْ عِقاب، بالإضافة إلى اللَّوم والتَّقريع لِمَنْ تَسَبَّبَ في حدوث ذلك الجُرْم

كان المُتَاح لأبناء تلك الأُسَر أن يَلْهُوا وأن يلعبوا داخل حُدُود البيت بسطوحه الواسعة وغُرَفه المُنيفة، وإذا أصابهم المَلَل فَلَهُمْ أن يُصِيبوا شيئًا مِنَ المتعة وأن يُرَوِّحُوا عنْ أَنْفُسِهم بمزرعتهم «أُمّ شَجَرَة».

أَلَمْ أَقُلْ إنَّنا لا نقرأ في الكِتاب حديثًا مِمَّا أَلِفْناه، عادةً، لدى غير كاتب مِنْ كُتَّاب السِّيرة الذَّاتيَّة؛ لا نقرأ خبرًا عنِ الفقر، ولا الجُوع، ولا الحاجة، ولا العَوَز، وإنَّما نقرأ في الكِتاب حياةَ رَخْصةً حُلْوةً، ونَظْهَر فيه على أَمْرِ أُسْرةٍ رَتَعَتْ في خَفْضٍ مِنَ العَيْش، تكاد، لولا أنْ تَغْشَى المسجدَ النَّبويّ الشَّريف، ولولا أن يَقْصِد كِبارُها أعمالَهم في دواوين الدَّوْلة، ولولا أن يَخْتَلِف صِغَارُهم إلى المدارس الحكوميَّة = أن يُضْرَب بينها وبين النَّاس بِحِجَاب صقيل، وليس لأبنائها الَّذين ما خرجوا مِنْ بيتهم ذلك الكبير إلَّا إلى المزرعة، وحَسْبُ = ليس لهم أن يخرجوا على «آدابٍ» نُشِّئُوا عليها، وليس على هذا الطِّفْل أوْ ذاك أن يستجيب لنداء اللَّهْو والعبث الَّذي فُطِرَ عليه، مهما كان بريئًا، إذا ما رأى الكِبارُ فيه خُرُوجًا على «آداب» الأُسْرة و«تقاليدها»، ورُبَّما عَجِبَ القارئ حِين يَعْرِف أنَّ ما هو مُباح لعامَّة النَّاس، إنَّما هو مُحَرَّمٌ مُجَرَّمٌ على أبناء كِبار المُلَّاك، فللطِّفْل أو الفتى أن يَرْكَب «الدَّرَّاجة» في المزرعة، بعيدًا

عنْ أنظار العامَّة وفُضولهم، ولكنْ ليس له أن يمتطيها، كغيره مِنَ الصِّبْيَة والأطفال، ويَجُوب بها الشَّوارع والأزقَّة؛ فذلك «عَيْب» لا يليق بأبناء تلك الأُسَر

كان مُحَرَّمًا علينا امتطاء صهوة الدَّرَّاجة في شوارع المدينة وأزِقَّتها، باعتبار ذلك عملًا لا يليق بأبناء أُسَر الأعيان والوُجَهاء

وفي الحَقِّ إنَّ سِيرة نزار عبيد مدنيّ تُنْبئنا بأنَّ العُزْلة كانتْ قدْ نَسَجَتْ خُيُوطها على حياته، منذ نشأته، ولَعَلَّه أَحَسَّ ما فيها مِنْ فراغ، حِين أنشأَ يكتب سِيرته، وبخاصَّةٍ إبَّانَ النَّشْأة الأُولى، زمن الطُّفُولة والصِّبا، ولعلَّه شَعَرَ أنَّ كاتِب السِّيرة الذَّاتيَّة، أيًّا يَكُنْ، جديرٌ به أن يُثْبِتَ طَرَفًا مِنْ تلك الحياة في كِتابه، فأصابَ شيئًا مِنْ ذلك، فأَطْلَعَ قارئه على حياته داخِلَ حُدُود البيت والمزرعة، أمَّا حياة المدينة المنوَّرة، في الشَّارع والزُّقَاق، فأنَّى له أن يَصِفَها، وهو لا يَعْرِفها، فالْتَمَسَ في سِيَر الآخَرِين ما يَسُدُّ فَقْرَها، واستعان بما كَتَبَه عزيز ضياء وعاصم حمدان في سِيرَتَيْهِما، وكأنَّه اتَّخَذَ عينًا بديلةً يرى بها ما كان مُحَرَّمًا عليه أن يراه، ولَمَّا شَبَّ لمْ يستطعْ أن يكسر الطَّوق، فأحكمَتْ وزارة الخارجيَّة عليه عُزْلته عُقُودًا طويلة مِنَ الزَّمان، حتَّى إذا صَحَّ مِنْه العَزْم على إثبات سِيرته والنَّظَر في شأْن نَفْسه، كان كَمَنْ فَقَدَ القُدْرة على الكلام،

والتبسَتْ عليه السُّبُل؛ ما الَّذي يَخُصُّه وما الَّذي لا يَخُصُّه؟ إنَّه يريد أن يبسط الحديث عنْ نَفْسه، وما إنْ يَشْرَع في ذلك حتَّى يخوض في شأن مِنْ شؤون السِّياسة أوِ الاقتصاد أوِ المجتمع.

وعلى الرُّغْم مِنْ تَحَيُّره بين الصَّمْت والكلام، ورغبته في الإفصاح عنْ نَفْسه، والتَّعبير عنْ آرائه وفِكْره = فإنَّ في الكِتاب صفحاتٍ تَجْلُو لنا طبيعة نزار وسَمْته وما جُبِلَ عليه مِنْ خُلُق وسجايا، نَظْهَر فيها على ألوانٍ مِنَ الفرح والحُزْن. وبينما أَطْنَبَ في بيان «فضائله»، أَطْلَعَ قارِئَه على «عُيُوبه»، فإذا بنا، في الأُولى، إزاءَ إنسانٍ متديِّنٍ، محافِظٍ، مُسَالِمٍ، لا تستهويه الفوضى، ولمْ يَتَعَبَّدْ للمال، وإذا بنا، في الأُخرى، حِيَالَ رَجُلٍ مالَ إلى العُزلة والانطواء، يَنْفُرُ مِنَ المجالس العامَّة وحيث يجتمع النَّاس، أدْنى إلى القلق والهَمّ، لا يُحْسِن أن يقول: لا، لمْ يُشَاجِرْ إنسانًا ولمْ يَشْتمْه، تؤرِّقه الكلمة فيسهر لها ليله مِنْ هَوْل وَقْعها على نَفْسه. غيْر أنَّ تلك الصِّفات كُلَّها لا توازي اعترافه بأنَّه «بطيء التَّسامُح»!

> فإذا غَضِبْتُ أوْ تَكَدَّرْتُ مِنْ إساءة وَجَّهَها لي شخص،
> أظَلُّ أعتصر الألم في نَفْسي مُدَّةً طويلةً لا يزيله سِوى
> موقف نبيل، أوْ لَفْتة كريمة، أوْ عِبَارة مشجِّعة تُثْلِج
> صَدْري أوْ تُطَيِّب خاطري

وأقْربُ الظَّنّ أنَّ أثر تلك «الفضائل» و«المَعَايِب» قدِ انتهى إلى أسلوبه في الكتابة وطريقته في إنشاء السِّيرة الذَّاتيَّة، فالرَّجُل الَّذي أَخَذَ على نَفْسه قراءة جُزْءٍ مِنَ القرآن الكريم كُلَّ ليلة، مهما تَكُنِ الشَّواغل = انتهى شيْء مِنْ ذلك إلى لُغَته، فغلب على أُسلوبه الإسماح والوضوح والبيان والمتانة، إلَّا اليسير مِنَ الهنات، غَيْر أنَّ افتقاره إلى الثِّقة في نَفْسه، هَوَّنَ لديه رُوح الإقدام، فَعَبَّرَ في غير موضع مِنْ سِيرته بلسان غيره، في أُمُور هي مِنْ خاصَّة نَفْسه وضميره، وكما استعار عيون عزيز ضياء وعاصم حمدان، يَصِفُ بهنَّ ما لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ أحوال المدينة المنوَّرة = فإنَّه استعار، غَيْرَ مَرَّةٍ، لسان أحمد أمين في سِيرته **حياتي**؛ لبيان أشياء، هي مِنْ صميم نَفْس نزار وضميره، وهي، كذلك، مِنْ مألوف ترجمة الحياة والحديث عنِ النَّفْس، مِمَّا لا حاجة له إلى أن يستعير لسان أحد.

وأخشى أنْ تكون عُقُود الصَّمْت الَّتي أنفقها نزار عبيد مدنيّ في وزارة الخارجيَّة أبَتْ عليه أن يَفْرَغ لنَفْسه، فإذا آبَ إليها لَمْ يَعْرِفْ ماذا يُثْبِت وماذا يَمْحُو، وكان كُلَّما خلا إلى نَفْسه سَرعان ما يَقْطع عليها نَجْواها، فَيَشْرَع في أحاديثَ طويلة في السِّياسة والاقتصاد يَجْلُو بها نظراته ومواقفه، حتَّى لَيُخَيَّل إلى القارئ أنَّه يقرأ مَرَّةً بحثًا جامعيًّا مشفوعًا بالإحالات والأسانيد، ومَرَّةً

بيانًا مِنْ بيانات وزارة الخارجيَّة في حَدِّيَّته وقَطْعِيَّته، وينْسَى، أوْ يكاد، أنَّه يقرأ كِتابًا، هو في أَخَصِّ خصائصه، مَسُوق لبيان نَفْس كاتِبه وضميره، ورُبَّما شَحَبَتْ تلك الصَّفحات الماتعة الَّتي جلا فيها نزار نَفْسه وطَرَفًا مِنْ حياته وحياة أُسْرته، وألوانًا مِنْ أفراحه وأشجانه، وما كان لها أنْ تَشْحَبَ لو لا أنَّ نزارًا أراد أن يتكلَّم، فَلَمَّا تَكَلَّمَ اجتمعَتْ في فَمِهِ كُلُّ الكلمات، وكأنَّه ما هانَتْ عليه سنوات الصَّمت، فقال لقرَّائه، بأَخَرَةٍ: «هاؤمُ اقرأوا كِتَابِيَهْ»!

بين منزلتين.. السَّرْدُ حِين يَمْكُر[١]

افتتحَ عبد المحسن القحطانيّ سِيرته الذَّاتيَّة بين منزلتين بتمهيد طويل[٢]، انطوى على وَصْفٍ لِمَا سَيَظْهَر عليه القارئُ كُلَّما تَقَدَّمَ في القراءة. والتَّمهيدُ يُمَهِّد به كاتِب السِّيرة الذَّاتيَّة لسِيرته، والمُقَدِّمةُ يضعها بين يَدَيْ ما يُنْشئه = ليسا بالأمر الجديد الطَّريف، وطالما أَلِفْنا ذلك في غير سِيرة ذاتيَّة عربيَّة، ونستطيع أنْ نَرُدَّ الغالب مِنْها إلى السَّبب الَّذي حَمَلَ الكاتبَ على أن ينقطع إلى نَفْسه، حِينًا مِنَ الزَّمان، يتأمَّل ما مضى مِنْ حياته، حتَّى إذا تَمَّ له ذلك شَرَعَ يُدَوِّنها في كِتاب صغير أوْ كبير.

اعتدْنا أن يُوَثِّق كاتب السِّيرة الذَّاتيَّة ما بينه وبين قارئه،

---

(١) - **المجلَّة العربيَّة**، شهر ذي القعدة سنة ١٤٣٧هـ = شهر آب (أغسطس) سنة ٢٠١٦م.

(٢) - القحطانيّ، عبد المحسن فرَّاج. بين منزلتين (جدَّة: مركز عبد المحسن القحطانيّ للدِّراسات الثَّقافيَّة، ١٤٣٥هـ).

ويُقْسِمُ له أنَّ ما سيقرأه تَحَرَّى فيه الصِّدْق، فإذا أراد أن يُفْسِح لِمَخايل السَّرد ومَكايده فُسْحة، فَبِحَسْبِهِ أن يُعَلِّق كلامه على ما ستعيه «الذَّاكرة»، فعساها تستجيب ويَسْلَس له السَّرْد، فإذا ما سيقوله إنْ لمْ يَكُنْ حَقًّا خالصًا فإنَّه يدنو مِنَ الحَقّ، فالقارئ لمْ يَصْرِفْ هَمَّهُ إلى هذه السِّيرة لِيَظْهَر على لَغْوٍ، ساقه صاحِبه لِيُخَيِّل عليه بالأكاذيب والضَّلالات، وإنَّه لمْ يَأْخُذْ نَفْسه بقراءة هذا الأَثَر، لِيَظْفَرَ بالادِّعاء والكذب.

إنَّ الكاتب يُراوغ القارئ ويظنُّ أنَّه بِخَادِعِهِ، وما هو بِخادِعِهِ، وإنَّ الاثنين - الكاتبَ والقارئَ - لَيَسْكُتان عنْ نِيَّتهما، وإنَّهما لَيتواطآن على أن يصمت أحدهما عنْ نِيَّة الآخَر، حتَّى يُصْبِح للسِّيرة الذَّاتيَّة وَجْهٌ لأنْ تُكْتَب، وداعٍ لأنْ تُقْرَأ. على أنَّ ما يَشُدُّ أَحَدَنا إلى النَّظَر في هذه السِّيرة الذَّاتيَّة أوْ تلك، إنَّما هو شُعُورٌ نَفْسِيّ عجيب، قِوَامُه الفُضُول والتَّلَصُّص على حياة هذا الإنسان أوْ ذاك، وإنَّ هذا الشُّعُورَ القارَّ في النُّفُوس، لَيَجِدُ شيئًا مِنْ مُناه، وطَرَفًا مِنْ سَلْوَته، حِين يَظْهَر على كُوَّةٍ يُشْبع فيها فُضُوله كُلَّما تَلَصَّصَ على حياة إنسان، فما ظَنُّكَ بأن يَنْضُوَ كاتبٌ غيرَ قليلٍ مِنَ السِّتْر عنْ نَفْسه، ويهتك ما أُسْدِلَ عليها مِنْ حُجُب، فإذا بصاحِبها عارٍ لا يحجبه عنْ عين قارئه حِجَاب، ولا تَصُدُّه عنه سُتُور!

نقرأ في مُقَدِّمات السِّيَر الذَّاتيَّة ذلك، ونقرأ فيها كلامًا يُهَدِّئ به الكاتب مِنْ رَوْعِهِ، ويُخَفِّف عنْ نَفْسه ما قدْ يُظَنُّ غُرُورًا أوْ تعاليًا أوِ استطالةً على النَّاس؛ فالكتابة عن النَّفْس ثقيلة، محفوفة بالعُجْب والتِّيه، وليس للكاتب إلَّا أن يَرْقُش تلك الأسطر، فعسى أن يَشْكُم خُيَلاءَها وغُرُورها، ورُبَّما سَطَّرَ تلك الكلمات يريد بِهِنَّ إيهام القارئ أنْ سيقرأ سِيرة إنسان «عظيم»، ولكنَّه كسائر النَّاس، يأكل الطَّعام ويمشي في الأسواق، ولَعَلَّه تَعَمَّدَ أن يُهَوِّن مِنْ قَدْره؛ فالنَّاسُ إنَّما يُقْبِلون على «مُذَكِّرات» السَّاسة والقادة وعِلْيَة القوم، ومَنْ أنا في جَنْبِ هؤلاء؟! ويُتْبِعُها قوله: ولكنْ لا حِيلة لي، وقدْ أرادَنِي أصدقائي وأحِبَّائي على أنْ أُدَوِّن سِيرتي، هذه الَّتي تُطَالِعُها أيُّها القارئ العزيز في هذا السِّفْر!

الحقُّ أنَّ مُقَدِّمات السِّيَر الذَّاتيَّة تُفْصِح عنْ غير قليل مِنَ الكَرّ والفَرّ، هي إنْ تأمَّلْناها تسويق وعَرْض لِمَا سيُقْبِل عليه القُرَّاء. وأنا سُقْتُ هذا الكلام لأقِفَ بعض تَوَقُّفٍ عِنْدَ كلمةٍ وَرَدَتْ في مُقَدِّمة عبد المحسن القحطانيّ لسِيرته الذَّاتيَّة بين منزلتين.

جَعَلَ عبد المحسن القحطانيّ عنوان مُقَدِّمته «ومِنْ قَبْل..»،

وإذا ما أردْتُ أنْ أُقَلِّب هذا القول على وُجُوهه الممكنة، فسأقع على مُخَبَّآت له، مِنْها: «مِنْ قَبْلِ أنْ تَشْرَع في القراءة»، وعسى أنْ تُضْمِر قولًا شاع لدى فريق مِنَ الكُتَّاب، يُمَهِّدون به لِمَا يَقْدِم مِنْ فُصُول، أَعْنِي «أَمَّا قَبْلُ»، نَقْضًا للعِبَارة المأثورة «أمَّا بَعْدُ»، ورُبَّما قَرَأْنا فيها قَوْلًا مُضْمَرًا هو أدْنَى إلى السِّيرة الذَّاتيَّة الَّتي يكتبها كاتب مسلم: «لله الحَمْدُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ»؛ ذلك أنَّ الكتابة عنِ النَّفْس في الثَّقافة الإسلاميَّة، إنْ لمْ تَكُنْ لِحَمْد الله والتَّحدُّث بِنعَمِهِ، فهي مَطِيَّة العُجْب والغُرُور والأنا الإبليسيَّة.

وأيًّا كانَتِ النِّيَّة، ولِكُلِّ إنسانٍ ما نَوَى، فإنَّ تقليب هذا القول على وُجُوهه مُمْكِنٌ، ولا يأباه النَّقْد، بَلْهَ النَّظَر المألوف!

سأقِف مِنْ تلك المُقَدِّمة عِنْدَ فِقْرة قَرَأْتُها غير مَرَّة، وأُصْدِقُكم القول: إنَّها لمْ تستحثَّني على الوقوف عِنْدَها، باديَ الرَّأْي؛ لأنَّني لمْ أستوعِبِ المُقَدِّمة حَقَّ الاستيعاب حِين قرأتُها، قَبْلَ أنْ أتوغَّل في السِّيرة نَفْسها، ورُبَّما حالَ دُونَ فَهْمي لها أنَّ الكاتب يتحدَّث حديثًا مختلِفًا؛ لمْ يُقَدِّمْ لسِيرته بكلمات يُؤكِّد فيها «ميثاق القراءة»، بَينه وبين القارئ، ولمْ يَتَذَرَّعْ بألوان مِنَ القول، يَعْرِض فيهنَّ المُسَوِّغ الَّذي حَمَلَه على إنشاء سِيرته،

ولمْ يُهَوِّنْ مِنْ شأنه، كما نقرأ في غير سِيرة، ولدى غير كاتب... = ولكنَّه ظَهَرَ وكأنَّه قارئٌ أوَّلُ لِمَا كَتَبَ، ومَضَى يتحدَّث حديثًا فيه شيء مِنَ التَّأمُّل، وفيه شيء مِنَ التَّأْويل لِمَا سَيَعْرِفه القارئ متى ضَرَبَ في غابة الكِتاب، وإلى ذلك أَرُدُّ قُصُور فَهْمي، قَبْلَ أنْ أَتقدَّم في السِّيرة وأنقطع لها.

نقرأ في المُقَدِّمة كلمات يَصِفُ المؤلِّف فيهنَّ أسلوبه في الكتابة، وأفهم مِنْها أنَّه أَوْغَلَ في الكتابة عن الطُّفُولة واليُتْم، وأنَّه إنَّما كَتَبَها بأسلوب الكاتب لا بأسلوب الطِّفْل، وأنَّ ذلك الأسلوب كان متعمِّقًا في «الرُّؤية»، وفي «الفِكْر»، وفي «اللُّغة الفلسفيَّة». نقرأ ذلك، كما نقرأ كلماتٍ هي أدنَى لِمَا ذَكَرْتُه مِنْ قَبْلُ عنْ كُتَّاب السِّيَر الذَّاتيَّة، فهذه السِّيرة، كما يرجو

تسجيل صادق لصاحِبها؛ سَلْبًا وإيجابًا؛ بَيْدَ أَنَّه حاول أن يتفلَّت مِنْ بعض السَّلبيَّات، ويوغل في الإيجابيَّات، وسَيَجِدُ القارئ فيضًا مِنْ ذلك لا يرفعه إلى الغُلُوّ بقَدْر ما يَضَعه في منطقة تُفْضِي إلى تشخيص الموجَب بأكبرَ مِنْ حَجْمه، كمرآة مكبِّرة تُظْهِر الأشياء بأكبرَ مِنْ حَجْمها الحقيقيّ، وهو تكبير للتَّعَرُّجات والتَّمَوُّجات، وحتَّى الخلخلة في الموجب.

وحَذَفَ بعضًا مِنَ السَّلبيَّات، مَعَ أنَّه كان يرغب أن يَطَّلِع عليها القارئ، بَيْدَ أنَّ خشيته مِنْ سوء التَّفسير دَفَعَتْه

إلى إخفاء بعض ذلك، وليس كُلّه؛ فالحياة البشريَّة تَجْمع بين النَّواقض والثُّنائيَّات. والإفصاح عنْ شيء مِنَ السَّلبيَّة في حياة صاحِب السِّيرة يمنح مُدَوَّنته شيئًا مِنَ الحركة والصِّدْق والاتِّساق، والمسكوت عنْه لا يضيرها بشيء، ولا يُحَمِّل صاحِبها الوِزْر، بلْ يعطيه حَقًّا يمارسه متى أراد، للإفصاح عنْ شيء مِنْها، أوِ السُّكوت إذا ما أراد ذلك، وهو في الأحوال كُلِّها يعتقد أنَّه كان واضحًا وضوحًا يليق بهذه السِّيرة، بلْ يُعْطي القارئ نَفَسًا مِنْ صِدْقه، وحيويَّة مِنْ حديثه

وكلام الكاتب عنْ صِدْق سِيرته، وإعراضه عنْ ذِكْر المَعِيب مِنْها، إنَّما هو «عَقْد» بَيْنه وبين القارئ قَبْلَ أن يَشْرَع في قراءته، وهي كلمات اعتاد جمهرة مِنْ مؤلِّفي السِّيَر الذَّاتيَّة تقديمها بين يَدَيْ ما يكتبون، ونراهم يُقْسِمون أغلظ القَسَم أنَّهم إنَّما يقولون الحَقَّ ولا شيء غير الحَقّ!

وفي المُقَدِّمة فِقْرة انتخبَها المؤلِّف كلمةً للغلاف الأخير، نقرأ فيها ما يلي:

هذه السِّيرة، بِكُلِّ تَمَوُّجاتها وتَعَرُّجاتها وأحداثها، وَجِلَةٌ، مُتَرَقِّبَةٌ؛ خوفًا مِنْ سُوء تفسيرها، أوِ الغُلُوّ في تأويلها؛ حَذِرَةٌ مِنْ كُلِّ هذا. وصاحِبُها لا يُعْفيها مِنْ تَعَقُّبها ومُلاحقتها، وقدْ أصبحَتْ مِلْكًا لقارئها ولمْ

تَعُدْ حِكْرًا له، أوْ عليه، وهو يرجو أن يكون فيها ما يُغْري بقراءتها، أوْ يَحْفِز على تأمُّلها والتَّساؤل حَوْلَها، والقارئ هو عَيْنُ الكاتب، يشاركه، وأحيانًا يتأمَّله، أوْ يتعاطف مَعَهُ

وأقربُ الظَّنِّ أنَّ هذه الفِقْرة ما كانَتْ لِتَسْتَوْقِفَني، ولا تستجلِب نَظَرِي، لوْ لمْ يَنْتَخِبْها المؤلِّفُ كلمةً للغلاف الأخير، ورُبَّما مَرَرْتُ بها مُرُورًا عابرًا. على أنَّني وأنا أُدير عقلي في هذه السِّيرة، وأحاول أنْ أفتح كُوَّة عليها، إذا بي أقرأ كلمة الغلاف، وكأنَّني أقرأها للمَرَّة الأولى، وإذا بي أَقِفُ فيها على ما أَحْسَبُهُ ذريعتي لقراءتها والكتابة عنها.

وعندي أنَّ هذه الفِقْرة لَعَلَّها أنْ تكون هي السَّبب المُضْمَر لكتابة المُقَدِّمة كُلِّها، ورُبَّما كان سائغًا أنْ نَقِف على بعض ما جاء فيها. ومِنْه أنَّ هذه السِّيرة «وَجِلَةٌ»، «مُتَرَقِّبةٌ»، «خَوْفًا مِنْ سُوء تفسيرها»، «أو الغُلُوّ في تأويلها»، «حَذِرَةٌ مِنْ كُلِّ هذا» وأنَّ «صاحِبها لا يُعْفيها مِنْ تَعَقُّبها ومُلاحقتها، وقدْ أصبحَتْ مِلْكًا لقارئها، ولمْ تَعُدْ حِكْرًا له، أوْ عليه».

لِمَ الوَجَل؟ وعلامَ التَّرقُّب؟ ومِمَّ الخوف والحذر؟ وكيف يكون سُوء التَّفسير والغُلُوّ في التَّأويل؟

رُبَّما أَحَسَّ الكاتب عِظَمَ ما قاله، فتذكَّرَ أنَّ سِيرته، منذ

نُشِرَتْ، أصبحَتْ «مِلْكًا لقارئها»، وأنَّ كاتِبها ليس له أن يحتكر حَقَّ قراءتها!

وبين منزلتين، متى تأمَّلْناها، سِيرة «شخصيَّة»، تتَّخِذ الذَّات المفردة موضوعًا لها، ولمْ يَعْدُ بها صاحِبُها تلك الحياة الشَّخصيَّة، في تَرَقِّيها مِنَ الجهل إلى المعرفة، ومِنَ الفَقْر إلى الغِنى، وضَرْبها في الأرض، منذ ولادته في صحراء لا نَعْرِف لها اسْمًا ولا رَسْمًا، حتَّى تَحَوَّلَتِ الأُسْرة عنْ حياة البادية والصَّحراء، واتَّخَذَتْ طَرَفَ مدينة الرِّياض سكنًا لها = فَمَسَّها شيءٌ مِنَ الاختلاف عنْ رُسُوم البَدْوِ، واستبدلَتْ ببيت الشَّعْر بيتًا مِنَ الطِّين واللَّبِن، واختلفَ الطِّفْل اليتيم إلى الكُتَّاب، فالمدرسة، فالمعهد، فالجامِعة، وتَقِفُ السِّيرة في جُزْئها الأوَّل حيث يتأهَّب الشَّابُّ، الَّذي ما انفكَّ يُحِسُّ اليُتْم والفَقْد = للسَّفَر إلى القاهرة، للظَّفَرِ بدرجة الماجستير.

هذه سِيرةٌ كغيرها مِنَ السِّيَر، في حُدُودها ورُسُومها. والنَّاس يَطِيبُ لهم أن يقرأوا السِّيَر الذَّاتيَّة، ويَلْقَوْا فيها لَذَّةً ومَتَاعًا؛ لأنَّها بمنزلة الحياة المقابلة لحياتهم، وإنَّنا لا نطالب كاتِبها بأن يأتي بما لمْ تستطعْه الأوائل، وأقصى ما نَرْجوه أن يكون صادقًا، أوْ أن يوهمنا بالصِّدْق، ولولا هذه الكلمة الَّتي

واطأ على الإقرار بها، ما قَرَأْنا سِيرة ذاتيَّة، تَحْمِل هذا الاسْم وما يَدْنُو مِنه، ولَأَعْرَضْنا عنها، فما لنا وما للكذِب!

ونحن لا نقرأ في بين منزلتين كلامًا يُخْشَى تفسيره، أوْ يُخاف تأويله؛ لمْ نقرأْ فيها خوضًا في السِّياسة، ولمْ تَحْمِل على أَحَدٍ مِنَ الأقارب أوِ الأباعد، وأنتَ في طُول هذه السِّيرة لا تكاد تَقِفُ على اسْمِ عَلَمٍ؛ فهي سِيرةٌ مُحَجَّبةٌ مَخْفِيَّة، ضَنَّ علينا كاتِبُها باسْم صحرائه الَّتي وُلِدَ فيها، ولمْ نَعْرِفْ اسْم أبيه إلَّا مرقوشًا على غلاف الكِتاب، ولا أسماء أُمِّه وإخوته وزوجته إلَّا في صفحة الإهداء، وأَضْمَرَ أسماء أساتذته، وزملائه، وأصدقائه، والجار ذي القُرْبَى، والجار الجُنُب، ثُمَّ إنَّه حَذَفَ مِنْ سِيرته ما لوْ باحَ به لَسَاءَ تفسيره، فاستوَتِ السِّيرة، إذْ نَشَرَها، وهو راضٍ عنها.

فَمِمَّ الوَجَل والتَّرقُّب والخوف والحذر مِنْ سُوء التَّفسير أوِ الغُلُوّ في التَّأْويل؟

ولِمَ يطلب مِنْ قارئه أن يترفَّق بِسِيرته؟

وما العِيَار الَّذي نَقيس به «سُوء التَّفسير» و«الغُلُوّ في التَّأْويل»؟

إنَّ القارئ لو انساقَ خَلْفَ كلام صاحِب السِّيرة ما استطاع

أن يَفُوه بكلمة واحدة عنها، ولا أن يَرْقُش سطرًا في طِرْس، حتَّى لا يقع في مَظِنَّة سُوء التَّفسير أوِ الغُلُوّ في التَّأويل، ورُبَّما حالَ الحذر والخوف والوجل والتَّرقُّب دُونَ امتلاك القارئ حَقَّ أن يُفَسِّر أوْ يؤوِّل. وهلْ بالاستطاعة أن يُحْجِمَ الإنسان، أيًّا يَكُنْ، عنْ تفسير ما يسمع أوْ يقرأ، أوْ تأويله؟

إنَّ عبد المحسن القحطانيّ أَخَذَ بالشِّمال ما أعطى قارِئَه باليمين. قال: إنَّ السِّيرة أصبحَتْ مِلْك قارئها لا كاتِبها، ونراه يرجو ويأمل أن يُلْفِي القارئُ فيها ما يُغْرِيه بقراءتها، ويَحْفِزه على تأمُّلها، والتَّساؤل حولها. هذا كلامه في المُقَدِّمة، فكيف تكون القراءة؟ وكيف يكون التَّأمُّل؟ وكيف يكون التَّساؤل؟ والكاتِبُ وجِلٌ حَذِرٌ مترقِّبٌ خائفٌ مِنْ سُوء التَّفسير والغُلُوّ في التَّأويل؟

الحَقُّ أنَّ المُقَدِّمة تسأل القارئ أن يقرأ بين منزلتين بِعَيْن المُحِبّ، ولها أنْ تطلب ذلك، فالكِتاب - مهما يَكُنْ - لا نستطيع أنْ نقرأه، قراءة مَدْحٍ أوْ قراءة ذَمٍّ، ما لمْ نُحِبَّه، لكنَّ عبد المحسن القحطانيّ يستدرج قارئَه إلى حيث يشاء هو لا حيث تشاء سِيرته، إنَّه يُزَيِّن لقارئه قراءته، ويضع له العلامات والصُّوَى الَّتي تُرْشِده إلى حيث يريد الكاتب، وها هو ذا يتقرَّب إلى قارئه بهذه الكلمات القِصَار:

وهو يرجو أن يكون فيها ما يُغْري بقراءتها، أَوْ يَحْفِز
على تأمُّلها والتَّساؤل حولها. والقارئ هو عَيْنُ
الكاتب، يشاركه، وأحيانًا يتأمَّله، أَوْ يتعاطف مَعَهُ

إذنْ، اخْتُصِرَتْ مُهِمَّة القارئ في المشاركة والتَّأمُّل والتَّعاطُف. وأنا أعْرِفُ التَّأمُّل، وأفْهَمُ التَّعاطُف، ولكنَّني لا أفْهم المشاركة. فما المشاركة هُنا؟ ولِمَ لَمْ يُتْبِعِ الكاتبُ مُهِمَّةً أُخرى أصيلةً للقارئ، غير المشاركة والتَّأمُّل والتَّعاطُف؟ لِمَ لمْ يَمْنَحْ قارئَه حَقَّ النَّقْد والنَّقْض؟

إنَّني أَمِيل إلى أنَّ ما يُلْفيه القارئ في سِيرة عبد المحسن القحطانيّ مِنْ تَرَجُّحه بَيْنَ منزلتين = حَمَلَه على أن يُسَطِّر هذه المُقَدِّمة، فالكاتبُ له مذهبه في الحياة، والنَّاسُ، ومِنْهم إخوته وعشيرته، لهم مذاهب مختلفات، وبَطَلُ السِّيرة - صَبِيًّا وفَتًى وشابًّا وكَهْلًا وشَيْخًا - آثَرَ في حياته التَّوسُّط بين المختلفات، لمْ يَكُنْ لِيَتَطَرَّف إلى اليمين ولا إلى اليسار. كان في منزلة بين المنزلتين طُول سِيرته الَّتي نَشَرَ مِنْها حتَّى الآن جُزْءًا واحدًا، وكان في منزلة بين المنزلتين حِين اتَّخَذَ هذه العِبَارة عنوانًا لكِتابه. والحقُّ أنَّ هذا العنوان المُوَارِب، وهذه الطَّبيعة النَّفْسِيَّة والفِكْريَّة = اضطرَّا القارئ إلى البحث عمَّا يُشْبهها أنَّى ضَرَبَ في أثناء الكِتاب، ونستطيع أنْ نَسُوق شواهدَ على هذه

الوَسَطِيَّة الَّتي ارتضاها عبد المحسن القحطانيّ علامةً على سِيرته؛ نستطيع أنْ نُمْسِك بها في غير موضع وفي غير صفحة، تحتجب حِينًا، وتَلُوح حِينًا آخَرَ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ القارئ إذْ يبحث عمَّا يوافق تلك «البَيْنِيَّة» = كان الكاتب قدْ سَبقَهُ إليها، فلمْ يستطِعْ مِنْها فكاكًا، حتَّى إذا أشرفَتِ السِّيرة على منتهاها، جَعَلَ الكاتبُ يَجْلُو مقصده مِنْ هذه «البينيَّة»، وكأنَّه يدافع عنْ نَفْسه، حِين ظَنَّ إخوته وزملاؤه وأصدقاؤه أنَّ صاحِبَهم حَذِرٌ في حياته، يخشى المُكَاشَفة، ويُعْرِض عن المصارحة.

وما أقوله، هُنا، ليس «سُوءَ تفسير»، ولا «غُلُوًّا في التَّأويل»، إنَّما هو ما سَطَّرَتْه هذه السِّيرة في غير صفحة مِنْ صفحاتها، حتَّى استوى لنا مِنْ ذلك مذهبان في النَّظَر إلى تلك «البينيَّة»، أوْ بين المنزلتين كما يُحِبُّ الكاتب ويهوَى؛ مذهبه حِين رَجَعَ إلى حياته فتأمَّلَها، ومذهب المخالطين له في صاحِبهم.

أمَّا إخوته وزملاؤه وأصدقاؤه، فعند نَفَرٍ مِنْهم أنَّ هذه «البينيَّة»، أو المنزلة بين المنزلتين، إنَّما هي في خير أحوالها ضَرْبٌ مِنَ «الحِيَاد»، أمَّا بعضُهم فلا يراه إلَّا «خانعًا»، «خائفًا» لا يَجْسُر على الجهر بِفِكْرٍ جَرِيء ولا كلمة حَقّ.

أمَّا الكاتب فلاحَتْ له حياته الماضية، فتًى وشابًّا وكَهْلًا،

فكانَتْ أدْنَى إلى التَّوسُّط، وعسى أن نَرُدَّ شيئًا مِنْها إلى أنَّ البطل غادر صحراءه صغيرًا، وأَوَى هو وأهله إلى طَرَفِ مدينة الرِّياض، فلمْ تستطعِ الصَّحراء ولا حياة البَدْو أنْ تصنعا الطِّفْل الصَّغير على عينيهما، وإنَّما الَّذي صنعه وأعاد سَبْكه وتكوينه ليس سِوى المدينة، وإنْ سَكَنَ أطرافَها، فكانتْ «حارَة مسعود» - وهو جَدٌّ أعلى لصاحِب السِّيرة - منزلةً بين المنزلتين، تنتمي إلى طَرَفَيِ المدينة والصَّحراء مَعًا.

وفي تلك الحارَة وَقَفَ الفتَى على ضُرُوبٍ مختلفاتٍ في الاجتماع والسَّكَن واللَّهجة، وأُولى دلائل الاختلاف عنِ البادية - أنَّ «حارَة مسعود» لمْ تَخْلُصْ لِجَمَاعته مِنَ البَدْو، وإنَّما نَزَلَتْ على شَرْط المدينة، تلك الَّتي استقرَّ فيها البدويُّ والقرويُّ والحضريُّ، ولا تُكاشِفُنا هذه السِّيرة بشيء ذي بال عنْ حياة الكاتب في البادية؛ فَكُلُّ الَّذي نَعْرِفه أنَّه وُلِدَ في بيت شَعْر، في ناحية مبهمة مِنَ الصَّحراء، ثُمَّ لا يلبث الأبُ، حِين اخترمَ الموتُ زوجته الشَّابَّة، أنْ تَحَوَّلَ عنِ الصَّحراء وحياة البَدْو إلى المدينة، بَعْدَ أنْ ضاقَتْ به الحياة، وبَعْدَ أنْ قَسَتِ الصَّحراء على الشَّيخ وعلى أبنائه، ولا سِيَّما ابنه الرَّضيع. فحياة الكاتب، كما تنبئنا السِّيرة، حضريَّة مَدَنِيَّة، ليس للبداوة أَثَرٌ فيها إلَّا انتسابه إلى أُسْرة بدويَّة، وإلَّا ذلك اللِّسان البدويّ،

وإلَّا استمساك الكاتب بتلك البداوة في غير موضع مِنْ سِيرته

> ظَلَّ يُصِرُّ على لهجته وطَبْعه، بِسَجِيَّته؛ لأَنَّهما يعطيانه تميُّزًا لن يكون إذا ما انصهر مَعَ غيره انصهارًا يُذِيب خُصُوصيَّته وسِحْنته ولهجته، وبينه وبين زملائه ومعارفه هذا الاختلاف، وهو يؤكِّد عليه؛ لأَنَّه اختلاف يُكَمِّل ويُتَمِّم، ولا يهدم أو يُنْقِص

وعسانا نَرْقَى بهذه «البينيَّة» ونَجُوز بها عالَم الفتَى، ذلك أَنَّ الأَبَ الشَّيخَ استجمع أُصُول تلك «البينيَّة»، فهو بدويٌّ خالَطَ الحَضَر والقرويِّين، وكان أدنَى إلى الحضارة مِنْه إلى البداوة، وتَحَدَّرَ أَثَرُ الأبِ إلى طَبْع ابنه الفتَى، وألفَى في الحارَة اختلافًا، انحرف به عنْ رأي القبيلة وأعرافها

> ظَلَّ الحيّ يُمَثِّل له الاختلاف في الثَّقافة الحياتيَّة؛ فهو - كما سَبَق - خليط مِنَ القرويِّين وقبائل البَدْو المتعدِّدة، وهُمْ جميعًا يجتمعون في بوتقة حَيِّهم الشَّبيه بالقرية، ومَعَ ذلك تظلُّ الاختلافات بين عاداتهم ولهجاتهم واضحة يستقي مِنْها الطِّفْل، بالرُّغْم مِنْ أَنَّهم حاولوا أن يمزجوا بين ذلك الاختلاف والتَّعدُّد، إلَّا أنَّ الخُصُوصيَّة لِكُلِّ فئة ظَلَّتْ - إلى حَدٍّ مَّا - شاخصة، ولكنَّهم في العُمُوم منسجِمون في علاقاتهم وتصرُّفاتهم، وهذا أضفى على الطِّفْل شيئًا مِنْ تَقَبُّل الآخَر وتَعَدُّد الرَّأْي، فلمْ يَكُنْ يتمسَّك برأي

> القبيلة، ولا يسعى إلى تأييد فكرة القرويّ، وظَلَّ يَنْظُر إلى الأشياء دُون تعصُّب، وهذا ما زرع في نَفْسه تلك النَّظرة الَّتي لازمتْه في مستقبَل حياته، فكان يُمَثِّل قاسمًا مشتركًا بين القرويّ والبدويّ

ورُبَّما جازَ لي أنْ أَشْغَب قليلًا، والنَّقْدُ ضَرْبٌ مِنَ المُشَاغَبة، فأزعُم أنَّ الكِتاب يُفْصِح عنْ شيْء ويُبْطِن شيئًا آخَرَ؛ فالسِّيرة، على تَوَخِّي صاحِبها أنْ تكون منزلة بين منزلتين، وعلى ضَرْبها الشَّاهد والمَثَل = لا تلبث أنْ تكشف فَلَتَاتُ اللُّغة عنْ موقف لا يَخْفَى، حِينًا، حتَّى يستبين، فالكِتاب يُمَيِّز، في غير مُهَادَنة، بين البَدْو والقرويِّين والحضريِّين، نَعَمْ، إنَّه يُقَدِّم بين يدَيْ قارئه ما يجعله قاسِمًا مشترَكًا بين القرويّ والبدويّ، ونَعَمْ نقرأ فيه أنَّ الفتى - والكاتب - ينبذان التَّعصُّب = لكنَّنا نقرأ في الكِتاب كلماتٍ يبوح بِهِنَّ، آنًا بَعْدَ آن، نَظْهَرُ فيهنَّ على حُدُود تَفْصِل بين البدويّ والقرويّ، وإنَّ الكاتب يفتتح سِيرته بصفحات يرسم فيهنَّ حُدُود باديته تلك الَّتي لا نَعْرِف لها اسْمًا، وأنَّ قاطني تلك النَّاحية بَدْوٌ رُحَّلٌ يَتَتَبَّعون الماء والكلأ، وأنَّ الَّذي يجمعهم بئر الماء، لا حائط النَّخيل، وأنَّ باديتهم لا يَحُدُّها حَدٌّ مِنْ «هِجْرة»، وكأنَّهم ما يزالون على فِطْرتهم وطبيعتهم، وحِين قُدِّرَ لأُسْرته أنْ تَتَّخِذ الرِّياض مستقرًّا لها، اعْتَصَمَ الفتى

وأبناء أُسْرته باللِّسان، فهو، وإنْ ساكَنَ الحضر والقرويِّين «حارَة مسعود»، = يتميَّز مِنْهم ببداوته الَّتي لمْ يَبْقَ مِنْها إلَّا اللِّسان واللَّهجة، وعسى أنْ نقرأ في استمساكه بالبداوة، وهو لمْ يَعِشْ عِيشة البدْو إلَّا قَدْر حَسْو الطَّائر = سببًا كامنًا وراء تسطيره فُصُول سِيرته، فهو ساكِنٌ، أبدًا، بين بيئتيْن مختلفتيْن، فكان في الرِّياض «بدويًّا»، وفي الحِجَاز «نَجْدِيًّا»، وكانتِ البداوة هناك، والنَّجْدِيَّة هُنا، «هُوِيَّةً» حادَّةً يلوذ بها، فتَهَبُ حياته معنًى، وتُخْرِجه مِنْ «مُيُوعة» الأطراف والأعراف الَّتي لازمتْه مُدَّةَ حياته.

وعندي أنَّ هذه السِّيرة رَجَتْ مِنْ تَرَجُّحِ صاحِبها بين منزلتين = اتِّقاء تهمة «الحِياد» و«الخُنُوع» و«الخوف»، وانقلاب كُلِّ أولئك إلى فضيلة كادتْ تَمَّحِي لولا استبساله في التَّمسُّك بها وانتحالها، منذ نعومة أظفاره، وأراد الكاتب أن يُذْكِر قارئَه بها؛ مَرَّةً حِينَ اتَّخَذَها عنوانًا لسِيرته، ومِرارًا حِين يرجع، عَوْدَهُ على بَدْئِهِ، فيُسْهِب في وَصْف «فضائل» تلك «البينيَّة» الَّتي صارتْ قَدَرًا لا يقوى على تغييره، وجَعَلَ يُبَوِّئ فَتَاهُ منزلة «الحكيم» و«المتفلسف»، لا يُعْييه موقف مهما كان صَعْبًا، ولا تَقْعُدُ به بداوته ورِقَّة حاله عنِ انتخاب خير الأُمُور وأوسطها، فإذا به وكأنَّه «العارِف، المتوسِّط، المعتدِل»، وجَعَلَ، قُبَيْلَ اختتام

سِيرته، يُنْشِئ كلامًا يُضمِر في أطوائه ما يُشبه «المُرافَعة»، يَصْدَع بها في وُجُوه أولئك الَّذين اتَّهموه بالحَيْدة والخَوْف والخُنُوع، وعسى أن يكون في تكرارها غير مَرَّة سبيلٌ إلى تخفيف وطأتها على نَفْسه، فكانتِ السِّيرة، وكان عنوانها، وكأنَّهما تحويل للذَّمِّ إلى ما يُشْبِهُ الحَمْد والمَدْح، وليس ببعيدٍ أنَّه اصطنعَ هذه «البينيَّة» ذريعة للسَّرْد والحكاية والتَّأمُّل، فهو في عَيْن نَفْسه

> يَنْظُر إلى الأشياء بِتَعمُّق وتَعقُّل، لمْ يَكُنْ خياليًّا، ولا شاطحًا، لكنَّه يتلمَّس تَصوُّرًا مَّا، يمكن أن يتحقَّق، ويؤمن بأنَّ الحياة تحتاج إلى مِلْح الخَيَال وشطحات الفِكْر، وتهيُّؤات المستقبل، فترك أبوابه مفتوحة، وشبابيكه مستقبلة، ويَحْسَبُ أنَّه كان مستودع الرَّأْي الحصيف، والفكرة الجميلة، والشارد الباحث عن الأمان، وجوهر الحقيقة، وهو بهذا كُلِّه سعيد، وبه حَفِيّ، وله مُسْتقْبِل، ورأى أنَّ الاختلاف يُعَمِّق الصِّدْق، وأَرْيَحِيَّة القَبُول، ومنطق الحياة، وأنَّ الخلاف مبدأ لإلغاء الغير، وإقصاء الآخَر، والتَّفَلُّت مِنْ أيِّ رَأْي يناقض رأْيه، أوْ سيرورته

ولسْتُ أراني غاليًا في التَّفسير أو التَّأويل إذا عَدَدْتُ هذه الفِقْرة الطَّويلة «مُرافَعة» متأخِّرة عنْ «تُهَمٍ» مُتَقَدِّمة، فإزاءَ كُلِّ

كلمة سِيقَتْ في الثَّناء ما ينقضها، فالكاتب يَدْفع عنْ نَفْسه موقفًا هو أعْرَفُ به وبِتَبِعاته. وما لي أبعد بعيدًا، وأفترض وأُخَمِّن، والكاتبُ نَفْسه، يُتْبِع كلامه السَّابق هذا القول:

> وهكذا مَرَّتْ به الحياة، والآخَرون يَنْظرون إليه بمنظر المتذبذب؛ لأنَّهم لا يَعْلمون سِرَّ هذه المساحة الضَّيِّقة الَّتي تلتقي فيها الاختلافات، وتَزْهد بها الضِّدِّيَّات، فكان مَنْطقه مكانًا يَجْمَع ولا يُفَرِّق، ويَتَسَيَّد ولا يتشرذم، وهي مَحَطَّة قَلَّ مِنَ المتناقضين مَن يراها بِعَيْنٍ وحياديَّة، كَعَيْنِهِ وحياديَّته

الآنَ استبانَ حَذَرُ الكاتب وخَوْفُه وخَشْيَتُه وتَرَقُّبُه مِنْ «سُوء التَّفسير» و«الغُلُوّ في التَّأْويل»! وعسى أنْ أَرْقَى بها إلى حَدَثٍ غائرٍ في وجدانه: بين ما يراه هو، وما يراه الآخَرون، بين تفسيره وتأويله، وتفسير الآخرين وتأويلهم، بين ما يراه «حِكمةً» و«اعتدالًا»، وما يراه إخوته وأصفياؤه «تَذَبْذُبًا»، و«خَوْفًا»، وخُنُوعًا»، بلْ وما اضطُرَّتْه إليه هذه «البينيَّة» مِنْ حَجْبٍ للأسماء، وطَمْسٍ للأمكنة!

السِّيرة الذَّاتيَّة

إرادة الكاتب وشَرْط الكتابة(١)

لِنَعْتَرِفْ بأنَّنا ما إنْ نبدأ التَّفكير، فلن يضمن أحدٌ أين سينتهي بنا الأمر. والأمر الوحيد المضمون هو أنَّ أهدافًا وغاياتٍ ونُظُمًا كثيرة يكون مآلُها عندئذٍ إلى الانهيار

جون ديوي

- ١ -

«وقدْ يكون الدَّافع الأوَّل لكتابة هذه السِّيرة أنِّي أُحِسُّ، إلى حَدٍّ كبير، أنِّي منعزل عن المجتمع الَّذي أعيش فيه، لا أنساق مَعَهُ في عقائده وعواطفه ورُؤياه. وعِنْدئذٍ تكون هذه التَّرجمة

(١) - صحيفة الرِّياض، ١٩ مِنْ شهر جمادى الآخِرة سنة ١٤٣٣هـ = ١٠ مِنْ شهر أيار (مايو) سنة ٢٠١٢م، ٣ مِنْ شهر رجب سنة ١٤٣٣هـ = ٢٤ مِنْ شهر أيار (مايو) سنة ٢٠١٢م.

التَّبرير لموقفي مَعَ هذا المجتمع، وهو موقف الاحتجاج والمعارضة. فأنا أكتب كيْ أُسَوِّي حِسَابي مَعَ التَّاريخ».

ما مضَى فِقْرة مشهورة يَعْرِفها دارسو السِّيرة الذَّاتيَّة في الأدب العربيّ الحديث، يسوقونها سببًا أوْ داعيًا لِيَكْتُبَ امرؤٌ مَّا قصَّة حياته، وفيها يَذْكر صاحِبُها سلامة موسَى سبب تأليفه سِيرته تربيَة سلامة موسَى، وهي، بلا شكّ، تَصْدُق على حياة رَجُل لمْ يَصْطلِحْ مَعَ عصْره، ولا مَعَ العُصُور الَّتي تَلَتْهُ، وليس لذلك مِنْ سببٍ إلَّا أنَّه صَدَعَ بما لمْ يألفه عَصْريُّوه. انتحَلَ «الفابِيَّة» عقيدةً، وتَحَمَّس للاشتراكيَّة، وأنشأَ حِزْبًا ينادي بأفكاره، ولمْ يُحِسَّ في نَفْسه مَيْلًا، وهو القِبْطِيّ، إلى ما تَنادَى إليه جمهرة مِنَ الـمُصْلحين مِنْ دُعاة «الجامِعة الإسلاميَّة»، وجَعَلَ ينادي في الأجيال الجديدة بثقافة الغرب في العِلْم والفِكْر والأدب، فَتَظَاهَرَ عليه التَّقليديُّون ونالوا مِنْه، وأضحَتْ صورته في مُخَيِّلة كثيرين مِنَّا شاحبة: فهو الكارِه لِتُراث العرب وثقافتهم، وهو الَّذي يُناصِب دِينهم العداء، وهو الَّذي عَمِل على إفساد جماعة مِنَ الأدباء الشُّبَّان، بِمَجَلَّته **الـمجلَّة الـجديدة**، إلى آخِر تلك الدَّعاوَى الَّتي يَصْعُب على امْرِئٍ اتِّقاؤها والنَّجاة مِنْها.

«فأنا أكتُب كَيْ أُسَوِّي حِسَابِي مَعَ التَّاريخ»!

وُلِدَتْ مِنْ هذه العِبَارة سِيرةٌ، قِوامُ صفحاتها ثمان وأربعون وثلاثمئة صفحة، فـ **تربية سلامة موسَى**، على هذا، ليستْ مباراةً مَعَ الزَّمن، وليستْ حنينًا جارفًا إلى الشَّباب والصِّبَا. إنَّها «تَسْويغ» لمعنَى الحياة، ذلك التَّسويغ الَّذي يَدْعُوه نُقَّاد السِّيرة الذَّاتيَّة «تَبْرِيرًا» للكتابة عن النَّفْس، مِنْ بين طائفة مِنَ الدَّواعي استمسكَ بها كُتَّاب السِّيرة، وأعلنها بعضهم صراحة، فَعَسَى أن يَرْضَى القارئ ويغفر لهذا الكاتب أوْ ذاك حديثه عنْ نَفْسه، قليلًا أوْ كثيرًا.

تَذَكَّرْتُ كلمات سلامة موسَى وأنا أقرأ طَرَفًا مِنْ كِتاب **مَسيرتي مَعَ الحياة** لـمُحمَّد بن أحمد الرَّشيد (١٣٦٣ - ١٤٣٥هـ = ١٩٤٤ - ٢٠١٣م)[١]، وزير التَّربية والتَّعليم في المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة ما بين سنتَـيْ ١٤١٦ - ١٤٢٥هـ = ١٩٩٥ - ٢٠٠٥م. وقَبْلَها كُنْتُ أُقَلِّب صفحات الكِتاب، ثُمَّ أدفعه عنْ نَفْسِي دَفْعًا، وذلك أنَّ لصاحِبه غايةً، ولي غاية أُخرَى، فصاحِبُه رَسَمَ لِنَفْسه منهجًا يُذَكِّر النَّاس فيه بتاريخه الوظيفيّ، في مكتب التَّربية لِدُوَل الخليج العربيَّة، وفي وزارة التَّربية والتَّعليم، وفي هذه الأخيرة بالأخصّ = وأنا لي غاية

(١) - الرَّشيد، محمَّد بن أحمد. **مسيرتي مع الحياة** (الرِّياض: رحلة حياة، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م).

أُخْرَى؛ أنْ أقرأ «سِيرة ذاتيَّة» على مألوف هذا الفنّ وما اصطلح عليه أعلامه. وليس لي أنْ أَحْمِلَ الكاتب على إرادتي، وليس له أن يَحْمِلَني على إرادته. أراد هو التَّوثيق، وأردْتُ أنا الفنّ، وشَتَّان بين تَيْنِكَ الإرادتين، ولِكُلٍّ طَلِبَتُهُ، ولِكُلٍّ هواه، ولِكُلٍّ غاية هو مُوَلِّيها.

استوقَفَنِي عنوان الكِتاب **مَسيرتي مَعَ الحياة**، فهو «مَسِيرة» لا «سِيرة»، وقَصَدْتُ المعجم أستفتيه فَرْق ما بين هاتين الكلمتين اللَّتين تَرْقيان إلى جِذْر واحد: «سَيَرَ». وفي اللُّغة: «سارَ سَيْرًا، وسِيرَةً، وتَسْيارًا، ومَسَارًا، ومَسِيرَةً: مَشَى». ثُمَّ نَجِدُ كلمة «سِيرة» اتُّخِذَتْ مُصْطلحًا، فهي «السُّنَّة. والطَّريقة. والحالة الَّتي يكون عليها الإنسان وغيره»، وارتقَتْ فأصبحَتْ عَلَمًا على أسلوب في التَّاريخ والكِتابة. ومِنْها «السِّيرة النَّبويَّة وكُتُبُ السِّيَر: مأخوذة مِنَ السِّيرَة بمعنَى الطَّريقة، وأُدْخِلَ فيها الغزوات وغير ذلك. ويُقَال: قَرَأْتُ سِيرَة فلانٍ: تاريخ حياته. (ج) سِيَرٌ»(١).

هذا معنى كلمة «سِيرَة»، أَمَّا أُخْتُها «مَسِيرة»، فهي شريكتُها

---

(١) - **المعجم الوسيط** (القاهرة: مَجْمَع اللُّغة العربيَّة، إسطنبول: المكتبة الإسلاميَّة، د.ت)، ١/ ٤٦٧.

في المصدريَّة، غير أنَّ لها، بَعْدَ ذلك، استعمالاتٍ أُخْرَى، مِنْها: المسافة، ومِنْ ذلك قول النَّبيّ ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْر»، أي: «المسافة الَّتي يُسَار فيها مِنَ الأرض، كالمنزلة، والـمَتْهَمة، وهو مصدر بمعنَى السَّيْر، كالمعيشة، والـمَعْجِزَة، مِنَ العَيْش والعَجْز»(١). وفي العربيَّة الحديثة: «مَسِيرَةٌ ج مَسِيرَاتٌ: مجموعة مِنَ النَّاس يَسيرون في الشَّوارع للتَّعبير عنْ مَطَالِبَ أوْ مشاعرَ مُعَيَّنة (وتُسَمَّى كذلك مُظاهَرة)»(٢).

والَّذي أَمِيل إليه أنَّ ثَمَّ فَرْقًا لطيفًا بين «السِّيرة» و«الـمَسِيرة»، في خُلُوص الأُولَى للسُّنَّة والطَّريقة وما عليه الحياة الخاصَّة لإنسانٍ مَّا، حتَّى لَيَصْلُح أنْ تُتَّخَذَ سِيرَةً يُسَارُ عليها، أَمَّا «الـمَسِيرَة» فَعَلِقَ بها شيْء مِنَ الزَّمن، كما في الـمَسِيرة مِقْدَارًا للمسافة؛ وللعامِّ؛ كما في الـمَسِيرة نريد بها التَّعبير الجَمَاعيّ عنْ رأي سياسيّ أو اجتماعيّ، يَقْطع به أصحابه مَسِيرةً بعينها، فلكأنَّها ما انفكَّتْ مرتبطة بالمسافة والمكان، وإنْ عَنَتْ مَنْ حَلَّ فيه؛ والموضوعيّ إزاءَ الذَّاتيّ.

---

(١) - ابن الأثير، مَجْد الدِّين أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد الـجَزَرِيّ. **النِّهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق طاهر أحمد الزَّاويّ ومحمود محمَّد الطَّناحيّ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربيَّة، د.ت)، ٢/ ٤٣٤.

(٢) - جماعة مِنْ كِبار اللُّغويِّين العرب. **المعجم العربيّ الأساسيّ** (تونس: الـمنظَّمة العربيَّة للتَّربية والثَّقافة والعُلُوم، ١٩٨٩م)، ص ٦٥٩.

وبينما انصرفَتِ «السِّيرة» إلى نَفْس صاحِبها، وما يُلَوِّن به الأحداث مِنْ نَظَرٍ لا يبرح حُكْمه وذوقه = عَنَتِ «الـمَسِيرَة» حياةً تُبِيح افتراقها عنْ عَيْن صاحِبها وذوقه، وما يُلَوِّن به الأحداث الَّتي تَعْرِض له، إنَّها أقرب إلى «الـمُذَكِّرات» يكتبها السَّاسة ورِجَال الدَّوْلة مِنْها إلى «السِّيرة» يكتبها الشَّاعر والأديب والفنَّان. فإذا ارتضَى نَفَرٌ مِنَ السَّاسة والكُتَّاب «الـمَسِيرة» عنوانًا لِسَرْدٍ يُؤدِّي إلى القارئ طَرَفًا مِنْ حياة، أوْ مَحَطَّةً مِنْ مَحَطَّاتها = فهي ألصق بالمسافة يسلكها جَمَاعة مِنَ النَّاس، ولو تَصَدَّرَ إنسان بِعَيْنِهِ لسردها.

اصطلحَ الكُتَّابُ ونَقَدَةُ الأدب، على أنَّ «السِّيرة الذَّاتيَّة» هي اسْم النَّوْع للسَّرْد الَّذي يستعيد فيه إنسانٌ قِصَّةَ حياتِهِ، يريدون بها ما يُؤَدِّيه المصطلَح الأعجميّ Autobiography. وحُدَّ هذا المصطلح بِجُمْلة مِنَ الحُدُود، ما قَرُبَ مِنْها كان «سِيرة ذاتيَّة»، وما بَعُدَ عنها لَمْ يَكُنْ كذلك. ويَلُوح في طائفة مِنْ كُتُب السِّيرة الذَّاتيَّة أنَّ أصحابها اتَّقَوْا هذه التَّسْمِيَة، احترازًا مِنْ هذا النَّوْع الأدبيّ، وتَفَلُّتًا مِنْ شُرُوطه، ومَيْلًا عنْ أقْيِسة النُّقَّاد وقواعدهم، وهَرَبًا مِمَّا قدْ يُثِيرُه هذا المصطلح مِنْ ألوان العُجْب والغُرُور والزَّهْو بالنَّفْس. وراجَتْ كلمات أُخْرَى تَحْمِل المعنَى نَفْسه وإنْ لَمْ تَكُنْهُ، مِنْها «المُذَكِّرات»، و«الذِّكريات»، و«اليوميَّات»،

و«قصَّة الحياة»، و«ترجمة الحياة»، وتَلَوَّنَتِ العنوانات بما يَشِي بدلالة المصطلح لا رَسْمه، فهناك «الأَيَّام»، و«أيَّامي»، و«أوراق العُمْر»، و«سنوات العُمْر»، و«حصاد السِّنين»، و«غُبَار السِّنين»، و«مِنْ زوايا الذَّاكرة»... إلخ.

ويُسَاوِي بعض المؤلِّفين بين «سِيرة» و«مَسِيرَة»، مِنْ أولئك أبو الحسن النَّدْوِيّ في كِتابه **في مَسِيرة الحياة**، وكأنَّما اجتمع في «سِيرته» الخاصُّ والعامُّ، مَعًا.

ـ ٢ ـ

وَلْأُقَلِّبْ عنوان كِتاب محمَّد بن أحمد الرَّشيد، ولْأَبْحَثْ عنْ أوجُهٍ أُخْرَى له، فعسَى أنْ أهتدِي إلى مُخَبَّآته. وأنا لا أَسُوقُ الكِتاب حيث أريد، إنَّ غايتي الَّتي نَصَبْتُ لها جهدي أنْ أفهم المعنَى أوْ ما يَحُفُّ بالمعنَى.

إذنْ لا بأس عليَّ إنْ فَحَصْتُ عنْ تلك الأوجُه الممكنة.

العنوان **مَسِيرتي مَعَ الحياة**. هذا ما ارتضاه المؤلِّف. على أنَّه، مَعَ ذلك، مُحْتَمِلٌ صِيَغًا أُخْرَى، مِنْها: «مَسِيرتي»، و«مَسِيرة»، و«مَسِيرَة مَعَ الحياة».

لَعَلَّه فكَّرَ في عنوان مَرْضِيّ. لَعَلَّه قَلَّبَ هذه الأوجُه وسِوَاها،

ورُبَّما رأى في «مَسِيرَتي» شيئًا مِنَ الزَّهْو والعُجْب، مبعثُهما تلك الياء الأَثِرَة الـمَزْهُوَّة الَّتي نَدْعوها «ياء المتكلِّم»، فآثَرَ اتِّصالها بِشِبْهِ الـجُملة «مَعَ الحياة»، وهي عِبَارة مأثورة في كلام النَّاس، يطلبون فيها «قصَّتك مَعَ الدُّنيا»، أوْ «حكايتك مَعَ الزَّمان»، أوْ ما شابه ذلك.

ورُبَّما بعَثَتْ كلمة «مَسِيرَة»، عنوانًا مفترَضًا للكِتاب، يَحْمِلها على غير معنَى «قِصَّة حياة»، أوْ ينأَى بها عنْ ذات كاتِبها. وكذلك «مَسِيرة حَيَاة»، و«مَسِيرَة مَعَ الحياة»، فيهما معنى إنسان بَلَغَ به تواضعه مَرْتَبَةَ أن يَكُون غُفْلًا وما هو بِغُفْل؛ ذلك أنَّنا نقرأ السِّيرة الذَّاتيَّة ونتلصَّص على حياة صاحِبها متى كان عَيْنًا في النَّاس، أمَّا الإغفال فلا يعنينا أَقَصَّ أَحَدُهُم حياته أمْ طواها وسَكَتَ عنها.

اختلفَتْ إرادة الكاتب وإرادة القارئ. أراد الكاتب أن يؤرِّخ لأعماله الجليلة الَّتي وَلِيَها، وأراد القارئ أنْ يقرأ في تلك الأعمال الجليلة صوت صاحِبها، حُزْنه، وفرحه. أن يقرأ سِيرة إنسان اسْمُهُ محمَّد بن أحمد الرَّشيد، فقرأ عَمَل الوزير محمَّد بن أحمد الرَّشيد. وهو يُقِرُّ أنَّ في عمله جهدًا كبيرًا، وإنجازًا خطيرًا، كان بإمكاننا أنْ نُنْصِفه لوْ كُشِفَ لنا الغِطَاء

عنْ أعمال الوزراء، ومنْ في حُكْمِهِمْ مِنْ أصحاب المناصب الخطيرة. وحتَّى يكون ذلك، فليس بِوُسْع القارئ إلَّا أن يأخُذ هذا الكِتاب بعيدًا عنْ أصحاب المعالي الوزراء، إلى حيث أصحاب المعالي الأدباء، فقصَّة الحياة، سِيرةً سمَّيْتَها أمْ مَسِيرةً هي أَدْنَى إلى الأدب مِنْها إلى الوزارة.

كَدَّسَ الوزير في «مَسِيرته» أضابيرَ ومَلَفَّاتٍ ذوات عدد. تَحوَّلَ كِتابه إلى «مَخْزَن» نُمْسِكُ فيه بلوائحَ، وأنظمةٍ، وقراراتٍ. طائفة مِنْها تَخُصُّ التَّطوير التَّربويّ، وطائفة أُخْرَى تَمَسُّ رعاية الموهبة... إلخ. نقرأ ذلك، وقدْ نجتازه مُسْرعين إذا كانتْ بضاعتنا تَبْعُد، قليلًا أوْ كثيرًا، عن التَّربية والتَّعليم، وقدْ نَغُوص، لحظةً، فننْسَى، كما نسيتُ أنا، أنَّنا قُبالة كِتابٍ معدودٍ في التَّراجم والسِّيَر، ولَعَلَّك تظُنُّ، كما ظَنَنْتُ، أنَّنا بإزاءِ خُطَّة مفصَّلة موسَّعة، أراد صاحِبُها مِنْ ورائها أن يُبين عمله، وأن يُثْبته، وأنْ يُجلِّيه، ولِـمَ لا أقولها، صراحةً: إنَّنا نقرأ تقريرًا إداريًّا، هو أَشْبَهُ بالتَّقرير السَّنويّ لوزارة أوْ إدارة أوْ ما شِئْتَ مِنْ دواوين الـحُكُومة، ثُمَّ تقرأ خُطْبةً للرَّجُل وقدْ كان وزيرًا، وهكذا يَمْضِي بنا الكِتاب، تقريرًا وخُطبةً، ثُمَّ تقريرًا وخُطْبةً، فإذا نَفَضْتَ يديك مِنَ الكِتاب، إن استطعْتَ عليه صَبْرًا، سَأَلْتَ: أسِيرةً أقرأ أمْ خُطَّة؟

الَّذي قَوِيَ عِنْدي أنَّ المؤلِّف، وهو وزير سابق، أراد أن يَحْفَظ لِـمُدَّة وزارته ما أنجزه. قَوَّى ذلك كلماتٌ باحَ بِهِنَّ، بَعْضُها في إهداء الكِتاب، وبَعْضُها في مُقَدِّمته، وأُخَرُ في أثنائه. نقرأ ذلك ونكاد نُـحِسُّ وراء تلك الكلمات شكْوى، مَرَدُّها الجُحُود والنُّكْران. هو يُوَرِّي ذلك، حِينًا، لكنَّه لا يلبث أن يُفْصِح ويُبِين.

وتستوقفنا في إهدائه الطَّويل هاتان العِبَارتان:

إلى الحريصين على الوقوف على الحقيقة المُجَرَّدة تحت ضوء الشَّمس لا يُغَطِّيها تزوير ولا يُجَمِّلها تزيين.

وإلى مَنْ حُجِبَتْ عنهم الرُّؤية: عواطفُ جامحة، ومُلابَساتٌ معقَّدة، وأحكامٌ مُسبقة، وأخطاءٌ في التَّفكير والتَّقدير

لا جَرَمَ أنَّ المؤلِّف الوزير يَدْفَع بكِتابه هذا مَظْلَمةً نَزَلَتْ به. هناك «حقيقة مُجَرَّدة» خاف عليها التَّزوير، وهناك رؤية حُجِبَتْ، وفي الجُمْلة هُناك حَقٌّ ضائع، فكان هذا الكِتاب وكيلًا عنْ صاحِبه، يَدْفَع به ظُلْمًا وقع عليه، ويُثْبِت حَقَّه في التَّاريخ.

وهذه الغاية الَّتي نَدَبَ نَفْسه لها: أن يدافع عنْ حَقٍّ ضائع،

وَيَدْفَع مَظْلَمَةً نَزَلَتْ به، هي مِمَّا يَثْقُلُ، حَقًّا، على القَلْب، ومِمَّا يَضِيق به الصَّدْر، وهي شَرْط مِنْ شُرُوط السِّيرة الذَّاتيَّة، يكتبها صاحِبُها متى أَحَسَّ ظُلْمًا وقع عليه، أوْ حَقًّا ضاع، يُخَفِّف ثِقْلهما، ويزيح عنْ صَدْرِهِ هَمًّا أَمَضَّه، فيصوغ كلماته وكأَنَّها نَفْثة مصدور. وأنتَ إنْ فَحَصْتَ عنْ ألوانٍ مِنَ السِّيَر الذَّاتيَّة، عند العرب والغربيِّين، تَعْرِف أنَّ جمهرة مِنَ المؤلِّفين ما كتبوا في أحوال أَنْفُسِهم إلَّا لهذا الغرض؛ كَتَبَ طه حسين **الأيَّام** في أَثَر أزمة كِتابه **في الشِّعْر الجاهليّ**، وأنشأَ سلامة موسَى سِيرته **تربية سلامة موسَى** لِيُسَوِّي حِسَابَه مَعَ التَّاريخ!

ـ ٣ ـ

يكتب المَرْءُ سِيرته الذَّاتيَّة وكأَنَّه يتمثَّل بالقول المأثور: «بِيَدِي لا بِيَدِ عمرو»! إنَّه يريد أن يَجْلُوَ للتَّاريخ إنسانًا عاش في حقبةٍ مَّا، أن يُنْشِئه كائنًا مِنْ كلمات، أن يُنْصِف نَفْسه. ولَعَلَّ مَرَدَّ ذلك أنَّه خَشِيَ العبث بتاريخه والافتئات عليه، إنْ هو أَمْسَكَ عن الكلام ومَضَى لشأنه.

أَحَسَّ محمَّد بن أحمد الرَّشيد أنَّ لديه حاجَةً لِلْبَوْحِ بما يتلجلج في صدره، أن يُعَرِّف النَّاس بما أنجزه، أن يأخذ بأيديهم، واحدًا واحدًا، ويُطْلِعهم على ما له مِنْ سَهْمٍ في الأعمال الَّتي

نِيطَتْ به. حَشَدَ في كِتابه كُلَّ الأدلَّة والشَّواهد على صِحَّة ما يقول، أورد أحاديثَ وكلماتٍ ومراسلاتٍ، فالشُّهُود عَمَّا قليلٍ يتساقطون، والذَّاكرة تخون، والجُحُود صِفَة ظاهرة في النَّاس، وغايتُهُ الَّتي تَكَلَّفَ لها إنشاء هذا الكِتاب: أن يقول الحَقَّ ولا شيْء غير الحَقّ

وقدْ حَمَلَني على إيراد هذا كُلِّه أُمُور مِنْ أهمِّها: أنَّ الجُحُود - للأسف الشَّديد - أصبحَ صِفَة ظاهرة في بعض دوائر مجتمع لمْ يَكُنْ يَعْرِفها مِنْ قَبْلُ؛ وأنَّ التَّاريخ يَجِبُ أن يَجِدَ مادَّته الصَّحيحة مِنْ مَصادرها المباشرة بدلًا مِنْ أن يعتمد على روايات، إنْ حَفِظَ بعضُ الرُّواة تفاصيلها ينساها آخرون، فتتضارب الرُّؤى وتضيع الحقيقة. وأخيرًا فإنَّه كان مِنْ حَقِّ إخواني الَّذين أعانوني في مختلِف أقسام الوزارة ووكالاتها وإداراتها أن يَجِدُوا بعضًا مِمَّا أنجزوه حاضرًا فيما أُسَطِّره عنْ مرحلة زمنيَّة مهمَّة مِنْ عطائهم العِلْميّ المتميِّز، وتفانيهم العَمَلِيّ، الَّذي لولاه لَمَا كانتِ الحال في المؤسَّسات التَّعليميَّة والتَّربويَّة في بلادنا على ما هي عليه اليَوْم.

غير أنَّ أهمَّ ما دفعني لإخراج هذا الكِتاب هو: إبراء الذِّمَّة أمام الله تعالَى، والقيام بواجب البيان الَّذي يُمْلِيه عليَّ الموقع الَّذي كُنْتُ فيه

هل يُفْهَم مِنْ هذه الفِقْرَة أنَّ ما بَلَغَتْه المؤسَّسات التَّعليميَّة في البلاد، اليَوْمَ، لمْ يَكُنْ لِيَكُون لولا تلك المُدَّة الَّتي أمضاها الوزير محمَّد بن أحمد الرَّشيد ورفقاؤه في وزارة التَّربية والتَّعليم؟ إنَّ ذلك بَيِّن في كلامه. وهلْ بِحِسْبان قارئ فيه شيْء مِنَ الشَّغْب أن يزيد الأمر جلاءً ووضوحًا فيقول: وما يَقْدَم مِنْ مستقبل؟! وليس في كلامي سخرية ولا تَهَكُّم، فالكِتاب يُفْصِح عنْ ذلك، وفيه وثيقة عنْ تطوير التَّعليم إلى سنة ١٤٣٥هـ، وزمنُ نَشْر الكِتاب هو سنة ١٤٢٨هـ، وزمنُ إنشاء هذه المقالة خواتيم سنة ١٤٣٢هـ، فالوزارة، إذنْ، ما زالتْ تعيش على خير ذلك الجِيل!

والمسألة لا بأس فيها مِنْ وَجْهَيْن: أَوَّلُهما أنَّ الجديد يعيش على تراث القديم، وذلك أمرٌ متَّفق عليه. وآخِرُهُما أنَّ كاتِب السِّيرة الذَّاتيَّة، مهما أقْسَمَ اليمين على التَّواضُع = لَـهِجٌ بِنَفْسه، مَزْهوٌّ بها. ووَيْلٌ للإنسان مِنْ «أنا»! والكاتبُ - وإنْ كان وزيرًا - إنسانٌ كغيره مِنَ النَّاس، يَفْرَح لِنَفْسه، ويزهو بأعماله، ويَتَرَقَّب كلمة شُكْرٍ على ما فعل، ومِنَ المظنون - بلْ هو راجحٌ لا شَكَّ فيه - أنَّ مَن يَلِـي أمرًا مِنْ أمور النَّاس يسمع ألوانًا مِنَ الثَّناء، في أثناء ولايته: أَمَّا أعمالُهُ فلا أعظم مِنْها، وأمَّا كلماته

فَعَذْبَةٌ رائعة، وصغيرُ ما يفعل كبيرٌ في موازين التَّاريخ، فإذا عُزِلَ وأُقْصِيَ، إذا به يخرج وحيدًا إلَّا مِنْ نَفْسه.

كَتَبَ محمَّد بن أحمد الرَّشيد سِيرته أوْ مَسِيرته - لا فَرْقَ في ذلك - وكأنَّه يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقَّة: ١٩]. نوَى أن يُثَبِّت عمله، وللإنسان ما نوَى، وأَبْرَزَ الوزارةَ في حُسْنِها، فخَرَجَتْ على النَّاس في زِينتها، وقرأ القارئ أضابيرَ وطُرُوسًا هي أَمَتُّ رَحِمًا بِسِجِلَّات الوزارات وأعمال الدَّواوين مِنْها إلى السِّيرة الذَّاتيَّة، ويَغْلِب على الظَّنِّ أنَّ طائفةً مِنْها ضُمَّتْ إلى الكِتاب، وعليها أَثَرٌ مِنْ «مطبخ القرارات» في الوزارة، لَمْ تَـمْسَسْهُ يَدٌ ماهرةٌ صَنَاع، تريد الفنَّ لا التَّوثيق والحِفْظ، وليس مِنْ فَرْقٍ بين هذه البرامج ولا تلك المشروعات مستقِرَّةً في مَواطنها مِنْ سِجِلَّات الوزارة، وبينها مستقِرَّةً في كِتاب محمَّد ابن أحمد الرَّشيد. هي هناك سِيرة وزارة، وهي، هنا، سِيرة وزير، لا فَرْق في الفُصُول، ولا في الجداول، ولا في الحُدُود، ولا في الرُّسُوم. فإذا جَرَّدْنا الكِتاب مِنْ عنوانه، خَلَصَ لنا سِجِلًّا كأمثاله مِنَ السِّجِلَّات الَّتي تُخْرِجُها دواوين الدَّوْلة، أمَّا السِّيرة الذَّاتيَّة فَعَشَا البَصَرُ دُون إبراز تفاصيلها، ولا نكاد نُمْسِك بِأَثَرٍ مِنْها، ولا بِنَفْس صاحِبها، وقدْ تَقَلَّبَتْ بها الأحوال.

\- ٤ -

أرجع فأقول: اختلفَتِ الإرادتان؛ أراد الكاتب أن يكون كِتابه سِجِلًّا لإنجازه إبَّانَ الوزارة، وأراد القارئ أن يرى في الكِتاب أَثَرًا مِنَ السِّيرة الذَّاتيَّة. فأين اجتمعَتِ الإرادتان وأين افترقتا؟

لنْ تَنْحَرِفَ العَيْنُ عنْ غاية المؤلِّف مِنْ كِتابه. رَكِبَ مَرْكَب السِّيرة الذَّاتيَّة ثُمَّ استقلَّ بعيدًا عنه، لمْ يَسْعَ إلى التَّباري مَعَ الزَّمن، فَعَبَـرَ سريعًا فَوْقَ أحداث حياته الأُولَـى. عَرَفْنا مَوْلِدَهِ في المَجْمَعة، وأَلْمَمْنا بِطَرَفٍ مِنْ تعليمه الأَوَّلِـيّ، ثُمَّ عَرَفْنا أَنَّه اختلفَ إلى الجامِعة، وعَمِلَ، في أَثَرِ تَخَرُّجِهِ، مُعَلِّمًا في معهدٍ دِينيٍّ في الرِّياض، ثُمَّ التحق بجامِعة أُمِّ القُرَى مُعِيدًا، وابْتُعِثَ لإكمال دراساته العالية، وآبَ إلى وطنه، وتَقَلَّبَ في غير وظيفة، حتَّى بَلَغَ رأس وزارة التَّربية والتَّعليم.

قَرَأْتُ كُلَّ ذلك، وعَرَفْتُ شيئًا مِنْ حياته، وأحسسْتُ أنَّ للرَّجُل غاية يبتغيها. أراد قارئ السِّيرة الذَّاتيَّة ما اضطرَبَ في النَّفْس وظَهَرَ على سِنِّ القَلَم، وأراد الكاتب ما أَسْمَاهُ «سِيرة مجتمع»، ولمْ نَفُزْ بهذه ولا بتلك، فخَلَصَ الكِتابُ ديوانًا حَفِظَ بين دَفَّتَيْهِ نُظُمًا كانتْ، وقراراتٍ كانتْ، ورُسُومًا كانتْ، وشَحَبَ

وَجْهُ الإنسان في كِتابٍ مظنونٍ فيه أَنَّه سِيرة ذاتيَّة، فاختلفَتْ، عندئذٍ، الإرادتان: أرادَ الكاتبُ التَّوثيق، وأرادَ القارئُ الفنّ.

وعسَى أن يقول قائل: إنَّكَ تطلب مِنَ الكِتاب فَوْقَ ما رَسَمَه له كاتِبُه. ولَعَلَّكَ تَـجُرُّ الكِتاب إلى السِّيرة الذَّاتيَّة جرًّا، وما هكذا أرادَ صاحِبُه!

والحَقُّ الَّذي لا مِرْيَة فيه أنَّ الكِتاب في رَسْمه، وفي تصنيفه، كِتابُ سِيرة ذاتيَّة، والَّذي خَرَجَ على أَصْل النَّوْع وعَقْد القراءة هو الكاتب لا القارئ. والكِتابُ، أيًّا يَكُنْ، يُقْرَأ في نَوْعِهِ الَّذي يَرْتفع إليه. نحن نقرأ الشِّعْرَ وفي ظَنِّنا أنَّه شِعْر، وكذلك الرِّواية والمسرحيَّة والفَصْل مِنَ النَّثْر. وكِتابُ **مَسيرتي مَعَ الحياة**، بإقرار صاحِبه، ليس بحثًا عِلْمِيًّا. فإنْ لمْ يَكُنْ كذلك فماذا يكون؟

وقدْ يعترض معترض فيقول: إنَّكَ تَزْعُمُ للكِتاب زَعْمًا لمْ يَفُهْ به صاحِبُه. فما هو بـ«سِيرة ذاتيَّة»!

فإنْ لمْ يَكُنِ الكِتابُ «سِيرةً ذاتيَّةً»، أفيكون قصيدةً؟ أوْ مسرحيَّةً؟ أوْ فَصْلًا أدبيًّا؟ أوْ تأريخًا؟ أوْ فلسفةً؟ أوْ ما شِئْتَ مِنْ أصناف الفُنُون والعُلُوم؟

نحن نقرأ الكِتاب فنرفعه، رأسًا، إلى الشَّجَرَة الَّتي يَعْتَزِي

إليها، وأنا، هُنا، أقرأه على وَفْق نَوْعِهِ الأدبيّ «سِيرة ذاتيَّة»، وإلَّا يَكُنْ ذلك فليس أقلّ مِنْ أن يكون «تقريرًا»، أوْ «سِجلًّا»، أوْ ما شِئْتَ مِنْ أصناف العمل في دواوين الحكومة.

ويزيد ذلك جلاءً أنَّ المؤلِّف خَتَمَ كِتابه بباب دعاه «متفرِّقات»، أَثْبَتَ في أَحَدِ فُصُوله قِصَّةَ إضافةِ تعليمَ البنات إلى وزارة التَّربية والتَّعليم، وما لَقِيه الوزير مِنْ عناء وعَنَت، ونقرأ في الباب مواقفَ فيها طرافةٌ وفيها دُعابةٌ. وفي ثلاثة الفُصُولِ قِطَعٌ مِنْ نَفْس المؤلِّف الوزير، جَعَلَتِ الكِتاب أقربَ إلى القارئ، وأَظْهَرَتْ إنسانًا يتألَّم ويحزن؛ يَكِيد له الخُصُوم، ويأتمِر به المؤتمِرون، ويعترضه المتعصِّبون، يغضب فَيَكْظُم غضبه، ويُسِرُّ في نَفْسه الأَسَى. يُحْكِم أخصامُه عليه الخِناق في الوزارة، وفي المدرسة، وفي الصِّحافة، وفي المواقع الشَّبَكِيَّة، وأَجْلَبُوا له بِخَيْلِهِمْ ورَجِلِهِمْ. وفي الفَصْل قِطَعٌ طريفةٌ، هي، إنْ فَحَصْتَ عنها، أقرب إلى السِّيرة الذَّاتيَّة مِنْها إلى كُلِّ ما تَكَدَّسَ في طُول الكِتَاب وعَرْضِهِ، مِنْ خُطَط وأنظمة غابَ فيها صوت الإنسان وحضرَ صوت اللَّوائح والقرارات. كُلُّ ذلك ليس بِسِيرة ذاتيَّة مهما تَكَلَّفَ الـمُشْفِقون.

والحَقُّ أنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة مَرْكَبٌ صَعْبٌ، وإنْ ظُنَّ خِلافَ

هذا، وصاحِبُها شاعرٌ على نحْوٍ مِنَ الأنحاء؛ فالشِّعْرُ، والغِنائيُّ مِنْه، فيه مِنْ ذات صاحِبه ورُوحِه وشُعُورِه، وإنَّنا نَقْبَلُ مِنَ الشَّاعر ما لا نَقْبَل مِنَ النَّاثر. وكذلك نحن مَعَ كاتِب السِّيرة الذَّاتيَّة، نسكت عنْ غُلَوَائه، ويَلَذُّ لنا أنْ نَسْمع ثناءه على نَفْسه، ونَرْضَى مِنْه خَيَاله، ونَحْتَمِل كَذِبه، نَضِيق إنْ تَبَجَّحَ امرؤٌ يَسُوق حديثه لَهِجًا بِنَفْسه في مجلس مِنْ مجالس النَّاس، أمَّا كاتِبُ السِّيرة الذَّاتيَّة فنَعُدُّ حديثه عنْ نَفْسه شَرْطًا مِنْ شُرُوط الكتابة، وضرورةً يَجُوز فيها لكاتِب السِّيرة الذَّاتيَّة ما لا يَجُوز لغيره. وغوته - شاعر ألمانيَة العظيم - وهو مَنْ نَعْرِف = كَتَبَ قِصَّة حياته، وحِين أَبْرَزَها للنَّاس، قَرَنَها بالشِّعْر، ودعاها **الشِّعْر والحقيقة**، وما ذلك إلَّا لأنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة، وإنْ أقسمَ صاحِبُها على قول الحَقّ = تترجَّح بين الحقيقة والكَذِب.

\- ٥ -

لَيْتَ ما كان هامِشًا في كِتاب محمَّد بن أحمد الرَّشيد صارَ مَتْنًا. الهامِشُ أَلْصَقُ بِنَفْس صاحِبه؛ بِحُزْنِه، وفَرَحِه، وسُخْرِه. الهامِشُ يَحْمِلُنا على الإنصات والتَّلَصُّص، وبهما تستوي السِّيرة الذَّاتيَّة أَثَرًا قَمِينًا بالقراءة. الهامِشُ فيه أَثَرٌ مِنَ الحكاية والسَّرْد، وإنْ كانا قصيرَيْن. وَلْيَعْرِفِ الوزيرُ الكاتبُ أنَّ فِقْرةً

قصيرةً ساقَ فيها خَبَرًا ضاحكًا، أَوْ ساخرًا، أَوْ باكيًا = تمنح كِتابه، لوْ فَعَلَ، صَكَّ انتماءٍ إلى الفنّ، وإلى الأدب، ولكنَّه لمْ يفعلْ.

ولَوْ - ولَوْ هذه تفتح عمل الشَّيطان! = ولَوْ أنَّه جَعَلَ الهامِشَ مَتْنًا، والمَتْنَ هامِشًا، لاستوَتْ للقارئ وللفنِّ سِيرةٌ بديعة، يَفرح بها الأدب حِين يَزِنُها بمِيزانه، ويُسِيغُها التَّاريخ إذْ يَقيسها بمقياسه، ويَرْضَى عنها الإداريُّون والأدباء - وقليلًا ما اتَّفقوا - كما رَضُوا وأجمعوا، مِنْ قَبْلُ، على غازي القصيبيّ - زميلِ محمَّد بن أحمد الرَّشيد في الوزارة والإدارة - يَوْمَ أذاعَ في النَّاس ثَمَرَة تجرِبته في الإدارة والوزارة؛ كِتابه البديع **حياةٌ في الإدارة**. ويا له مِنْ مكسب كبير للإدارة وللأدب، مَعًا، أن يَصْطلِحا على كِتاب، وأن يَرْفَعا مِنْ شأن كاتِب، ولكنَّ غازي القصيبيّ أَثِرٌ أَثَرَةَ الفنَّانين، ولَمْ يَشَأْ تاريخ هذا النَّوْع أن يجعل لكِتابه توأمًا، وما أَسْعَدَ الأدبَ، وما أَسْعَدَ التَّاريخَ، وما أَسْعَدَ الوِزارةَ والإدارةَ = لَوْ كان ذلك التَّوْأم هو كِتاب **مَسِيرتي مَعَ الحياة!** ولكنَّ ذلك - وا أسفاه - لمْ يَكُنْ!

لَيْتَهُ نَسِيَ..![1]

استعدْتُ في ذاكرتي طَرَفًا مِنَ السِّيَر الذَّاتيَّة، وأنا أقرأ كِتاب حتَّى لا أنْسَى: **الصَّفحة الأُولى لسعيد المَلِّيص**[2]. ولا أدْري لِمَ استعدْتُ تلك العِبَارات الَّتي عادةً ما يَسْتَدْني بها الكُتَّاب حياتهم الأُولَى، وما يُكابِدونه في استدعاء الذَّاكرة ودَفْع النِّسْيان، وليس على الكاتب مِنْ لوم في ما أراده عنوانًا لكِتابه، وهو عنوان صِلَتُه بهذا النَّوْع مِنَ الكُتُب راسخة متينة، فالكاتب يَضَع سِيرته عَلَّه يَتَّقِي بها النِّسْيان، هكذا سَوَّغَ غير كاتب وغير أديب، وما عليه إلَّا أن يسبق الزَّمان قَبْلَ أن ينالَ مِنْ ذاكرته، وعليه أن يُثْبِتها حتَّى لا يَنْسَى!

---

(١) - صحيفة **الرِّياض**، ١٧ مِنْ شهر رجب سنة ١٤٣٣هـ = ٧ مِنْ شهر حزيران (يونيو) سنة ٢٠١٢م.

(٢) - المَلِّيص، سعيد. **حتَّى لا أنسى، الصَّفحة الأولى** (الرِّياض: المؤلِّف، ١٤٣٣هـ).

في سِيرة الـمَلِّيص ما يَسْتحِقُّ القراءة. فيها قِصَّة جِيلٍ ضَنَّتْ عليه الحياة بِكُلِّ شيْء، ثُـمَّ أَفاءَ الله عليه مِنْ واسع، نَقِف مَعَ الكاتب حيث وُلِدَ ونَشَأَ، ونُلِمُّ بحياة النَّاس في قريته والقُرى الَّتي تحيط بها، نَعْرِف مَعاشهم، وزَرْعهم، وضَرْعهم، ومَبْلَغ ما أصابوه مِنْ تعليم، ونَتْبَع الكاتب في طُفُولته الَّتي مَرَّ بها مُسْرِعًا، فما إنْ أَتَمَّ الثَّانيةَ عشرةَ مِنْ عُمْره، وقَبْل أن يُشَارِف قَدْرًا أعلى مِنَ التَّعليم = نَلقاهُ مُعَلِّمًا يتخرَّج به الكِبَار والصِّغار، ثُمَّ نَعْبُر مَعَهُ الفَلَوات إلى الرِّياض فمكَّة المكرَّمة طالبًا في الكُلِّيَّة، وحِين أَنَهى دُرُوسه صارَ مُعَلِّمًا، وحَمَلَهُ حُبُّه للعِلْم على أن يُكْمِل دراساته العالية في أمريكة، فإذا عاد إلى وطنه، تَدَرَّجَ في خِدْمته مُرَبِّيًا، ومديرًا عامًّا، ووكيلًا مساعدًا، فَلَمَّا أُنْشِئَ مجلس الشُّورى عُيِّنَ عُضْوًا فيه، وما إن يُنْهِي الدَّورة الأُولَى مِنْ عُضْويَّته، نراه مديرًا عامًّا لمكتب التَّربية لِدُوَل الخليج العربيَّة، ومِنْ دُون أن يُسْتشار يختاره القائمون على الأمر نائبًا لوزير التَّربية والتَّعليم، فإذا عافَ الوظيفة الكبيرة واستعفَى، رُدَّ إلى مجلس الشُّورى كَرَّةً أُخْرَى!

وكِتاب الـمَلِّيص نافع، بلْ نافع جِدًّا، لِـمَنْ رَغِبَ في أن يَتَتَبَّع طَرَفًا مِنْ نشأة التَّعليم في الباحة وما يُطيف بها مِنْ قُرًى وبلدات، وفيه نُمْسِك بجوانب مِنْ حياة النَّاس في تلك

النَّواحي، وما اندرس مِنْ قديم العادات، مِـمَّا هو مفيدٌ لدارِس التَّاريخ والاجتماع والإنسان، وعَسَى أن يُفِيد الكِتاب في التَّأريخ لجمهرة مِنْ قادة وزارة التَّعليم في حِقبة طويلة مِنْ تاريخها.

في الكِتاب ما ذَكَرْتُ وما لَمْ أَذْكُرْ، وهو عَسِيٌّ أن يُفِيد في بابه، لوْ قُصِرَ الأمْر عليه، ولَمْ تَزْحَمْه كُتُبٌ حَبَسَها أصحابها على التَّاريخ، وعلى الاجتماع، وعلى الإنسان، وعلى التَّربية، ولكنَّ المؤلِّف يُخْبِر قارئه أنَّه لا يُسَجِّل تاريخًا، ولا يبحث في حلقة مِنْ حلقات التَّطَوُّر، ولا يُدَوِّن شيئًا خاصًّا بحياته. وأنا أفهم أنَّ كِتابه لا يُسَجِّل تاريخًا، وأفهم أنَّه لا يبحث في التَّطوُّر، ولكنَّني لا أفهم أنَّه لا يُدَوِّن شيئًا خاصًّا بحياة المؤلِّف، وإنْ لَمْ يفعلْ ذلك، فعلى أيِّ باب مِنْ أبواب العِلْم أو الأدب نقرأ هذا الكِتاب؟

يَذْكر الـمَلِّيص أنَّ ما تَناثر في كِتابه ليس خاصًّا به، فـأبناء المجتمع يَشْركونه فيما عاشه؛ دَرَجُوا في المُدُن والبلدات والقُرَى مثلما دَرَجَ هو وأقرانه، وكابدوا، في أوَّل نشأتهم، ضُرُوبًا صعبةً مِنَ الحياة، مِثْلَ الَّذي كابده هو وعاناه، فهو لَمْ يَرَ السَّيَّارة، ولَمْ يَعْرِفِ المِذياع إلَّا بَعْدَ أنْ تَصَرَّمَتْ طُفُولته، وإنَّه

يَذْكُر ذلك، لِيَجْعلَ ما كابَدَهُ وعاناهُ وسيلةً يَجْلُو بها فَرْق ما عاشه في طُفُولته، وما يَنْعَم به المجتمع الآن، ويَعْتَدُّه تَحَوُّلًا عاشتْه البلاد. على أنَّني لمْ أفهمْ، بَعْدُ، أمطلوبٌ مِنَ المجتمع أن يَظَلَّ حبيس بُيُوت الحَجَر واللَّبِن في بَلَدٍ يَسْبَح في أنهارٍ مِنَ النِّفْط؟! ولكنَّ ذلك شأن آخَر.

وشأن هذا الفصل أن يَقرأ في **حتَّى لا أنسَى** النَّوْع الَّذي يَعْتَزِي إليه، فالكِتاب ليس كِتابًا في التَّاريخ، وليس كِتابًا في التَّربية. إنَّ مؤلِّفه يَدْعوه «ذكريات»، واختلط تَصْنيفه على المكتبة الوطنيَّة، فَجَعَلَتْه قِسْمة بين «المذكِّرات» و«التَّعليم» و«التَّاريخ». ولا لَوْمَ على المكتبة الوطنيَّة في التَّصنيف؛ ففي الكِتاب تاريخٌ وتربيةٌ وتعليم، وفيه مذكِّراتٌ، وإنْ شِئْتَ ذِكْريات.

و«الذِّكريات» هي الشَّكْل المَرِن الَّذي يَخلعه قَبِيلٌ مِنَ الكُتَّاب على ما يُنْشِئونه في أحوال أَنْفُسِهم، ولَعَلَّهم رأوها ذريعة للتَّفَلُّت مِنْ قُيُود الفنّ، يَتَّقُون بها سَطْوة النَّقْد وأصحابه، إنْ دَعَوْا هذا النَّوْع مِنَ الكتابة «سِيرة ذاتيَّة». وقدْ يَحْمِل الكاتب نَفْسه على التَّواضُع؛ فالسِّيرة الذَّاتيَّة لها حُدُودها ورُسُومها، وما يكتبه هذا الكاتب أوْ ذاك ليس إلَّا «ذكريات»، ابتغَى مِنْ

ورائها العِظَة والعِبْرة والشُّكْر والتَّحدُّث بنعمة الله، أوْ كما أراد سعيد الـمَلِّيص: أنْ نَعْرِفَ التَّغيُّر الَّذي حَدَثَ في المجتمع بين زمنين، وأن يكون مقياس هذا التَّغيُّر حياة إنسان نَشَأَ في أحوالٍ صعبةٍ، ولمْ يَرَ السَّيَّارة، ولمْ يَعْرِفِ المِذْياع، ودَرَسَ، واختلفَ إلى جامعات أمريكة، ثُمَّ أصبح نائب وزير!

هَرَبَ الـمَلِّيص مِنَ الخاصّ وليته ما هَرَبَ، ذلك أنَّنا نَتَتَبَّع في السِّيرة الذَّاتيَّة حياةَ إنسانٍ فَرْدٍ، نَقِفُ حيث وَقَفَ، ونسير حيث سارَ، وفيها يتدسَّس الكاتب في أغوار نَفْسه. ولَعَلَّ أصْدق معيارٍ لهذا النَّوْع مِنَ الكتابة، إنَّما هو مُصاقَبَتُهُ لِعَيْن الكاتب ونَفْسه وضميره الفَرْد، ولكنَّ ما يرجوه الأدب صعْبُ السُّلُوكُ إليه، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ هذا النَّوْع الأدبيّ يُمْلِي للنَّاس في امتطائه، وهو شامِسٌ عَصِيٌّ حَرُونٌ، فالكتابة عن النَّفْس أصعب أنواع الكتابة وأشقُّها، وصُعُوبتُها، فيما يقول أحمد أمين، أنَّه اجتمعَ فيها «العارِض والمعروض والواصِف والموصوف».

وليس مِنْ بأسٍ في أن يكتب مَنْ شاء ما شاء، وإنَّ المَرْءَ لَيَجِدُ في نَفْسه مَيْلًا إلى مَن يَسْرُد عليه طَرَفًا مِنْ حياته، وفي الإنسان فُضُولٌ إلى التَّلَصُّص على حياة الآخرين. كُلُّ ذلك لا بأس به، وحُرِّيَّة الكاتب في أن يكتب ما شاء، لا تَحُول دُونَ النُّزُول على

رُوح الفنِّ وأُصُول الكتابة، دَعْ عَنْكَ النَّظَر والتَّفسير والتَّأويل، وإلَّا استحالَتِ الكتابة ضَرْبًا يُكَرِّر به أصحابُه عِبَاراتٍ واحدةً؛ عنْ مجتمعٍ كان فقيرًا فأغنَى، وجاهلًا فتعَلَّمَ، وأحْسَبُ أنَّ الزَّمان لا يُسِيغ هذه اللُّغة التي طُبِعَتْ عليها المدرسة والمعهد والإعلام، وصُبَّتْ في أدمغة النَّاس صَبًّا، وليتَ الكاتِب اطَّرَحَ، وهو يكتب في شأن نَفْسه، عباءَة المسؤول ومفرداته، والتفتَ إلى نَفْسه، وما اضطربَ فيها مِنْ شؤون.

زَحَمَ نائبُ الوزير في حتَّى لا أنسى الطِّفْلَ والشَّابَّ والإنسانَ، واستبدَّتْ لُغَة «المُرَبِّي» بالكِتاب، ولا نكاد نقع فيه إلَّا على كَلِمٍ يصطنعه «الكُبَراء»، يُزْجُون فيه الحكمة والنُّصْح والإرشاد، ولا لَوْمَ على الرَّجُل ولا بأس، وقدْ صَرَفَ عُمْره كُلَّه يَنْظُر في شأن التَّربية، ذاقَ طَعْمَ المَناصِب الرَّفيعة، فقرأْنا كلماته ناصحةً مَرَّةً، ومُرْشِدةً مَرَّةً أُخْرَى، مِمَّا صُبَّ في أدمغة النَّاس صَبًّا في غُدُوِّهم ورواحهم. ولا أَظُنُّهم يُسِيغون قَوْلَهُ:

> وهكذا حالُ التَّعليم أُسُسٌ ثابتة ورواسخُ باقية إنْ هي استندَتْ على العقيدة، وقامَتْ على تعاليمها التَّربويَّة = فهي بمثابة المَنْزِل الَّذي يَجْمَعُنا، أمَّا المتغيِّرات والمستجدَّات فهي تؤثِّر في تهيئة المَنْزِل وتطويره، لِيَكُون لائقًا بنا في مجتمع يتطوَّر، لأنَّ

جدليَّة القناعة والرِّضا بما تَحَقَّقَ مِنْ إنجاز، والشَّغف بتحقيق الأفضل، جُزْءٌ مِنْ ضرورة الوجود الإنسانيّ، فالإنسان مشروع ذاته، فكُلُّ عَمَلٍ يقوم به، وكُلُّ مسؤوليَّة يضطلع بها، وكُلّ موقف يتَّخِذه، هو جُزْءٌ مِنْ هذا المشروع، وخطوة صَوْبَ تشكيل هُوِيَّته، الَّتي هي مُجْمَل طموحاته واختياراته وقراراته المصيريَّة

وهذا القول، إنِ اقتطعْتَه مِنَ الكِتاب وقَرَأْتَه، فلن يشتبه عليك الأمر ويَغِيم، ذلك أنَّه مِنَ الكَلِم «المسكوك» الشَّائع في لُغَة الإعلام والمعهد والمدرسة، لا تكاد إنْ فتَّشْتَه وفَحَصْتَ عنه أنْ تَحْلَى مِنْه بطائل، أمَّا صِلَتُه بالسِّيرة الذَّاتيَّة والذِّكريات فشاحبة ضامرة.

وفي الكِتاب قِطَعٌ فيها مِنْ نَفْس صاحِبها ما يَرْفعها إلى مرتبة السِّيرة الذَّاتيَّة، استكانَ فيها إلى ذِكرياتٍ حُلْوةٍ عَبَرَتْ به، ولَوَّنَها بأسلوبٍ أدبيٍّ يُخَيِّل لِمَن يقرأه أنَّه إزاءَ مُفْتَتَح سَرْدِيّ، ولكنَّه سَرْعانَ ما يَأْخُذ على يَدِ الإنسان في كلماته، ويرتدي، مَرَّةً أُخْرَى، «عباءة» المسؤول ذي المنصب الخطير، وتَضِيع نَفْسُه في أثناء تلك الذِّكريات الَّتي تنهال على القارئ، دُون ضابطٍ مِنْ فنٍّ أوْ أدبٍ. وحَسْبُك أنْ تَقِفَ على هذه القِطَع، وتُصْغي إلى نَفْس صاحِبها ورُوحه:

ها هو الخريف يُنْذِر بالرَّحيل وشمسُه الجميلة تُرْسِل أشعَّتها الذَّهبيَّة على بقايا الأوراق الذَّابلة أو الَّتي تُدَحْرِجها رياحه العاتية أحيانًا أوْ تنقلها مِنْ مكان إلى آخر. سُحُب تتراءى مِنْ وراء الآكام مُحَاوِلةً أنْ تُخْفِي أشعَّة الشَّمس في حياء، يَوْم مِنْ أيَّام الأسبوع ينشغل أرباب الأُسَر بالذِّهاب إلى السُّوق الدَّوْرِيّ، لكي يتبادلوا السِّلَع. تَكَامُل عجيب بينهم لمْ يرسموه لأَنْفُسِهم بلْ خَطَّطَتْه الحاجَة، وأصبح الابن ينهج ذات النَّهْج حين يَشِبُّ ويشارك أباه الهَمَّ والكفاح.

في ذلك الصَّباح ومِنْ بين أصوات ثُغاء الأغنام نادَى المُنادي أنْ عُدْ إلى البيت لِتَسْتَعِدَّ لحياة جديدة، تَنْسَى فيها طُفُولتك المتأخِّرة وبدايات صِبَاك ومرحلة مراهقتك وشبابك، وَلْتكُنْ رَجُلًا مِنْ سِنِّ الحادية عشرةَ. هلْ أنا في حقيقة أمْ حُلْم؟ أنا بالأمس كُنْتُ تلميذًا بِكُلِّ ما تَعْنِي الكلمة، وبَعْدَ أشهر قليلة أُصْبِح مُعَلِّمًا ومسؤولًا عنْ مدرسة إلى جانب ابن خالي الَّذي يَفُوقني سِنًّا وخِدْمَةً، ولكنَّني أَفُوقه مُؤَهَّلًا!

وأغْلبُ الظَّنّ أنَّ سعيد المَلِّيص أراد أن يقول كُلَّ شيْء حتَّى لا يَنْسَى، فاجتمعَتْ في كِتابه صُنُوفٌ مِنَ الذِّكريات، وتَكَدَّسَتْ في صفحاته دُونَ أن يُصْلِح مِنْ شأنها لا الفنُّ ولا الأدب، والَّذي يَظْهَر أنَّه أثبتَ في الطُّرُوس كُلَّ ما طَرَأَ على

ذاكرته، وكأنَّه يكتب وغايتُه الَّتي نَذَرَ لها كِتابه أنْ لا يَنْسَى، فاستسلمَ لجبروت الذَّاكرة، وليته نَسِيَ، أوْ ليته تَعَمَّدَ النِّسْيان، وتَخيَّرَ لذكرياته ما يُرْضِي نَفْسه الَّتي يؤوب إليها متى شاء، وليته هَرَبَ مِنَ الخارج ولاذَ بالدَّاخل، داخِل نَفْسه. والذَّاكرة - هذه الَّتي نُشْعِل في معبدها البَخُور - ماكرةٌ ذكيَّة، تُوقِع في حبائلها مَنِ استسهلها، وما أَجْدَرَ أنْ يكون لنا مِنْها «فنَّانٌ عظيمٌ»، كما وصفها أندريه موروا بقوله:

إنَّ الذَّاكرة فنَّان عظيم، فهي تختار، ولكنَّ اختيارها
يكون جَيِّدًا أكثر مِمَّا ينبغي، فهي تصنع لِكُلِّ رَجُلٍ
ولِكُلِّ امرأةٍ مِنْ حياته تُحْفةً فَنِّيَّةً تُسَانِدها وثائق زائفة[1]

حَارَ سعيد المَلِّيص في كِتابه. أراد مِنْ ورائه أن يقول كُلَّ شيْء، ولَعَلَّه نَزَلَ على رغبة الأقرباء، فشاءَ أنْ لا تَفُوته شاردة ولا واردة، وسَاقَ طَرَائفَ مِنَ الماضي، قدْ تَصْلُح أحاديثَ في المَجالس يُزْجيها مَنْ تقدَّمَتْ بِهِم السِّنّ؛ فيها الحكمة، وفيها الطُّرْفة. وفَتَنَتْهُ ذاكرته فاستنامَ لها، وأثبتَها في كِتابه دُون أن يُصْلِح مِنْ هيئتها، وللتَّذَكُّر فِتْنة تُشْبِهُ تلك الفِتْنة الَّتي حَذَّرَ الجاحظ مِنْها، في قوله:

(١) - موروا، أندريه. فنّ التَّراجم والسِّيَر الذَّاتيَّة، ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش (القاهرة: المجلس الأعلى للثَّقافة، ١٩٩٩م)، ص ١٠٢.

وينبغي لِمَنْ كَتَبَ كِتابًا ألَّا يكتبه إلَّا على أنَّ النَّاس كُلَّهم له أعداء، وكُلُّهم عالِم بالأُمُور، وكُلُّهم متفرِّغ له؛ ثُمَّ لا يرضى بذلك حتَّى يَدَعَ كِتابَه غُفْلًا، ولا يرضى بالرَّأْي الفَطِير؛ فإنَّ لابتداء الكِتاب فِتْنَةً وعُجْبًا، فإذا سَكَنَتِ الطَّبيعة وهَدَأَتِ الحركة، وتَراجَعَتِ الأخلاط، وعادَتِ النَّفْسُ وافرةً، أعادَ النَّظَر فيه، فيتوقَّف عند فُصُوله تَوَقُّفَ مَن يكون وَزْنُ طَمَعِهِ في السَّلامة أَنْقَصَ مِنْ وَزْن خوفه مِنَ العيب[١]

وعسى أن يَقِف الكاتب عند قول العرب: «كُلُّ مُجْرٍ في الخَلَاءِ يُسَرُّ»[٢]، فلنا أنْ نقول في مجالس السَّمَر، وفي حُضُور الأبناء والأقرباء، ما نشاء، أمَّا إذا رُمْنا إخراج ما كان خاصًّا إلى عامَّة النَّاس، فعلينا أنْ نَعْرِفَ أنَّ الأرضَ ليسَتْ خلاءً، وأنَّنا نَجْرِي فيها ويَجْرِي الآخرون مَعَنا!

---

(١) - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **الحيوان**، تحقيق وشَرْح عبد السَّلام محمَّد هارون (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م)، ١/ ٨٨.

(٢) - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. المرجع السَّابق، ١/ ٨٨.

سِيرة «واحد» مِنَ النَّاس[1]

اعتدْتُ، وأنا أقرأ طَرَفًا مِنَ السِّيَر الذَّاتيَّة، الوقوفَ على كلام يُوَطِّئ به صاحِبُه لِمَا يُنْشِئه في أحوال نَفْسه: فما للنَّاس ولِحَيَاته، وهو لمْ يَكُنْ بالسِّياسيّ العظيم، ولا ذي المنصب الخطير؟ والقُرَّاء لا يُقْبِلون على هذا الصِّنْف مِنَ الكُتُب إلَّا إذا وَلِيَ صاحِبُها شيئًا مِنْ أمر النَّاس، وصاحِبُ تلك السِّيرة إمَّا أن يكون أديبًا، أوْ باحثًا، أوْ أستاذًا في المعهد أو الجامِعة، وليس في ذلك سِرٌّ يُكْشَف، ولا حقيقةٌ تُجْلَى، وما يكتبه لا يُهِمُّ أحدًا سِوَاه!

نقرأ هذا لدى أحمد أمين في كِتابه **حياتي**، لكنَّه سَرْعان ما يَرْجِع عنْ رأيه؛ فَزَمَنُ إنشاء سِيرَتِهِ تَقَوَّضَتْ فيه أركان

---

(١) - صحيفة **الرِّياض**، ٢٤ مِنْ شهر رجب سنة ١٤٣٣هـ = ١٤ حزيران (يونيو) سنة ٢٠١٢م.

الأرستقراطيَّة، وأزهرَتْ في الأرض مَخايِل الدِّيمقراطيَّة، وجَعَلَ النَّاسُ يقرأون سِيَرَ العامَّة، كما يقرأون سِيَر المُلُوك، وأقْبَلُوا يلتمسون ما تُخَبِّئه الأكواخ، وقدْ كانوا، بالأمس، يَطُوفون بِقُصُور النُّبلاء، فلماذا، إذنْ، لا يُدَوِّن حياته؟!

وحِين صَحَّ عَزْم إحسان عبَّاس - وهو ما هو - على أن يكتب سِيرته، نَصَحَ له شقيقه بكر عبَّاس أن يَعْدِلَ عنْ ذلك؛ فحياة إحسان «تخلو أوْ تكاد مِنْ أحداث بارزة، تثير اهتمام القارئ وتطلُّعاته»، ولكنَّه أثبتَ طَرَفًا مِـمَّا كَابَدَهُ في سِيرته البديعة **غُرْبة الرَّاعي**، وألفَى فيها القُرَّاء ما هو قَمِينٌ بالقراءة والتَّأمُّل.

ومَعَ ذلك فنحن نقرأ في الصَّفحة الأُولى مِنْ **مُذَكِّرات** محمَّد كُرْد عليّ الكلام نَفْسه، وهو إلى عِلْمه الواسع بالأدب واللُّغة والتَّاريخ = وزيرٌ وسياسيٌّ اقترن اسمه بأحداث جِسَام في تاريخ وطنه سوريَّة، وتاريخ أُمَّته العربيَّة. وفي تلك الصَّفحة يَعْتَذِر كُرْد عليّ لقارئه: فكاتِبُ هذه المذكِّرات «رَجُلٌ ما كان في مَقَامٍ تَشْخَصُ إليه أبصار العالَم، ولا هو مِنْ أُمَّةٍ كان له التَّقديم والتَّأخير في مَجْرَى سياستها».

ولكنَّ كُرْد عليّ وأحمد أمين وإحسان عبَّاس وآخَرين =

كَتَبَ كُلُّ واحدٍ مِنْهم قصَّة حياته. دعاها نَفَرٌ «سِيرة ذاتيَّة»، وأسماها قومٌ «مذكِّرات»، وأرادها آخرون «ذكريات»، ولكنَّهم جميعَهم عَدَوْا هذا القَيْد، فإذا بالمُلُوك والرُّؤساء والزُّعماء والوزراء والأدباء والأطِبَّاء والمُحامين والمُعَلِّمين والعسكر يَلَذُّ لهم أن يُصَنِّفوا في أحوال أَنْفُسِهم، وقَرَأْنا تلك العِبارات في غير سِيرة وفي غير كِتاب، وابتسمْنا لها حِين قرأناها، ولَعَلَّنا مَرَرْنا بها سِرَاعًا ولمْ نُعِرْها فَضْل عناية.

وللشَّاعر والنَّاقد الإنـگليزيّ كولردج رأْيٌ آخَر، وعنده أَنَّ «أَيَّة حياة مهما كانتْ تافهة ستكون ممتعة إذا رُوِيَتْ بِصِدْق»[1]. وهذا قول صحيح، فنحن نُحِسُّ في أَنْفُسنا مَيْلًا إلى مَن يَقُصُّ علينا طَرَفًا مِنْ حياته، نُصْغِي إليه، ونَشْرَكه فيما يَقُصُّ ويروي ما أجادَ القَصَّ وأَحْسَنَ الرِّواية، وما قاله كولردج يَعْضُدُه ما أَخَذَتْ به الرُّومنْطيقيَّة، ويُقَوِّيه ما فَسَحَتْه نظريَّات التَّحليل النَّفْسيّ وفلسفات الوجود للإنسان «الفَرْد»، فغارَ في أحلامه وأحاسيسه، ولاذَ بِنَفْسه، هَرَبًا مِنَ العالَم الخارجيّ المُوْحِش، فكانتِ السِّيرةُ الذَّاتيَّةُ صوتَ الإنسان الفَرْد في وجه الجماعة،

(١) - ويليك، رينيه، وأوستن وارين. **نظريَّة الأدب**، ترجمة محيي الدِّين صبحيّ، مراجعة حسام الخطيب (بيروت: المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشْر، ١٩٨٧م)، ص ٧٧.

تتسَلَّطُ عليه دواعي الكتابة، فيكتب قصَّة حياته تَسْويغًا لها، ودِفَاعًا عنْ مبدأ، نقرأ فيها رغبة سلامة موسى في «أن يُسَوِّي حِسَابه مَعَ التَّاريخ»، ونُلِمُّ **فيها بما اصطنعه** محمَّد كُرْد عليّ مِنْ جراءة، فلمْ يُوَفِّرْ أَحَدًا، ولمْ يتحفَّظْ، ولمْ يُوَارِبْ، وما أَهَمَّهُ رِضَا هذا ولا غضبُ ذاك

رُبَّما يتألَّم بعض مَنْ عَرَضْتُ لِذِكْرهم بما قدْ يُسْخطهم، فأنا لا أحفل غضبهم، ولا أسعى إلى رِضاهم. ولَعَلِّي تَعَمَّدْتُ أحيانًا هَتْك سِتْرهم لأنَّهم يهتكون بأعمالهم سِتْر هذه الأُمَّة لا يُبالون.

وإذا كُنْتُ لمْ أَسْتَخْذِ أمام مَنْ كان في أيديهم النَّفْع والضَّرّ، فأنا لا أُصانع مَنْ لا يُرْضيهم إلَّا سُكُوتي عنْ مَساويهم. دَأَبْتُ على قتال الأردياء، والشَّبابُ غَضٌّ، والرَّغبةُ في إطالة حَبْل الأَجَل عظيمة، فَحَرِيٌّ بي أَلَّا أكُفَّ عنهم، وأنا أطوي آخِرَ مراحل العُمْر، وأنفض اليَدَ مِنْ بَهْرج الحياة.

قَصَدْتُ بما دَوَّنْتُ التَّحذير مِنْ دَجَل الدَّجَّالين، والتَّنبيه على أحابيل المُبْطِلِين، والعمل على مكافحة الظَّالمين، لِيُعْرَف أنَّ كُلَّ جِيل لا يخلو مِنْ دُعاة يحلو لهم الجهر بالحقِّ مهما جَشَّمهم، ومِنْ أفضل الطُّرُق إليه ضَرْب السُّفهاء في وُجُوههم بعيوبهم

على أنَّ في كتابة السِّيرة الذَّاتيَّة غاياتٍ أُخَرَ: مِنْها دَفْع شبح الموت بالكتابة، ومِنْها الحنين الجارف الَّذي نَعْنُو له، كُلَّما استعدْنا طَرَفًا مِنْ حياتنا الماضية، ونكون، آنئذٍ، «كمن يعيش عُمْرَهُ مَرَّتين»[١].

تذكَّرْتُ ألوان الاعتذار، وأنا أقرأ الصَّفحة الأُولى مِنْ كِتاب **المِعْلَامَة** لعقيليّ عبد الغنيّ الغامديّ[٢]، فأَذْكَرَتْني كلماته ما كُنْتُ قَرَأْتُه، مِنْ قَبْلُ، في غير سِيرة ذاتيَّة

وهذه الذِّكريات ليستْ (مذكِّرات) مسؤول كبير ذي شخصيَّة مرموقة، وإنَّما هي تسجيل ورَصْد لشريحة زمانيَّة أوْ مكانيَّة، ولِجُزْء مِنْ حياة مجتمع مِنْ خِلَال المظهر التَّعليميّ التَّربويّ والاجتماعيّ، منذ دخولي المدرسة النِّظاميَّة تلميذًا على مدى خمسين عامًا، بما اتَّسَمَتْ به الحياة والتَّعليم، حينذاك، مِنْ بساطة وعادات مدرسيَّة، ومفاهيم اجتماعيَّة. وهي لا تخلو اليَوْمَ مِنْ متعة وتَعَجُّب لمعاصري تلك الفترة، واندهاش ومفاجأة مِنْ جيل اليَوْم، تَبَعًا لِـمَا طَرَأَ مِنْ تطوُّرات وتغيُّرات في المفاهيم والأفكار خلال نِصْفِ قرن مِنَ الزَّمان

(١) – نعيمة، ميخائيل. **سبعون** (بيروت: مؤسَّسة نوفل، ٢٠٠٣م)، ١/ ١٤.
(٢) – الغامديّ، عقيليّ عبد الغنيّ. **المِعْلامة** (الطَّائف: نادي الطَّائف الأدبيّ، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م).

إذنْ لماذا كَتَبَ عقيليّ الغامديّ قصَّة حياته؟

يقول، قَبْلَ كلمته هذه:

لا تخلو حياة الإنسان مِنْ ذكريات ومواقف تُكْتَب فتبقَى،
أوْ تَظَلّ مختزنة في الذَّاكرة، ومَعَ الأيَّام تُنْسَى فَتَفْنَى

إذنْ هو الخوف مِنَ الفَناء، وليس سِوَى الكتابة يَدْفع بها المؤلِّف شبح الموت والفناء. وبقاءُ الإنسان ليس هو البقاء الحقيقيّ المادِّيّ، فالموت غاية كُلِّ حَيّ، ولكنَّما هو الذِّكريات الَّتي تُكْتَبُ فَتَبْقَى، وإنْ لمْ يفعلْ ذلك، فَمَصِيرُها النِّسيان والامِّحاء، فالذِّكريات هي الحياة، والنِّسيان هو الموت، أَمَّا «الأيَّام» فتلوح في كلمته، وكأنَّها أَثَر «الدَّهْر» الَّذي لمْ يُبْقِ شيئًا على حَدَثانه.

وكلمة عقيليّ، رُغْمَ ما فيها مِنْ إشفاق على النَّفْس، يَسْتكِنُّ داخِلَها هَلَعٌ يُوْشِكُ أن يُشْبِهَ هَلَعَ مَنِ اقترفَ جُرْمًا، ويَصِفُ ذكرياته بأنَّها «ليستْ (مذكِّرات) مسؤول كبير ذي شخصيَّة مرموقة»، وهو يتخيَّر لِـمَا صَنَّفَه «الذِّكْريات» لا «الـمُذَكِّرات». فهلْ يَعْني هذا أنَّ «الـمُذَكِّرات» اقترنَتْ بذوي المناصب الخطيرة أوْ مَنْ دعاهم «الشَّخصيَّات المرموقة»، ولعامَّة النَّاس أن يكتبوا «الذِّكْريات»؟

وإذا جاز أنْ أبْلُغَ هذا المبلغ، فَلِمَ قال عقيليّ ما قال؟

أغلبُ الظَّنِّ أنَّه كَتَبَ ذلك، وفي باله كِتاب **مسيرتي في الحياة** للوزير محمَّد بن أحمد الرَّشيد، وهو كِتابُ رَجُلٍ تَصْدُق فيه عِبَارة «الشَّخصيَّة المرموقة» الَّتي لها أنْ تكتب مذكِّرات، وتَعْرِض على النَّاس ما تَمَّ على يديها مِنْ أعمال عِظَام ومهامَّ جِسَام! فكيف يَزْحَم مُعَلِّم ابتدائيّ بذكرياته «مذكِّرات» أُولي النُّفُوذ والقُوَّة والأَيْد!

والطَّريف في الأمر أنَّني أنفقْتُ وقتًا ليس باليسير، وأنا أقرأ ثلاثَ سِيَرٍ، أوْ ذِكريات، لثلاثةٍ مِنَ المُرَبِّين: كِتاب **مسيرتي في الحياة** لمحمَّد بن أحمد الرَّشيد (١٤٢٧هـ)، وهو وزير تربية وتعليم سابق؛ وكِتاب **المِعْلَامَة** لعقيليّ عبد الغنيّ الغامديّ، (١٤٣١هـ)، وهو مُعَلِّم في مدرسة ابتدائيَّة وأديب، وكِتاب **حتَّى لا أنسى، الصَّفحة الأولى** لسعيد المَلِّيص، (١٤٣٣هـ)، وهو نائب وزير تربية وتعليم سابق. وثلاثةُ الكُتُب هذه حَبَسَها أصحابها على حياتهم في التَّربية والتَّعليم، وثلاثةُ المؤلِّفين هؤلاء قَصُّوا على القُرَّاء خمسين سنةً مِنَ الحياة في هذا المضمار. تَشَابَهَ الرَّشيد والمَلِّيص في أعمال الوزارة والشُّورى، ومكتب التَّربية لِدُوَل الخليج العربيَّة، واتَّفق عقيليّ

الغامديّ والمَلِّيص فَقَصَّا طَرَفًا مِنْ تاريخ التَّعليم في الباحة، وما يُطِيف بها مِنْ بلدات وقُرًى.

ساقَ الرَّشيد في مُقَدِّمة كِتابه سبب تأليفه هذه المذكِّرات. قال: إنَّه لا يُدَوِّن سِيرته وَحْدَهُ، ولكنَّه يقيِّد ملامح مجتمع، في حقبة زمنيَّة لا تتجاوز خمسين عامًا، وأَظْهَرَ الكاتب الوزير غايةً مِنْ غايات كِتابه فقال:

> لقدْ أدركْتُ - بِحُكْم مسؤوليَّاتي ووظائفي الَّتي تَقَلَّدْتُها، ومعظمُها في المؤسَّسات التَّعليميَّة - أنَّ بعض الشَّباب في عصرنا الحاليّ لا يُقَدِّرون المكاسب والإنجازات الَّتي تَحَقَّقَتْ حَقَّ قَدْرها، وبعضُهم يحتاج إلى مَزيد مِنَ الحِسّ الوطنيّ الَّذي ينبغي أن يَتَجَلَّى في حماسٍ للعمل وحُبِّ الإتقان. كما أدركْتُ أنَّ كثيرًا مِنَ القِيَم السَّاميَة النَّابعة مِنْ دِيننا الحنيف، والَّتي اعتنقها الآباء والأجداد، وعَمِلوا بها = غَشَّاها الغبش؛ فلمْ يَعُدِ النَّاس يُبْصرونها كما ينبغي أن يُبصروها، فأحببْتُ أنْ أُزِيل بعض هذا الغبش، لِتكون الرُّؤية أوضحَ، وأقربَ إلى الحقيقة؛ فالـحُكْمُ الصَّحيح ينبني على رُؤية صحيحة، و«الحُكْمُ على الشَّيْء فَرْع عنْ تصوُّره».
>
> لقدِ اجتهدْتُ حِين نِيطَتْ بي المسؤوليَّة - ما وَسِعَنِي الاجتهاد - في العمل لمصلحة دِيني ووطني،

وحاولْتُ - مستعينًا بالله، ثُمَّ بالكثيرين مِنَ المُخْلِصين
الأخيار مِنْ أبناء هذا الوطن والمُقيمين فيه - أنْ أَرْقَى
بمستوَى التَّعليم في بلادنا؛ لإيماني بأنَّ نهضة الأُمم
تبدأ مِنَ التَّربية والتَّعليم

سُقْتُ الشَّاهد، على طُوله، لأتبَيَّن منهج محمَّد بن أحمد الرَّشيد في كِتابه **مسيرتي في الحياة**، فالكاتب لمْ يَخْلَعْ، بَعْدُ، عباءة «المسؤول المرموق»، وأسلوبُهُ - وما سَبَقَ نُتْفَةٌ مِنْه - إنَّما هو أسلوب «الوزير» الَّذي يتكلَّم فيسمع له الآخرون، لا أسلوب كاتب السِّيرة الذَّاتيَّة أو الذِّكريات. يتحدَّث، وكأنَّه يخطب في جَمْعٍ مِنَ المعلِّمين والتَّلاميذ، ويُكَرِّر عِباراتٍ طالما سَمِعَها التِّلميذ والمُعَلِّم والطَّبيب والمهندس والمُزارِع، في الإعلام والمدرسة والمعهد والجامِعة، جِمَاعُها حَظٌّ مِنْ بعض شُبَّاننا الَّذين «لا يُقَدِّرون المكاسب والإنجازات الَّتي تَحَقَّقَتْ حَقَّ قَدْرِها»، ويُعيد على أسماعهم أنَّه يُعْوِزهم «مزيد مِنَ الحِسّ الوطنيّ الَّذي ينبغي أن يتجلَّى في حماسٍ للعمل وحُبِّ الإتقان»، وليس ثَـمَّ إلَّا حياة الآباء والأجداد، ففيها القِيَم الصَّالحة والقُدوة الحسنة، مهما «غَشَّاها الغَبَش» في العَصْر الحاضر، ونِيطَ به هو إزالة هذا الغَبَش لِتكُون الرُّؤيةُ أوضحَ!

فإذا نَظَرْنا في كِتاب **حتَّى لا أنسى**، **الصَّفحة الأُولى** لسعيد

المَلِّيص، لمْ نَجِدْ كبيرَ فَرْقٍ بينه وبين كِتاب الرَّشيد، فغاية المَلِّيص أن يُثْبِت للنَّاس مِقدار ما كان عليه المجتمع قديمًا وما آل إليه اليَوْم: لمْ تَذْرَعِ السَّيَّارة قَرْيَتَه، ولمْ يَعْرِفِ «الرَّاديو» صغيرًا، وهو، إذْ يَقُصُّ طَرَفًا مِنْ حياته وما اضطربَتْ به البلاد مِنْ تَحَوُّل = كَمَن يروي أساطير الأوَّلين! فإذا تَحَدَّثَ عن التَّعليم كان حديثه مكرورًا، سَمِعَهُ النَّاس في المدرسة والمعهد، وزاد فكرَّره في كِتابٍ معدودٍ في كُتُب السِّيرة الذَّاتيَّة والذِّكْريات

وهكذا حال التَّعليم أُسُس ثابتة، ورواسخ باقية، إنْ هي استندَتْ على العقيدة، وقامَتْ على تعاليمها التَّربويَّة، فهي بمثابة المنزل الَّذي يجمعنا، أمَّا المتغيِّرات والمستجدَّات فهي تؤثِّر في تهيئة المنزل وتطويره، لِيكون لائقًا بنا في مجتمع يتطوَّر، لأنَّ جدليَّة القناعة والرِّضا بما تَحَقَّقَ مِنْ إنجاز، والشَّغف بتحقيق الأفضل = جُزْءٌ مِنْ ضرورة الوجود الإنسانيّ، فالإنسان مشروع ذاته، فكُلُّ عمل يقوم به، وكُلُّ مسؤوليَّة يَضْطلع بها، وكُلُّ موقف يتَّخِذه، هو جُزْءٌ مِنْ هذا المشروع، وخطوة صَوْبَ تشكيل هُوِيَّته، الَّتي هي مُجْمَل طموحاته واختياراته وقراراته المصيريَّة

ما الَّذي اختلفَ؟

ما قَرَأْناه هو أسلوب «المسؤول»، «المدير العامّ»، «نائب

الوزير»، لا أُسلوب كاتب السِّيرة الذَّاتيَّة أو الذِّكريات. تَسَرَّبَتِ العِبَارات المسكوكة، وغابَ السَّرْد، وامَّحَى التَّخيُّل، وألفيْنا أَنْفُسَنا تُجَاهَ أَثَرٍ أُرِيدَ له أن يكون شيئًا مِنْ شؤون النَّفْس، فاستحالَ لُغَةَ «مسؤول» لمْ يَتَخَلَّ، بَعْدُ، عنْ «عَباءَتِه» ولا عِبَاراته التَّربويَّة، تلك الَّتي لا تصنع مِنَ الكِتاب أدبًا، ولا مِنَ المؤلِّف أديبًا.

هذا ما كان عليه كِتابا الرَّشيد والمَلِّيص، فما الشَّأْن في كِتاب عقيليّ عبد الغنيّ الغامديّ؟

انتخبَ عقيليّ مِنْ كلمات اللُّغة «الـمِعْلَامَة» عنوانًا لكِتابه. و«الـمِعْلَامَة»، في اصطلاح جنوبيِّ الجزيرة العربيَّة هو «الكُتَّاب» في غيرها. والكلمة، على غُؤورها في التَّاريخ، عليها مِسْحة مِنْ عامِّيَّة. على أنَّ اشتقاقها يَدُلُّ على «العِلْم»، فإذا جُلْنا في أثناءِ الكِتاب أدركْنا أنَّه ما انفكَّ يَحْمِل صاحِبه إلى حياة تَرْقَى به مِنَ الجهل إلى المعرفة.

لَمْ يتقلَّدْ عقيليّ الغامديّ مهنة سوى التَّعليم والتَّعلُّم؛ مُعَلِّمًا للتَّلاميذ، ودارسًا في المعهد والكُلِّيَّة. ينتقل مَعَهُ قارئه مِنْ مسقط رأسه «رغدان» إلى غير ناحية في الباحة، ويهبط الطَّائف غير مَرَّة، ثُمَّ لا يلبث، بعد حِين، أن يتَّخِذه دارًا وسكنًا، وهو في

إلمامه بهذه القرية أوْ تلك، وفي نُزُوله الطَّائف = لا يَعْدُو أن يختلف إلى تلك المدرسة مُعَلِّمًا، وإلى ذلك المعهد مُتَعَلِّمًا، ونقرأ في ذكرياته طَرَفًا مِنْ نشأة التَّعليم في الباحة وما يكتنفها مِنْ بلدات، ونَعْرِف مِنْ قَصِّه جوانبَ مِنْ حياة الطَّائف، تلك المدينة الَّتي خَلَبَتْ لُبَّ الطِّفْل حِين قَصَدَها أوَّلَ مَرَّة، ونَعْرِف كيف تَرَقَّى التَّعليم، وكيف نهض به رادة مِنَ المُعَلِّمين، وكيف تَحَوَّلَتْ مدارسنا مِنَ الـحَجَر القديم إلى الإسمنت الحديث.

نَعرِف كُلَّ ذلك في يُسْرٍ وأناةٍ، دُونَ أن يتدرَّع بِزِيِّ الواعظ والمرشد، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ ما نَهَدَ إليه عقيليّ لا يَعْدو ضَمِير الإنسان الأديب الكاتب، يُرِيد مِنْ كَتْبِه حياتَه المتعةَ واللَّذَّة، ويَحْمله على تقييده حَنِينٌ جارفٌ إلى ما عاشه، فأَحَبَّ أن يُقْبِلَ عليه النَّاس ويقرأوه أدبًا سهْلًا يسيرًا، لا يتكلَّف له النُّصْح ولا الإرشاد، ولا يَسُوق بين يَدَيْ كلماته ما يَصْرِف قارئَه عنْ كِتابه فيَمَلُّه ويَجْفُوه.

لمْ يَفْعَلْ عقيليّ ذلك، وأنبأَ كِتابه عنْ إنسان يستنكر تَطْرِية تاريخه. عافاه الله مِنْ أن يكون «مسؤولًا مرموقًا» فكان كاتِبَ سِيرةٍ مرموقًا، ومَرَدُّ ذلك أنَّه أراد أن يَظْهَر للنَّاس كما هو، وأنْ لا يُكَلِّف نَفْسه فَوْقَ ما تُطيق، وكان في طُول سِيرته إنسانًا أحبَّ

الحياة، وأشاعَ فيها البهجة والسُّرُور، وقابَلَ حياته القاسية الجاسية بالسُّخْر والتَّندُّر. يَسْخر ويتندَّر مِنْ أصدقائه، ويَسْخر ويتندَّر مِنْ نَفْسه، ولمْ يُصَبْ بأدواء العُقَد والأمراض النَّفْسيَّة، فباحَ بما لا يستطيع غيره أن يبوح به، ولمْ يَشَأْ أن يَلُفَّ حياته وسِيرته بلفائفَ مِنَ التَّزَمُّت والاحتياط والتَّقوَى.

ومهما نَقْرَأْ في **المِعْلَامَة** مِنْ كلمات عنِ التَّعليم، ومهما نَقْرَأْ فيها مِنْ تَرَقٍّ في أطواره، فلنْ نَجِدَ فيها خُرُوجًا على شَرْط السِّيرة الذَّاتيَّة. وهو لا يَعنيه مِنْ كُلِّ أولئك إلَّا حياة إنسان فَرْدٍ، هو عقيليّ عبد الغنيّ الغامديّ، وقارئُ **المِعْلَامَة** ينسج مِنْ تلك الأنوال حياة ذلك الإنسان الفَرْد، في جِدِّه وهَزْله. وأنا في كُلِّ ما وَقَفْتُ عليه لمْ أَجِدْهُ يَسُوق بين يَدَيْ كِتابه كلماتٍ تُذْكِر القارئ بما ساقه الله على يديه مِنْ أمر التَّربية والتَّعليم. إنَّه لا يفعل ذلك، وحَسْبُهُ أن يُذْكِر قارئَه أنَّه وَفِيٌّ لِنَفْسه في كُلِّ أحوالها.

لمْ يَصطنِعْ عقيليّ الغامديّ مِرآةً رمزيَّةً في سِيرته، والمرآة تستكِنُّ خَلْفَ كُلِّ كتابة عنِ النَّفْس، وذلك أنَّ الإنسان ما إن يرى صُورته فيها، حتَّى يُصْلح مِنْ شأن هيئته ويُسَوِّيها، يُطَرِّي وجهه بألوان مِنَ الأصباغ، ثُمَّ يَسُوق حياته، ويُقْسِم أنَّه لن يقول

فيها إلّا الحَقّ ولا شيْء غير الحَقّ، وإذا بنا إزاءَ إنسان «كامِل».
أمَّا عقيليّ فَبَرَزَ لقارئه كما هو، أفصحَ عنْ عيوبه ومَنَاقِصه:
يلتحق، وهو مُعَلِّم، بمعهد، فلا يملك إلَّا أن يَغُشَّ هو وزملاؤه
المُعَلِّمون، ويفتضح أمرهم، ويترصَّد لهم مدير المعهد فَوْق
السَّطْح فإذا بهم يغازلون شابَّة مجنونة ترقص في عمارة مقابلة،
ويروي أنَّ جمهرة مِنَ المعلِّمين الَّذين اختلفوا مِثْلَه إلى معهد
تكميليّ = كانوا يتعاطَوْن حُبُوب «الكنغو»، يدفعون بها النَّوم،
وأنَّه جَرَّبَ حَبَّةً مِنْها، يَظُنُّها دواءً، ولَبِثَ، قليلًا، وغَطَّ في نوم
عميق! وأنَّه استرَقَ هو وصَحْبه حَطَبًا ليوقدوا نارًا يَصْطَلُون بها
مِنَ البَرْد!

والمِعْلَامَة سِيرة ساخرة، بلْ إنَّها ممعنة في السُّخْر والتَّنَدُّر، وتُوشِكُ صفحاتها أنْ تَقْتَصِر عليهما. على أنَّ الكاتبَ لمْ يتكلَّفْهما، وكانا ألصقَ بِسِيرةٍ تَرَقَّى فيها صاحِبُها مِنَ الجهل إلى المعرفة، ومِنَ الطَّبيعيّ السَّاذَج إلى الثَّقافيّ المصنوع: يُشَاهِد في الطَّائف عَمَّته تُنَظِّف «الملوخيَّة» فيحسبها «رَيْحانًا»، ويَدْرُس الإنـگليزيَّة فيلفُظ كلمتيْ (ييس... نو) بلهجته القرويَّة، فينفجر المعلِّم والتَّلاميذ ضحكًا، ويرى في «حَمَّامات» المعهد «صناديق الطَّرْد»، ولا يَعْرِف ما هي؟ ولمْ تَسْتَهْوِهِ صُورته في «التَّابعيَّة» فَمَزَّقَها، واستبدل بها أُخرى حديثة، ونجا مِنْ تَبِعَتِها

بأعجوبة، وألفى قَروِيٌّ في «التَّابعيَّة» صفحات تخلو مِنَ الكتابة، فدَوَّنَ فيها ما عليه مِنْ دَيْن! ولا يَعْرِف زميلٌ له عِبَارة «الفَقْر المُدْقِع»، ويَنْطِقُها «الفقْر الـمُطْقِع»، فينفجر زملاؤه ضحكًا، وعَرَفَ الأستاذ، بَعْدَ لَأْيٍ، أنَّ تلميذه المُعَلِّم قَصْدُه حسن!

لا نقرأ في **المِعْلَامَة** سِيرة «مسؤول مرموق»، ولكنَّنا نقرأ سِيرة «رَجُل» مِنْ عامَّة النَّاس، أنشأَها، كما هي، ساذَجةً يسيرةً، فَبَرَزَتْ مُبَرَّأَةً مِنَ الشِّيَات والـمَنَاقِب، لا يُفْصَل فيها خطأٌ عنْ صواب، ولمْ نُمْسِكْ موعظةً ولا نُصْحًا، أراد لِـحُسْنها أن يكون غير مجلوبٍ بتَطْرِيَةٍ، ولمْ يَدَّعِ البُطُولة والفُروسيَّة، وكان إنسانًا مِنْ عُرْض النَّاس.

كِتَابة الذَّات[1]

إذا كان الأدبُ ألصقَ أنواع الكتابة بالذَّات، فلا رَيْبَ أنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة أقربُ تلك الأنواع إليها، وليس يتحقَّق قَدْرٌ كبيرٌ مِنَ الصِّدق في سِوى هذا الضَّرْب مِنَ الكتابة، وفيها تتَّخِذ الذَّات الكاتبة نَفْسها موضوعًا للكتابة وغايةً لها، وفيها تبلغ النَّفْس سِدْرة الكشف والتَّجلِّي، وهي الغاية الَّتي ترنو إليها السِّيرة الذَّاتيَّة، بلْ عساها تكون الغايةَ الَّتي يَشِيم الأدب البصر إليها، فيما عالجه الأدباء والكُتَّاب مِنْ ألوان الكتابة وتصاريف القول.

وعلى ما في الحديث عن النَّفْس مِنْ مَظِنَّة التِّيه والعُجْب؛ فإنَّ فيه بعثًا لألوان مِنَ الحنين والذِّكْرى، وأنتَ لا تملك إلَّا أنْ تُنْصِتَ، وترميَ سمعك إلى مَن يَقُصُّ عليك طَرَفًا مِنْ حياته، ولوْ

(١) - صحيفة الرِّياض، ٣٠ مِنْ شهر رجب سنة ١٤٢٧هـ = ٢٤ مِنْ شهر آب (أغسطس) سنة ٢٠٠٦م، ١٤ مِنْ شهر شعبان سنة ١٤٢٧هـ = ٧ مِنْ شهر أيلول (سبتمبر) سنة ٢٠٠٦م.

لمْ يَكُنْ في تلك القصَّة مِنَ الغرابة ما يَشُدُّكَ إليها، ويتساوى في ذلك تأمُّل الرَّسائل القديمة، والصُّوَر الشَّخصيَّة الَّتي أتى عليها حِينٌ مِنَ الدَّهر، واحتلَّتْ مكانًا عَلِيًّا في ذاكرة صاحِبها، فإذا النَّفْس مشدودة إلى ذلك الزَّمن تلتمس في أثنائه معنًى للحياة، وإذا التَّوَلُّع بما مضى مِنْ ذكريات يُوشِك أن يصبح ضَرْبًا مِنَ القداسة، لا يُقيم لها وَزْنًا إلَّا مَنِ اتَّصَلَ بذلك الماضي الَّذي لن يعود = وإذا بنا نُلْفي في كُلِّ سِيرة ذاتيَّة ما يَشُدُّنا إليها، مهما عَرِيَتْ مِنْ أُصول الفنّ والأدب، فَحَسْبُنا ذلك الحنين الَّذي ينسابُ مِنَ الكاتب إلى القارئ، وكأنَّه «العَدْوى»، تلك الَّتي لَهِجَ بها نُقَّادُ الرُّومنْطيقيَّة وفلاسفتُها.

بلْ لَعلَّنا لا نَظْفَرُ مِنْ هذه السِّيرة أوْ تلك إلَّا بِعِبَاراتٍ مكرورةٍ أَلِفَها القُرَّاء، جاء عليهنَّ النَّاقد الفرنسيّ جورج ماي، وعَدَّها مِنَ الرَّواسم المألوفة في السِّيرة الذَّاتيَّة

> فما أكثرَ الآباءَ المفرِّطين في جفائهم! وما أكثرَ الأُمَّهاتِ المفرِّطاتِ في حُبِّهنَّ! والمدارسَ والسُّجُونَ! وتيَقُّظَ الغرائز! وما أكثرَ ضحايا اللُّؤم البَشَرِيّ، أو الظُّلم الاجتماعيّ، أو العِشْرة السَّيِّئة! على أنَّ في التَّجربة مِنَ المفاجآت ما يَسُرُّنا أحيانًا[1]

---

(١) - ماي، جورج. السِّيرة الذَّاتيَّة، تعريب محمَّد القاضي وعبد الله صولة (قرطاج: بيت الحكمة، ١٩٩٢م)، ص ٢٢.

وفي هذه الخَصلة - خَصلة الشَّوق والتَّعلُّق بالماضي - قُوّة السِّيرة الذَّاتيَّة وضَعفها؛ فأمَّا القُوَّة فمبعثُها هذا الحنين المتَّصِل، وذلك الشَّوق الملتهب، وأمَّا الضَّعْف فَمَرَدُّهُ اكتفاء الكاتب بسرد حياته كيفما اتَّفق، وكأنَّما الشَّأن: «ماذا قال؟» لا «كيف قال؟»، ذلك أنَّ الشَّأن في السَّرد ليس سِوى تلاؤم «القصَّة» و«الخِطاب»: فأمَّا القصَّة ففي الحكاية الَّتي يُؤدِّيها الكاتب إلينا؛ وأمَّا الخِطاب ففي الأسلوب الَّذي أُدِّيَتْ به تلك الحكاية، ويستوي مِنْها نَصٌّ أدبيٌّ، يبعث ألوانًا مِنَ الدَّهَش والغرابة. وفي تلك المقدرة على الأداء تدنو السِّيرة الذَّاتيَّة مِنَ الأدب أوْ تبتعد؛ تميل إحدى كِفَّتَيْها إلى «التَّخييل»، فإذا هي أدبٌ خالصٌ، وإذا صاحِبُها أديبٌ مُنْشِئ، = وإلى «التَّحقيق» فإذا هي ضَرْبٌ مِنَ التَّاريخ والوثائق، وشاهِدُ ذلك ما تنطوي عليه «مذكِّرات» السَّاسة مِنْ حقائقَ، هي الغاية مِمَّا يَرُومُهُ أولئك السَّاردون.

غير أنَّ الكتابة عن الذَّات ليستْ تُجافي الأدبيَّةَ كُلَّ حِين، مهما لامستِ الحقيقة والتَّاريخ ودَنَتْ مِنْهما، ومهما جارَتْ على طُرُق السَّرد ومذاهبه، ذلك أنَّ فيها قَدْرًا مِنَ «الفرديَّة» الَّتي لا يكون الأدب أدبًا إلَّا بها، ويَسُوغ ذلك في مذكِّرات السَّاسة ومَنْ إليهم، متى عَرَفْنا أنَّ ألوانًا أُخرى مِنَ الكتابة، لا صِلَة

لها بالأدب، معدودةٌ في «السِّيرة الذَّاتيَّة»، بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوه؛ وها هو ذا النَّاقد الأمريكيّ بول دي مان يوسِّع معنى السِّيرة الذَّاتيَّة؛ فيراها حاضرةً في كُلِّ كِتاب، وعنده «أنَّ كُلَّ كِتاب له صفحة عنوان تَحْمِل اسْمه واسْم مؤلِّفه، هو نوع مِنَ السِّيرة الذَّاتيَّة»[1]، ورائد هذا النَّاقد أنَّ الكتابة تَصِلها بـ«ذات» كاتِبها وشيجة، وأنَّ فيها مِنْ نَفْسه ومِنْ رُوحه لأثرًا يجعل الكِتاب ضَرْبًا مِنَ الحكاية. أمَّا القارئ فليس بأقلّ شغفًا وتَعَلُّقًا بالسِّيرة الذَّاتيَّة مِنَ الكاتب، وإنَّه لَيتأمَّل نَفْسه ويُدِيم النَّظَر إليها، كما كان الكاتب، مِنْ قَبْلُ، يُدِيم التَّأمُّل والنَّظَر، و«إنَّنا حِين ننحني على كتف «نرسيس إنَّما نرى وَجْهَنا لا وجهه منعكسًا على صفحة ماء النَّبْع»[2].

وكُلُّ شيْء يَدُلُّ على أنَّه لولا هذه الوشيجة الَّتي تَصِلُ القارئ بالكاتب، ما كان للسِّيرة الذَّاتيَّة مقامٌ في سُلَّم الأنواع الأدبيَّة، ولَعَلَّ غاية تلك الوشيجة إنَّما هي البحث عنْ سؤال يختفي في أوصال «الأنا» ومَساربها، يبتغي القارئُ، مِنْ ورائه،

(١) - حافظ، صبري. «رَقْش الذَّات لا كتابتها: تحوُّلات الاستراتيجيَّات النَّصِّيَّة في السِّيرة الذَّاتيَّة»، مجلَّة أَلِف؛ **مجلَّة البلاغة المقارنة**، القاهرة: الجامِعة الأمريكيَّة (العدد الثَّاني والعشرون، ٢٠٠٢م)، ص ٩.

(٢) - ماي، جورج. المرجع السَّابق، ص ١١٨.

التَّلصُّص «الشَّرعيّ» على أسرار الآخرين، وكُلَّما تَكَشَّفَتْ هذه السِّيرة أوْ تلك رأيْنا أَنْفُسَنا فيها، فتثير ضُرُوبًا مِنَ الفَرَح والحُزْن، والإقدام والإحجام، ودُرُوسًا مِنَ التَّاريخ الشَّخصيّ، على ما بين تلك السِّيَر مِن اختلاف.

وفي هذا المنزع تتنزَّل سِيرة عبد الرَّحمن السَّدحان **قَطَرَات مِنْ سحائب الذِّكرى**[1]، وتَرفع نَسَبَها إلى ذلك النَّوْع الأدبيّ. ولَعَلَّ اهتمامي بها، مَرَدُّهُ مقامُ صاحِبها في حياة النَّاس. تُرى ما الَّذي سيُؤدِّيه إلينا عبد الرحمن السَّدحان، رَجُلُ الدَّوْلة والكاتبُ الصَّحفيّ؟ وما الَّذي ستبعثه سِيرته في أَنْفُسِنا مِنْ ألوان الرِّضا أو السُّخط؟ وما حَظُّها مِنَ الفنِّ والتَّجويد؟

وقَطَرَات مِنْ سحائب الذِّكرى، في الصَّدْر الأعظم مِنْها، سِيرة طِفْل أَطَلَّ على الحياة في مدينة أبها، لأبٍ نَجْديٍّ وأُمٍّ عسيريَّة، وأَلَحَّ عليه، منذ دَبَّ ودَرَج، سؤال «الهُوِيَّة»، وعساه أدركَ شيئًا مِنْ معناها، يَوْمَ عَرَفَ أَنَّه نِتاج ثقافتين وبيئتَيْن اجتماعيَّتين مختلِفَتَيْن، كما كان محمَّد عبد الحميد مرداد، مِنْ قَبْلُ، تتنازعه هُوِيَّتان: حاضرةُ مكَّة المكرَّمة وباديتُها. وبينما نَشَأَ

(١) - السَّدحان، عبد الرَّحمن محمَّد. **قَطَرَات مِنْ سحائب الذِّكرى** (الرِّياض: المؤلِّف، مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م).

مرداد في ضاحية الزَّيمة بدويًّا خالِصًا، لا يكاد يُسِيغ حياة أهله في الحضر = ألفَى عبد الرَّحمن السَّدحان نَفْسه طِفْلًا ريفيًّا، وُلِدَ ونَشَأَ في أبها، واستخلصَتْه عسير لِنَفْسها، فَنَشَأَ عسيريًّا خالصًا في المأكل والمَشْرَب والمَعاش، واستعلنَتْ هذه النَّشأة في لسانه، ثُمَّ استقوَتْ بَعْدَ أنْ تَبَدَّدَتْ حياة والِدَيْه. لمْ يُسِغْ والِدُهُ عَمَل زَوْجِه العسيريَّة في الزَّرْع والضَّرْع، وكابَدَتْ والدتُه تبايُن الحياة بين المدينة والرِّيف، ولمْ تَحْتَمِلْ ألوان الحَجْب والمَنْع

فوالدي القادم مِنَ «القرائن»، بالقُرْب مِنْ شقراء وسط نَجْد، كان ينتمي إلى أُسْرة محافظة جِدًّا، دينيًّا واجتماعيًّا، شأنها شأن سائر الأُسَر الأُخرى في مُدُن وقُرى تلك المنطقة، وخاصَّةً ما يتعلَّق بموضوع «سُفُور وجه المرأة» وخروجها إلى الأماكن العامَّة، إذْ كان والدي يرى في ذلك «خَطًّا أحمرَ» لا يمكن تجاوزه.

أمَّا والدتي فَقَدْ وُلِدَتْ وترعرعتْ في بيئة زراعيَّة دِينيَّة محافظة، لكنْ لمْ يَكُنْ في محيطها الأُسريّ أوْ بيئتها الاجتماعيَّة «تابو» يَحْظُر عليها العمل في المزرعة، كُلَّما كان ذلك ممكنًا، أو الاحتطاب في الجِبال والتِّلال المجاورة لمقرِّ إقامتها، أو الذِّهاب إلى سُوق أبها، إمَّا لبيع بعض منتجات مزرعة والدها، أوْ شراء ما تحتاج إليه العائلة مِنْ غذاء وكساء ونحوه، ولمْ يَكُنْ في ذلك السُّلوك ضَيْر، بلْ كانتِ «الضَّرورة» هي المُسَيِّرة

لسلوك المرأة وسط إطار شَرْعِيّ واجتماعيّ محافظ

ولمْ تستطعْ أنْ تَدْفَع عنها (شُعُورًا بالغُرْبة) في أبها، فقدِ اعتادتْ أنْ تتحرَّك بِحِشْمة وخَفَر داخِلَ المزرعة وخارِجَها، دُون حِجَاب للوجه، وكان الموقع الفريد لمنزل والدها في القرية بعيدًا عنْ أهل القرية وعابري السَّبيل يمنحها حُرِّيَّة الحركة!

كُلُّ ذلك أَثَّرَ في الطِّفْل عبد الرَّحمن، فأنشأَتْ حياتُه تنمو وتترقَّى على الضِّفاف و«الأعراف»، لا يكاد يَعْرِف له «هُوِيَّةً»، وكأنَّما كانتِ «الهُوِيَّة» هي الغاية الَّتي تَكَلَّفَ لها إنشاء سِيرته، فعساه يَظْفَر بها، وعساه يَقْبِض عليها، وقَوَّى هذا الشُّعُور أنَّه كان في عسير: نَجْدِيًّا وعسيريًّا مَعًا، وحَمَلَه تطليق والده لوالدته، ثُمَّ زواج كُلٍّ مِنْهما، بَعْدَ ذلك = على أن يرعاه جَدُّه لأُمِّه، حِينًا مِنَ الدَّهْر، فعَرَفَ اليُتْم وما كان يتيمًا، واضطرَّته نشأته الأُولى في مزرعة جَدِّه، وقدْ نَأَتْ عن الدُّور، أن يُحْرَم مِمَّا عاشه أترابه مِنَ الأطفال، فصارَ طِفْلًا ورَجُلًا في آن، ولمْ يَكُنْ له مِنْ رفيق سوى جَدِّه الشَّيْخ الهَرِم

وكُنْتُ أعيش على هامش طُفُولة ليس لها مِنْ (خُصُوصيَّة) تلك المرحلة سوى الشَّكل، فلمْ أَعْرِفْ مِنَ اللَّهْو البريْء إلَّا اللَّمَم! إذْ أجبرتْني تضاريس المكان وصُرُوف الزَّمان على العيش مؤقَّتًا في مزرعة

جَدِّي بِهِمَّة رَجُل وعَزْم شابّ، ولمْ يَكُنْ لي أنداد مِنْ جيلي يذكِّرونني بـ(أَجِنْدا) المرحلة العُمْرِيَّة الَّتي كانتْ عندي حاضرة وغائبة مَعًا، وكان جَدِّي السَّبعينيّ هو (رفيق) مِشْوار تلك الفترة، ورُغْم ذلك، كُنْتُ أنعم بتناغُم جميل مَعَه!

وكانتْ تتقاسم نَفْسِي أكثر مِنْ (شخصيَّة).

ففي حضور والدتي، كُنْتُ (طِفْلًا) يَهْصِره الشَّوق للحنان، ولمْ تَبْخَلْ عليَّ - رحمها الله - بِكُلِّ ما في الأرض مِنْ حنان!

وفي حضور (جَدِّي)، كُنْتُ (رَجُلًا) يُسَخِّر نَفْسه في خدمة (المهامِّ الصَّعبة)، سواء في رَعْي الغنم وحيدًا بين أحضان الجِبَال، أوْ ساقيًا للزَّرْع في الحُقُول، أوْ سايسًا للبقر وهي تَجلب المياه عَبْرَ (تقنية) خاصَّة تجسِّد بدائيَّة ذلك العصر

عاش عبد الرَّحمن سنوات الطُّفُولة مُقَسَّمَ النَّفْس مُشَتَّتَها، لا يكاد يطمئنُّ به مكان إلَّا رَيْثَما يتحوَّل عنه، في حياةٍ لا يُدَاخِلها الاطمئنان؛ بين أُمِّه وزوجها، وأبيه وزوجه، وجَدِّه وحَقْله، وظَلَّ يَنْهَبُ الأرضَ نَهْبًا بين أولئك أجمعين، وما إن يُلْقِي والدُهُ عصاه في جازان، رعايةً لتجارته وأعماله، حتَّى يتنكَّبَ الصِّعاب، ويَجِدَّ في البحث عنه، ويَبْلُغ جازان، فطارَتْ

نَفْسه شَعَاعًا في بيئة لَمْ يألَفْها، يَلُفُّها الحَرُّ والرُّطُوبة، فإذا طابَ له المقام، وجَعَلَ يَتَّصِل بِمَنْ حوله، أنكرَ أترابُهُ لهجتَهُ العسيريَّة الصِّرْف، على أنَّه لَمْ يلبثْ إلَّا قليلًا فاستعار شيئًا مِنْ رُمُوزها الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة: في اللَّهجة حِين طَعَّمَ كلماته بمفردات جازانيَّة، وفي المَلْبس لَمَّا اتَّزَرَ بـ«الوِزْرَة» وارتدى «الشَّمِيز». ولكنَّ نَفْسه المضطربة لَمْ تَدَعْ قَلْبه مستقرًّا، فَقَفَلَ راجعًا إلى أُمِّه في عسير، فَغَشِيَتْهُ، مِنْ فَوْرِه، خُطُوبٌ تَقَلَّبَ فيها بين الاستقرار والتَّرَحُّل، يَتْبَع أَثَرَ والده في الطَّائف، فَضَمَّه أبوه إليه، وعاشَ، أخيرًا، في كَنَفه ورعايته؛ ينتقل مَعَه أنَّى انتقل، بين مكَّة المكرَّمة وجُدَّة وجازان.

اصطنعَتْ قَطَرَات مِنْ سحائب الذِّكرى الرِّحلة سبيلًا لها، وإنَّها لَتَرْحَل في الزَّمان كما ترحل في المكان. واصطناعُ الرِّحلة سبيلًا للسِّيرة الذَّاتيَّة تقليدٌ ثابتٌ في هذا النَّوْع الأدبيّ، منذ وَضَعَ أحمد فارس الشِّدياق كِتابه **السَّاق على السَّاق فيما هو الفارياق**[1]، ويلقانا شيْءٌ مِنْ ذلك في غير كِتاب مِنْ كُتُب «السِّيرة الذَّاتيَّة»؛ في **رحلة العُمْر** لمحمَّد عبد الحميد مرداد، و**حياتي مَعَ الحُبِّ والجُوع والحَرْب** لعزيز ضياء، ومِنْ سوانح

(١) - حافظ، صبري. المرجع السَّابق، ص ص ٢٢ - ٢٤.

الذِّكريات لحمد الجاسر، و**حكاية الفتى مفتاح** لعبد الفتَّاح أبو مدين، و**وَسْم على أديم الزَّمن** لعبد العزيز الخويطر، و**ذكريات نِصْف قَرْن** لعبد الله القرعاويّ، و**بدايات** لمحمَّد القشعميّ. وكانتِ الرِّحلة، في كُلِّ تلك السِّيَر، أداةً للبحث عن الذَّات، وذريعةً للكشف عن النَّفْس، وعنْ معنًى للحياة والكون، سواءٌ أفْصَحَ الكاتبُ عنْ هذا النَّهْج أَمْ لمْ يُفْصِحْ.

وإنَّنا لنْ نَشْقَى في العُثُور على أَثَر الرِّحلة في هذه السِّيرة، فهي واضحة جَلِيَّة، ولنْ نتكبَّد الصِّعاب في تَطَلُّب مفرداتها، فالكاتبُ كفانا ذلك في فاتحتها، وقال: إنَّ سِيرته «رحلة» لتجربته «المبعثرة في فيافي الزَّمن، رَحلْتُ مَعَها بعيدًا أوْ هي رَحلَتْ بي بعيدًا عنْ موانئ الفرح والحنان والحُبّ، سنينًا قَبْلَ أن يُبَدِّل الله عُسْري يُسْرًا!».

إنَّ الكاتب يَعْرِف أنَّ شقاءَه إنَّما كان في التَّرَحُّل مِنْ بلد إلى بلد، وأنَّ هذه الرِّحلة الشَّاقَّة على فؤاد ذلك الطِّفْل، شَتَّتَتْ ذاته، وبَلْبَلَتْ لسانه، فأَوْشَكَ أنْ لا يَعْرِف لِنَفْسه «هُوِيَّة»، وأنَّى له أن يَعْرِفها، وهو يَحْمِل عصا التَّرحال مِنْ قرية «مُشَيَّع» في عسير، إلى جازان، فالطَّائف، فمكَّة المكرَّمة، فَجُدَّة، فبيروت، فَرِحْلَة؟ حتَّى صارَ جَوَّاب أمكنةٍ، يُلْقِي به الدَّهر في مَهاوي السَّفَر، وما

إن يَهْبِط مكانًا حتَّى يُزَايله، ويَحْمِل مِنْه أَثَرًا في نَفْسه وتكوينه، وإنَّه يَعْرِف مِنْ ذاته قَبُولًا لتلك الثَّقافات الَّتي وُفِّق إليها دُون أترابه، ويَعْجَب لِلِسانه كيف أصبحَ مَشَاعًا لِلَهجة عسيريَّة، وجازانيَّة، وحِجَازيَّة، ولبنانيَّة؟ حتَّى إذا أَمَّ نَجْدًا، والتأمَ فيها شَمْلُ أُسْرته، بَعْدَ طُول ترَحُّل = أَنَى له أن يستَرِدَّ لِسان آبائه

ولَعَلَّ أبرز وأطرف موقفٍ طَرَأَ لي في هذه المدرسة المتوسِّطة كان إلحاح بعض الأشقياء مِنْ زُملاء الفصل الأوَّل المتوسِّط في السُّؤال: إنْ كانتْ جُذُوري (شاميَّة) بسبب بعض الكلمات (اللُّبنانيَّة) الَّتي كانتْ تتسلَّل عَبْرَ لِسَاني أحيانًا بِلا إرادة ولا قَصْد ضِمْنَ فقرات حديثي مَعَهم، فأحاول عبثًا إقناعهم بأنَّني ابن هذا الوطن أبًا عنْ جَدّ، وأنَّني عِشْتُ في أجزاء مِنَ الوطن فتراتٍ متفرِّقةً مِنْ عُمْري، وأَمْضَيْتُ عامًا دراسيًّا في لبنان، ولِذا (تَشَبَّعَ) لساني بخليط مِنَ المفردات بعضُها لبنانيٌّ وبعضُها حجازيٌّ وبعضُها عسيريٌّ، لكنَّني فيما عدا ذلك سُعُوديٌّ حتَّى النُّخَاع!

لَمْ يُخْفِ «الرَّجُل» عبد الرَّحمن السَّدحان فَرَحه وحُبُوره بـ«الطِّفْل» عبد الرَّحمن السَّدحان. صحيح أنَّ سِيرته لَمْ تَقِفْ عند عهد الطُّفُولة، وأدركَتْ عهد الشَّباب، وصحيح أنَّه أصابَ مِنَ العِلْم مقدارًا طيِّبًا، وأنَّه ارتَحَلَ، في سبيله، إلى أمريكة =

غير أنَّه لمْ يُضْمِرْ مَيْله إلى «سِيرة الطُّفُولة»؛ فالوظيفة الكبيرة الَّتي وَصَلَ إليها عبد الرَّحمن، وخَفْض العيش الَّذي نَعِمَ به = كُلُّ ذلك سَبَبُهُ «الطِّفْل» الَّذي شَقِيَ لينعم «الرَّجُل». وكأنَّ المعنى الَّذي أَدَّتْهُ إلينا هذه السِّيرة: أنَّه «وراءَ كُلِّ رَجُلٍ عظيمٍ طِفْلٌ عظيم»! أوْ كأنَّ في هذه السِّيرة مسكوتًا عنه، هو «تسويغ» الحاضر «النَّاعِم» بالماضي «الشَّقِيّ»، ولَطالما اعتدْنا هذا الضَّرْب مِنَ «التَّسويغ»، في كلامٍ لا يَمَلُّهُ التُّجَّار والمُثْرُون وأُولُو النُّفُوذ، يَرْجِعُون ما هُمْ فيه مِنْ راحةٍ واطمئنانٍ وخَفْضٍ في العَيْش = إلى ذلك الماضي الشَّقِيّ، حتَّى إذا تَحَوَّلْنا إلى كُتُب السِّيرة الذَّاتيَّة، رَأَيْنا جمهرةً مِنَ الكُتَّاب يحيطون عهد الصِّبا بالعِصاميَّة والصَّبْر والرُّجُولة المبكِّرة، وكأنَّ الإشادة بالطِّفْل الَّذي كانَ، إنَّما هي إشادةٌ بالرَّجُل الَّذي أصبحَ، وتخفيفٌ مِنْ ألوان العُجْب والتِّيه

لنْ أُفَاجَأ يَوْمًا مِنَ الأَيَّام أن يقرأ هذا الكِتابَ مَن يقرؤه، ثُمَّ يَرْجُم صاحِبَه بالظَّنّ أنَّه صَنَعَ مِنْ رذاذ (خَيَاله) نَصًّا هُنا وآخَرَ هُناك، بحُجَّة أنَّه يتعذَّر على طِفْلٍ في ربيعه السَّابع أو الثَّامن أن يكابد ما كابده صاحِبُ السِّيرة مِنْ وَيْلات الزَّمان والمكان. والرَّدُّ على ذلك يسير، هو أنَّني الشَّاهد الأوَّل على كُلِّ ما حدث، فليس فيما كَتَبْتُ زخرف مِنْ قول أوْ بِدْع مِنْ خَيال!

ولنْ نتكلَّفَ تَبيُّنَ صِدق السِّيرة الذَّاتيَّة مِنْ كَذِبها، وإنْ أَقْسَمَ كاتِبُها، بِكُلِّ يمينٍ مُغلَّظَةٍ، على أن يقول الحَقَّ ولا شيْء غير الحَقّ! ولَعَلَّ صِدْقها يكمن في كَذِبها. ومَثَلُ كاتبِ السِّيرة الذَّاتيَّة كَمَثَلِ مَن يَقِفُ أمام مِرْآةٍ، فهو مُضطرٌّ إلى أن يُصْلِحَ شأنه، ويُعَدِّل مِنْ هيئته

> وكُلُّنا نَعْرِف أنَّ مُجَرَّد النَّظَر في المِرْآة ينطوي آلِيًّا على عمليَّات تحسينٍ للصُّورة، مِنْ تنسيق للهندام، إلى تنظيم للشَّعْر، وما شابَهَ ذلك مِنْ مُسارَعة تلقائيَّة - لا شُعُوريَّة غالبًا وعفويَّة - لإضفاء شيْء مِنَ الرَّوْنق على الصُّورة المعكوسة أمامنا على صفحة المِرآة[١]

وكاتِب السِّيرة الذَّاتيَّة، مهما طَلَبَ الحقيقة والتَّاريخ، غيرُ مستطيعٍ أداءَ ما يطلبه، وإنَّ اللُّغة واختلاف النَّهار واللَّيل يأبيان ذلك، فضمير المتكلِّم الَّذي اصطنعه الكاتبُ، يَدُلُّ بعضَ الدِّلالة على «الطِّفْل»، وعَيْنُ الرَّجُل ليسَتْ هي عَيْنُ الطِّفْل، دَعْ عنكَ الثَّقافة والمِزَاج والشَّخصيَّة. أمَّا ما تَنَاثَرَ في طبقات الزَّمن مِنْ ذكريات فشأنٌ آخَر، وإلَّا فهل بِمَقْدور كاتِبٍ، أيًّا يَكُنْ، أن يُثْبِتَ هذه الحادثة أوْ تلك، بجليلها وحقيرها؟ هذا إذا بَرَأَتْ ذاكرته مِنْ خَلْط أزمنةٍ، وتَخَيُّل أحداثٍ، هُما، عند التَّحقُّق والتَّثبُّت، ليسا إلَّا خَيالاتٍ صاغَتْها ذاكرةٌ ماهرةٌ صَنَاع.

---

(١) - حافظ، صبري. المرجع السَّابق، ص ٧.

في **قَطَرَات مِنْ سحائب الذِّكرى شيْءٌ مِنْ ذلك؛** حارَ الكاتِبُ بين «التَّخييل» و«التَّحقيق»، ولمْ يستطِعْ تمييز هذا مِنْ ذاك، وأقربُ الظَّنِّ أنَّه يساوي ما بين «التَّخييل» و«الكذب»، وعنده أنَّ كِتابه سِيرة ذاتيَّة «لأنَّه يستعين في معظم فُصُوله بفنٍّ السَّرد المُصَاحِب للسِّيرة الذَّاتيَّة»؛ وأنَّه رواية «غير أنَّها تَتَّكِئ على (منظومة مِنَ الحقائق والشَّواهد والمواقف عُرِضَتْ بسردٍ [روائيٍّ] لا خَيَال فيه)!».

وليس مِنْ شأن هذه القراءة أنْ تنساق وراءَ نِيَّة الكاتِب، فالنِّيَّةُ وَحْدَها لا تصنع روايةً أوْ سِيرةً ذاتيَّة، والعَمَلُ الَّذي بين أيدينا مقطوعُ النِّسبة إلى الرِّواية، أمَّا السِّيرة الذَّاتيَّة فَحَقَّقَها الشَّكلُ الاستعاديُّ للسَّرد، وميثاقُ القراءةِ المضروبُ بين الكاتِب والقارئ. وكِلَا النَّوْعين قِوَامُهُ «السَّرد»، ذلك الَّذي يراه رولان بارط ظاهِرًا، بِحَقٍّ، في كُلِّ أنحاء الحياة[1]، وإنَّنا، إذْ نَظْهَرُ عليه في كلام النَّاس، لا ندعو ما يَقْطَعون به أوقاتهم، مِنْ جِدِّ الحديث ولَغْوِهِ، «روايةً»، أوْ «سِيرةً ذاتيَّةً»، أوْ «قصَّةً قصيرةً». وليس بضائرٍ أن يعالِج كاتِبٌ مَّا حياته فيصطنع لها أسلوبًا مُبايِنًا للرِّواية، وحَسْبُهُ أنَّ السِّيرة الذَّاتيَّة مَجَالُها واسعٌ فسيح،

(١) - بارط، رولان. **مدخل إلى التَّحليل البنيويّ للقصص**، ترجمة منذر عيَّاشيّ (حلب: مركز الإنماء الحضاريّ، ١٩٩٣م)، ص ص ٢٥ - ٢٦.

وأنَّ ضُرُوب القول فيها لا يَحُدُّها حَصْر، ودُونَكَ طائفة كبيرة مِنْ هذا الفنّ الأدبيّ، لَمْ يصطنِعْ أصحابُها الأساليب الرِّوائيَّة، ويكفينا أنْ نُذَكِّرَ بأحمد أمين، ولويس عوض، وإحسان عبَّاس، وهؤلاء جميعهم لَمْ يقولوا: إنَّنا اتَّخَذْنا السَّرد الرِّوائيّ معرضًا لأعمالنا.

وسِيرة السَّدحان، إنْ أردْنا بيانًا، أَدْنَى صِلَةً بالحقيقة، وأقربُ وشيجةً إلى التَّاريخ، لَمْ يُعِرْ كاتِبُها أساليب السَّرد فَضْل عِناية، إلَّا شيئًا قليلًا، فإذا مَضَيْنا نتأمَّل ضمير المتكلِّم «أنا» - ذاك الَّذي عليه قِوَام السِّيرة - رأيْناه يَشُدُّها إلى الحقيقة والتَّاريخ، ولَمْ نَظْفَرْ فيها بما يُدْنيها مِنَ «الرِّواية»، وأَذْعَنَ «الطِّفْل» لمشيئة «الرَّجُل»، يذهب به حيث يشاء، ويُمْلِي عليه مِنْ ضُرُوب القول ما يشاء. ولولا ما انطوَتْ عليه هذه السِّيرة مِنْ حوادثَ تُجَلِّي عصاميَّةَ الطِّفْل وشقاءَه وألمَه وفَرَحه وتَرَحه، ولولا ما يبعثه في نُفُوسنا مِنْ حنينٍ إلى زمن الطُّفُولة = لكانتْ أَمَتَّ رَحِمًا بالتَّاريخ مِنْها إلى الأدب، ولكنَّ الطِّفْل أنقذ الرَّجُل في النَّصّ، مثلما أنقذه في الحياة، وأضفَى شيئًا مِنْ متعة، وقَدْرًا مِنْ جَمَال على الجانب الأعظم مِنَ الكِتاب، حتَّى إذا أشرفَتِ السِّيرة على مُنتهاها، آثرَتِ التَّوثيق والتَّحقيق، وأَعْجَلَتْ كاتِبَها عنْ أن يَفْتَنَّ فيما يكتب، وأوشكَتْ أنْ تكون «تقريرًا»، بلْ كانتْ «تقريرًا»

عَرَفْنا مِنْه كيف أصبح صاحِبُ السِّيرة كاتبًا صحفيًّا، وكيف صارَ موظَّفًا، وأَلْمَمْنا فيه بِرُفقاء دَرْبه في أمريكة، وما أصابه مِنْ فَلَاح. وما كان ذلك كذلك إلَّا عندما غابَ شَغْبُ الطِّفْل وشقاؤه وعَبَثُه وفَرَحُه، وآذَنَ غياب الطِّفْل بِتواري أَظْهَرِ خَصْلة في السِّيرة الذَّاتيَّة، وهي ما فيها مِنْ إسماح، وما انطوَتْ عليه مِنْ إنسانيَّة، وشَدِّ القارئ إلى حيث يرى نَفْسه في مرآة الآخَرين.

أرادتِ السِّيرة، في خواتيمها، غايةً مَّا؛ أرادتْ أنْ تستقطر ما استطاعتْ أنْ تستقطره مِنْ سحائب الذِّكرى، واستعانَتْ، على ذلك، بالتَّداعي الحُرِّ للذِّكريات، فرُقِشَتْ على الورق تريد الحقيقة والتَّاريخ، فإذا بِسِيرة عبد الرَّحمن السَّدحان تُوْشِكُ أنْ تُشْبِهَ «السَّحائب» الَّتي قدْ تُمْطِر وقدْ تَحْبِس ماءَها، وإذا بالكاتب يستجدي تلك السَّحائب فعساها تُغيثه، وجَعَلَ يتذكَّر ويُلِحُّ في التَّذَكُّر، وتَكَرَّرَتْ عِبَاراتٌ تَدُلُّ على ذلك، مِنْها: «أذكر في هذا السِّياق»، و«أتذكَّر في هذا السِّياق»، و«مِنْ بين الذِّكريات الحافلة»، فَوَفَى للذَّاكرة وشُغِلَ عن الشَّرْط الفَنِّيّ للكتابة، ولَعَلَّ غياب الطِّفْل - وقدْ بَلَغَ الكاتب سِنَّ الشَّباب والرُّجُولة واستَرَدَّ ذاته وهُوِيَّته = عَجَّلَ بِتَمَزُّق السِّيرة وتَشَتُّتها على الورق، وتَشَعَّبَتِ الذَّاكرة، فَحَارَ الكاتِبُ أيًّا يأخذ وأيًّا

يَدَع؟ فألفى نَفْسَهُ أمام صُوَرٍ مِنْها، وأَلْفَيْنا أَنْفُسَنا إزاءَ صُوَرٍ شخصيَّة، قدْ تُوْمِئ بإصبعها إلى السِّيرة الذَّاتيَّة ولكنَّها ليستْ إيَّاها، ولَعَلَّ نَشْر هذه السِّيرة، مُنَجَّمَةً، في هيئة مقال صحفيّ ذي حُدُود ورُسُوم = أَعْجَلَ الكاتبَ عنْ أن يتحرَّى، فيما يكتب، ما ترجوه السِّيرة الذَّاتيَّة مِنْ تجويد وإتقان.

وإذا كان الطِّفْل هو والِد الرَّجُل - كما يقول وردزورث[١] - فإنَّ الطِّفْل في هذه السِّيرة هو والدُ الرَّجُل ولُحْمَةُ هذا الأَثَر وسَدَاه، فحيث تَوَزَّعَتْ في الأزمنة والأمكنة، وحيث أَلَحَّ الكاتب على بُلُوغ غايةٍ مَّا مِنْ سنوات عُمْره = كانتْ حقبة الطُّفُولة مبعث لَذَّةٍ للكاتب والقارئ مَعًا، ولَعَلَّ القارئ يُغْضِي، كثيرًا أَوْ قليلًا، عنْ حِقَبٍ أُخرى أَلَمَّ الكاتبُ بها سريعًا، ولا سِيَّما الصَّدْر الأوَّل مِنْ شبابه = ولكنَّه غيرُ مستطيعٍ الإغضاءَ عنْ صَبَوَات الطِّفْل وبحثه عنْ معنًى لحياته، وبِوُسْع القارئ أن يسكت عنْ نُزُول الكاتب على شَرْط التَّحقيق دُونَ التَّخييل، وهذا دَأْبُ القارئ مَعَ كاتب السِّيرة الذَّاتيَّة، تقوم صِلَتنا بعمله على الحدب والإشفاق، «وقدْ يأسرنا فَيُحَوِّل أنظارنا عنْ نَقْد

(١) - أوردها جبرا إبراهيم جبرا في سِيرته الذَّاتيَّة **البئر الأولى** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٩م)، ص ١٢.

الضَّعيف والواهي في سرده، ويَحْمِلنا على أنْ نتجاوز له عن الكذب، ونتقبَّل أخطاءه بِرُوح الصَّديق»(١).

كان الطِّفْل صديقًا للقارئ، وكان، كذلك، خَدِين الكاتب، وهو حَفِيٌّ به، مُشْفِقٌ عليه، يفرح لفرحه، ويألم لألمه، ويُحِلُّه مِنْ نَفْسِه المقام الأسنَى. أَحَبَّه الكاتِب، وأَحَبَّه القارئ، وأَحَبَّه غازي القصيبيّ في تَقْدِمَتِهِ لهذا الأَثَر، ورأَيْنا الطِّفْل في خاتمة السِّيرة، كما رأَيْناه، مِنْ قَبْلُ، في بُداءتها، وكأنَّما كان على الكاتب أن يستعيده على الورق، ولا جَرَمَ أنْ تَحَوَّلَتْ سِيرته إلى طِفْل مِنْ ورق. كان، أَوَّلًا، في ظَهْر الغيب، ثُمَّ لمْ يلبثْ أنْ أصبحَ نُطْفَةً تَكَوَّنَتْ في الرَّحِم، وإذا به يستوي، أخيرًا، كائنًا مِنْ كلمات

ولنْ أنسى فضل مَنْ كان له الفضل - بعد الله - في
تحويل هذه الذِّكريات مِنْ (نُطْفة) في (رَحِم) الزَّمن
إلى كيان (ناطق) بما فيه ومَنْ فيه

وسِيرة الطِّفْل عبد الرَّحمن سِيرةُ تَرَقٍّ للمكان، كما هي سِيرةُ تَرَقٍّ للشَّخصيَّة. تَرَقَّتِ الشَّخصيَّة مِنَ التَّشَتُّت إلى الاجتماع، ومِنَ الجهل إلى المعرفة، وتَرَقَّى المكان مِنَ التَّوَحُّش إلى الأُلفة، ومِنَ الانحدار إلى الصُّعُود، ولاءَمَ ذلك ما حَقَّقَهُ الطِّفْل

(١) - عبَّاس، إحسان. فنّ السِّيرة (بيروت: دار الثَّقافة، د.ت)، ص ١٠١.

مِنْ فَلَاح، بَعْدَ إذْ تَقَلَّبَ في أدوارٍ مِنَ الألم والضَّياع والخوف، ويُوشِكُ مَنْزعه أن يُشْبِهِ، بعضَ الشَّبَه، قصص الرُّومانس الَّتي تنهض على «المغامرة» فـ«الانتصار» ثُمَّ «المكافأة»(١). تَحَقَّقَ شيْءٌ مِنْ ذلك لعبد الرَّحمن السَّدحان، حِين كان طِفْلًا، وحِين صار رَجُلًا؛ صَبَرَ فظَفَرَ، فَبَدَّلَ الله عُسْرَهُ يُسْرًا، وكان مصير هذه النَّفس الصَّابرة المطمئنَّة أنْ وَهَبَهَا «الله كُلَّ ما يتمنَّاه إنسان: تأهيلًا للعمل، ورغدًا في العيش، وزوجةً صالحةً».

وخاتمة القول: إنَّ هذه السِّيرة، متى وَصَلْناها بِشَجَرَة الثَّقافة الإسلاميَّة، إنَّما كانتْ ضَرْبًا مِنَ الشُّكْر لله والتَّحَدُّث بِنِعَمِهِ، وأنتَ تَعْرِف أنَّ «التَّحَدُّث بنعمة الله»، مُسَوِّغٌ اصطنعه غير عالمٍ وكاتِبٍ مسلمٍ، مِمَّنْ صَنَّفوا في أحوال أَنْفُسِهم، فَسَاغَ أن يُكَرِّرَ عبد الرَّحمن السَّدحان عِبَارات الشُّكر والثَّناء على الله - عَزَّ وَجَلَّ - ووافَقَتْ خاتمة كِتابه فاتحته

> كُنْتُ في كُلِّ الأحوال مَعَ الله، فكان الله مَعِي، ولولاه سُبْحَانَهُ، لامتدَّ بي عُسْرُ الزَّمان وقَهْرُ المكان وشَظَفُ العيش عهدًا طويلًا! ومَن يدري. فرُبَّما انتهى بي مشوار عُمْري الأوَّل إلى مَفازَة مِنَ التَّشَرُّد في غياهب المجهول!

(١) - رووكي، تيتز. **في طُفُولتي: دراسة في السِّيرة الذَّاتيَّة العربيَّة**، ترجمة طلعت الشَّايب، مراجعة وتقديم رمضان بسطاويسيّ (القاهرة: المجلس الأعلى للثَّقافة، ٢٠٠٢م)، ص ٢٠٩.

غُصْن الزَّيتون وبندقيَّة الثَّائر[١]

لمْ يُقَدِّمِ الوزير الفلسطينيّ نبيل شعث بين يدَيْ سِيرته حياتي.. مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة ما اعتدْنا قراءته عند جمهرة مِنْ كُتَّاب السِّيرة الذَّاتيَّة العربيَّة[٢]، مِنْ ألوان الاعتذار إلى القارئ، ولا نكاد نعثر، في طُول سِيرته وعَرْضها، على ما يُوحِي بِتَهَيُّبه اقتحامَ هذا الضَّرْب مِنَ الكتابة، وأنَّه غير حقيق به، كما هو دَأْبُ أدباء وعلماء ومثقَّفِين لَهُمْ شأنهم في الأدب والعِلْم والثَّقافة، فالعلَّامة إحسان عبَّاس - النَّاقد والمحقِّق الفلسطينيّ الجليل - يُمَهِّد سِيرته الذَّاتيَّة غُرْبة الرَّاعي بكلمات يعتذر فيهنَّ إلى قارئه، مُفَادُها أنَّه ليس في حياته ما يستحقُّ أن يُرْوَى، لولا حُسْنُ ظَنِّ

(١) - صحيفة القبس، ٣ مِنْ شهر رجب سنة ١٤٣٨هـ = ٣١ مِنْ شهر آذار (مارس) ٢٠١٧م، ١٠ مِنْ شهر رجب سنة ١٤٣٨هـ = ٧ مِنْ شهر نيسان (أبريل) ٢٠١٧م.

(٢) - شعث، نبيل. حياتي.. مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة (القاهرة: دار الشُّرُوق، ٢٠١٦م).

أصدقائه ومحبِّيه؛ فهو ليس زعيمًا سياسيًّا، ولا تَحْمِل ذاكرته أسرارًا يَتَحَيَّن القارئُ الظُّهُورَ عليها، ويلقانا الأمر نَفْسه عند أحمد أمين، ورؤوف عبَّاس، ومحمود السَّمرة.

أمَّا نبيل شعث فيَعْتَدُّ تقييد سِيرته الذَّاتيَّة أمرًا واجبًا، بلْ مِنْ أوجب الواجبات، دعاه إلى ذلك حياةٌ تَقَلَّبَ فيها، وخُطُوبٌ أَدَّتْ به إلى السِّياسة والثَّورة والعمل الوطنيّ، وكأنَّما رأى أنَّ أمانة التَّاريخ تقتضي أن يكشف لأبناء شعبه تلك المُخَبَّآت الَّتي أُتيحَتْ له، منذ اتَّصَلَ، في شبابه المبكِّر، بالنِّضال مِنْ أجل فلسطين وحُرِّيَّتها واستقلالها.

إذنْ، لمْ يَرَ نبيل شعث في تدوين سِيرته أيَّ حَرَج، فإذا ما اعتذر إحسان عبَّاس، ومِنْ قَبْلِهِ أحمد أمين، وعبد الكريم الجهيمان وكُتَّابٌ آخرون، عنْ تقييد حياةٍ ليس فيها ما يُغْري بالقراءة، إلَّا ما اتَّصَلَ بأخصِّ شؤونهم = فإنَّ نبيلًا لمْ يعتذرْ، ولمْ يتذرَّعْ بكلماتٍ، يُطَيِّب بِهِنَّ قارئَه، ويُهَدِّئ مِنْ رَوْعِهِ هو، حتَّى يستقيم له الكلام في أحوال نَفْسه، ورُبَّما وَجَدَ كاتب السِّيرة الذَّاتيَّة في ضمير الغائب «هو»، سبيله إلى التَّخفيف مِنْ ثِقْل التَّبِعة، وأعباء الحديث عن النَّفْس.

لمْ يفعلْ نبيل شعث ذلك، بلْ نراه يُثَبِّت على غلاف كِتابه

عِبَارَة «سِيرة ذاتيَّة»، وكأنَّما أراد أن يُذْكِرَ قارئَه أنَّ ما سيُقْبِلُ عليه، إنَّما هو ذلك النَّوْع الأدبيّ الَّذي تكون فيه الذَّات موضوعًا للكتابة، وعساه أَعْرَضَ عنْ تلك العِبَارة الَّتي طالما التصقَتْ بِمَا يُنْشِئه الزُّعماء والسَّاسة، حِين يَسْتَعْفُونَ مِنْ وظائفهم أَوْ يُعْفَوْنَ، ويحلو لهمْ أن يَدْعوه «مذكِّرات»، وقدْ يضيفون إليها كلمة «سياسيَّة»، يريدون فَرْقَ ما بين «السِّيرة الذَّاتيَّة» و«المذكِّرات»، وإن ارتفعا إلى أصْلٍ واحدٍ عند دارسي هذا النَّوْع الأدبيّ.

رُبَّما جازَ لقارئ سِيرته هذه، أن يَجِدَ في عِبَارة «سِيرة ذاتيَّة»، المرقومة على الغلاف، صِلةً بالكاتب، كُلَّما مضى في قراءتها، ولَعَلَّك لا تستطيع، ولوْ رُمْتَ ذلك، أنْ تَحُول بين ما يَخُصُّ الكاتب، وما يَخُصُّ بلاده؛ فحياة نبيل، وما نُشِّئَ عليه، في صِبَاه، وفُتَوَّته، وشبابه، وكُهُولته، وشيخوخته = ليس بمستطاعٍ الحديث عنها دُونَ الحديث عنْ فلسطين، ونَكْبتها، ونضال أبنائها، وثورتهم بالمحتلِّ المغتصِب للأرض والتَّاريخ، فكان نبيل شعث جريئًا مقدامًا في الكتابة؛ إذْ لمْ يُقَدِّمْ بين يدَيْ كِتابه اعتذارًا طالما قرأْناه في سِيَر الأدباء والعلماء، وأَعْرَضَ عنْ مصطلح «مذكِّرات»، مهما كان أثيرًا عند الزُّعماء والسَّاسة، واستبدلَ به مصطلح «سِيرة ذاتيَّة»، وكأنَّما أراد لحياته مِنَ

النَّكبة إلى الثَّورة، أنْ تكون حديثًا عن النَّفْس، وحديثًا عن التَّاريخ.

أَلِفَ نُقَّاد السِّيرة الذَّاتيَّة أن يُمَيِّزوا بين مصطلحات «سِيرة ذاتيَّة»، و«مذكِّرات»، و«ذكريات»، ولهم في ذلك كلام بسطوا فيه مذاهبهم، خُلَاصَتُهُ أنَّ «السِّيرة الذَّاتيَّة» ضَرْبٌ مِنَ الكتابة تكون النَّفْس موضوعًا له، وأنَّها تُصبح «أدبًا» كُلَّما أدارها الكاتب في أحوال نَفْسه.

وما يقوله النُّقَّاد حَقٌّ لا رَيْبَ فيه، ومِنَ الحَقِّ، كذلك، أنَّ أيَّ ضَرْبٍ مِنَ الكتابة يَمَسُّ النَّفْس، على نَحْوٍ يقرب أوْ يبعد، وأنَّ المقياسَ صُدُورُ الكتابة عنْ رأي الكاتب وتقديره للأشياء، فالسِّيرة الذَّاتيَّة «السِّياسيَّة»، ليسَتْ أَثَرًا خالِصًا مِنْ آثار التَّاريخ، وإنْ لمْ تَخْلُ مِنْه، وتدنو مِنَ الأدب كُلَّما لامَسَتْ نَفْسَ كاتبها، وأحلامَه، وآلامَه، وما يُحِبُّ، وما يكره، وعسانا لا نَجِدُ لومًا متى قَرَأْنا في هذه السِّيرة أوْ تلك، تعصُّبًا لفكرةٍ مَّا أوْ نِحْلَةٍ بعينها؛ لأَنَّنا إنَّما نقرأ كِتابًا مَعْدُودًا في «السِّيرة» لا «التَّاريخ»، مهما انطوى على شيء، يكثر أوْ يَقِلُّ، مِنَ التَّاريخ.

والحَقُّ أنَّ نبيل شعث كان يُدْرِك طريقته في الكتابة، كان يَعْرِف فَرْقَ ما بين «السِّيرة الذَّاتيَّة» و«المذكِّرات»، وكان يَعْلَم

أنَّ كِتابه **حياتي.. مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة**، يترجَّح بين «المذكِّرات الشَّخصيَّة» و«الرِّواية التَّاريخيَّة»، ولا شَكَّ أنَّ مَن يستوفي صفحات هذا الكِتاب الضَّخم، يصبح أكثرَ درايةً، وأشدَّ معرفةً، بالقضيَّة الفلسطينيَّة، وجهاد الفلسطينيِّين ونضالهم، وسَيَعْرِف، كذلك، تفاصيل دقيقة تتَّصِل بالحروب، والنَّكبات، وسيقف على المؤتمرات، واللِّقاءات، وعساه يَفْقَهُ شيئًا غير قليل مِنَ السِّياسة العربيَّة والدَّوليَّة = لكنَّه سيدرك أنَّ كُلَّ ما أَدَّاهُ الكِتاب إنَّما يتَّصِل بحياة نبيل شعث وسِيرته؛ فالفُصُول الَّتي بُسِطَتْ عنْ فلسطين، مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة، لمْ تستطِعْ أنْ تُغَيِّب الكاتب، مهما طالَتْ، وما إنْ تُمْعِن الكتابة في «الرِّواية التَّاريخيَّة»، حتَّى تعود، كَرَّةً أُخرى، إلى «المذكِّرات الشَّخصيَّة»، فَخَلْفَ كُلِّ حادثة أَثَرٌ مِنَ الكاتب، وإزاءَ كُلِّ شأنٍ مِنْ شؤون السِّياسة أو الحرب نفْسُ نبيل ورأيُهُ وحُكْمُهُ على النَّاس والمذاهب والأشياء، فإذا أَتَمَّ القارئ الكِتاب، عَرَفَ شيئين؛ فلسطينَ وجهادَها ونضالَها، ونَفْسَ نبيل شعث وأَخَصَّ ما يَخُصُّه في البيت، والشَّارع، والمدرسة، والجامِعة، والمعهد، وأنَّى طَوَّحَتْ به صُرُوف الزَّمان.

نقرأ في **حياتي.. مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة** سِيرة نبيل شعث منذ مولده في مدينة صفد عام ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م، ونَظْهَر

فيها على طَرَف واسع مِنْ تاريخ أُسْرته وآله، وكُلَّما تَقَدَّمْنا فيها ألممْنا بما حَلَّ بفلسطين؛ قُبَيْلَ النَّكبة، ثُمَّ هجرة أُسْرته إلى مدينة الإسكندريَّة، فَحُلُول النَّكبة، ويبسط الكِتاب القول في نشأة تلك الأُسْرة الفلسطينيَّة في الإسكندريَّة، واختلاف أبنائها، ومِنْهم صاحِبُنا نبيل، إلى المدرسة، فالجامِعة، فاستوى فلسطينيًّا ذا ثقافة مصريَّة، حتَّى لَيَظُنُّهُ عارفوه مِنَ المصريِّين، بعد حِينٍ مِنَ الزَّمان طويلٍ، مِصْرِيًّا، لأَنَّه يَرْتَضِخ لهجةً مصريَّةً خالصةً، إذا تَحَدَّثَ إليهم، فإذا آبَ إلى خاصَّة نَفْسه، واتَّصَلَ بأبناء وطنه، استرَدَّ لسانه.

وفي الكِتاب تفاصيل ليس بِوُسْع هذا الفصل استيفاؤها، وبخاصَّةٍ دراسته في أمريكة للظَّفَرِ بدرجَتَي الماجستير والدَّكتوراه، واتِّصاله، آنئذٍ، بحياة الطُّلَّاب العرب فيها، ثُمَّ أَوْبته إلى مصر مَعَ زوجته المصريَّة صفاء وابنته رندا، وعمله، حِينًا مِنَ الدَّهْر، في القاهرة، ثُمَّ تَحَوُّله عنها، إلى بيروت، لِيُؤَدِّي لوطنه فلسطين بعض حُقُوقه عليه، عضوًا بارزًا في حركة «فتح»، في حديثٍ ماتعٍ مُتَشَعِّبٍ طويل، يخرج مِنْه القارئ، إذا ما استوفاه، أشدَّ معرفةً، وأكثرَ خِبْرةً بجهاد الفلسطينيِّين.

ولا أراني مبالغًا إذا قُلْتُ: إنَّ القارئ المثقَّف الَّذي ليس له شأن

بالسِّياسة، يخرج مِنَ الكِتاب، وقدِ استبانَ له مِنْ مُخَبَّآت السِّياسة العربيَّة والدَّوليَّة فَوْقَ ما كان يرجوه، ويكفي أنْ أُلْمِحَ، هُنا، إلى أنَّ قارئ سِيرة نبيل شعث، سيقف، مِنْ كَثَب، على كُلِّ الحروب العربيَّة الإسرائيليَّة، بما فيها نكسة ١٩٦٧م = ١٣٨٧هـ، وسيظهر على تفاصيل «أيلول الأسود»، وحرب الاستنزاف، ومعركة الكرامة، فحرب ١٩٧٣م = ١٣٩٣هـ، وستتيح له هذه السِّيرة أن يَتَّصِل بعشرات الأسماء، وأقربُ الظَّنِّ أنَّه سَيُحِسُّ قُرْبَ ما بينه وبينها، وأنا على يقينٍ مِنْ أنَّ هذا الكِتاب الَّذي عَرَفْنا مِنْه سِيرة وزير ومثقَّف فلسطينيّ مذكور = أَخَذَ بأيدينا فَعَرَفْنا ياسر عرفات، وأبا جهاد، وأبا إياد، وكوكبة مِنَ القادة الفلسطينيِّين، كما لَمْ نَكُنْ نَعْرِفهم، مِنْ قَبْلُ، حِين يفرحون، وحِين يحزنون، وحِين يَذْرِفون الدُّموع. صحيحٌ أنَّ المواطن العربيّ أَلِفَ اسْم ياسر عرفات، كُلَّما أَصَاخَ إلى نشرات الأخبار، في أثناء النَّهار واللَّيل، وصحيحٌ، كذلك، أنَّه اعتاد أسماء زعماء فلسطين وساستها = لكنَّها معرفة لا تعْدُو ما تُؤَدِّيه إلينا تلك النَّشرات، وعساها تنطوي على ما تعتقده تلك المحطَّة الإعلاميَّة مِنْ رأيٍ في السِّياسة، تُجَاه هذا الزَّعيم أوْ ذاك، أمَّا كِتاب نبيل شعث، فَيَجْلُو سِمَات تلك الشَّخصيَّات، كما خَبَرَها، فإذا هي قريبةٌ ذلك القُرْب الَّذي يَصِلُنا بها دُونَ تَطْرِيَة.

وحياتي.. مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة سِيرةٌ ذاتيَّة لنبيل شعث، ويُظْهِرُنا ضمير المتكلِّم في «حياتي» على ذلك، قَبْلَ أنْ نمضي في القراءة، وانبسطَ الكِتاب فإذا هو «سِيرة» لأُسْرة نبيل شعث، و«سِيرة» لفلسطين السَّليبة، و«سِيرة» للسِّياسة العربيَّة والدَّوليَّة الَّتي تَصِلُها بفلسطين وشائج وأواصر. أقول ذلك دُونَ أنْ أَسْلُبَ الكاتِبَ حَقَّه في التَّرجمة لِنَفْسه؛ فَسِيرتُه إنَّما هي سِيرة فَرْدٍ التصقَ بالجماعة، أُتيحَتْ له، منذ نُعُومة أظفاره، حياةٌ عريضة، وَصَلَتْه بالنَّاس والأحداث، وكأنَّما أُريدَ لِسِيرته أنْ تُوْقَفَ على هذه الحياة الضَّاجَّة بالنَّاس، في كُلِّ ناحيةٍ مِنْها، أوْ كأنَّما كانَتْ حياته مصداقًا لأمنية استكنَّتْ في ضمير أبيه عليّ شعث، يومَ دعا الله أن يرزقه ابنًا ينذر حياته لبلاده، فيصبح، في يَوْم مَّا، زعيمًا سياسيًّا، يعمل مِنْ أجل فلسطين. لكنَّنا، مهما تَوَغَّلْنا في الكِتاب، ومهما تَعَمَّقْنا ما فيه مِنْ خُطُوب، سَنُميِّز، في كُلِّ سَطْر نَمُرُّ به، نَفْسَ نبيل شعث، وأملَه، وألمَه، وفَرَحَه، وبكاءَه. وكُلُّ الضَّمائر الَّتي ينطوي عليها الكِتاب، تؤول، مهما تَشَعَّبَتْ، إلى ذلك الضَّمير الفَرْد الَّذي اصطنعه عنوانًا لِسِيرته: «حياتي». وهلْ يَسَعُ فلسطينيًّا أن ينتزع نَفْسه وحياته مِنْ تاريخ بلاده وما يكابده أبناؤها؟ إنَّنا، إذنْ، نطلب شيئًا نُكْرًا، فما ظَنُّكَ بِمَنِ التصقَ بذلك التَّاريخ وتلك المُكابدة؟!

لا رَيْبَ أنَّ سِيرة نبيل شعث كانَتْ سِيرة «الفَرْد» في «الجماعة»، ولن يعدم القارئ أَثَرَ ذلك، كُلَّما تَقَدَّمَ في القراءة، فهو «عربيّ فلسطينيّ»، ارتسمَتْ حياته الَّتي سَطَّرَها في كِتابٍ، «مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة»، بلْ إنَّ الكاتب يحشد طَرَفًا مِنْ مرويَّات الأُسْرة، يُعَمِّق به الشُّعُور بأنَّه ينتمي إلى «أرض» و«جماعة»، وأنَّه يَعْتزي إلى شجرة «العروبة»، وأدرك، في طُفُولته، أنَّه «عربيّ فلسطينيّ»، منذ أطلقَتْ جَدَّته لأبيه، لحظة ولادته، كلمتها: «والله فلسطينيّ غزَّاويّ أسمر وابن شعث»! ولمْ تكتفي بذلك، ولكنَّها جَعَلَتْ تُعَمِّق فيه انتماءه إلى «الجماعة»، فأصَرَّتْ على أن يَسْتَظْهِر الطِّفْلُ اسمَه كاملًا إلى جَدِّه السَّادس: «نبيل عليّ رشيد قدُّورة حسن سعودي محمود شعث»! وساغ أن يفتتح فُصُول سِيرته بانتمائه إلى «جماعة» ذات «جُذُور»، - وهذا عنوان الفصل الأوَّل - فأجدادُه كُلُّهُم فلسطينيُّون، ترفعهم كُتُب التَّاريخ والأنساب إلى قبيلة طَيِّئ اليمانيَّة، تلك القبيلة الَّتي هاجرَتْ مِنَ اليَمَن إلى نَجْد، قَبْلَ الإسلام، ثُمَّ إلى شماليّ المدينة المنوَّرة، واتَّخذَتْ مِنْ قريةٍ تُدْعى «شعثة» في الحجاز، مقامًا لها، فَلَمَّا كان عام ٦٦١ هجريَّة، هاجرَتْ جماعاتٌ مِنْهم إلى مصر، فَهُمُ اليَوْمَ أُسَرٌ مصريَّة، استقرَّتْ في غير ناحية مِنها، وتَحَوَّلَتْ جماعة مِنْ آل شعث، بَعْدَ ذلك، إلى

غير رَجًا مِنْ فلسطين، مِنْهم قَوْمُهُ الأدنَوْن الَّذين اطمأنَّ بهم المقام في غَزَّة هاشم.

كأنَّما أُريدَ لنبيل شعث أن تَخلُص سِيرته لأصْل أصيل نَشَأَ عليه، وبينما أَلْجَأَهُ الزَّمان إلى خَوْض غِمَار الأفكار والتَّيَّارات = لا تُغرِقه في لُجَجها، وإذا به يلوذ بأصل تلك النَّشأة. اتَّصَلَ في شبابه المبكِّر بحركة الإخوان المسلمين، ثُمَّ أَعْرَضَ عنها، بعد حِين لَمْ يَطُلْ، وأحبَّ عبد النَّاصر واستبسلَ في حُبِّه، ولا جَرَمَ أنَّ ما عاناه شعبه في المخيَّمات والشَّتات أَدْنَاهُ إلى الاشتراكيَّة، فَلَمَّا كان لزامًا عليه أن يختار طريقه، في عالَم تَتَنَازَعُهُ الأفكار، سَرْعان ما اهتدى إليه

> كُنْتُ أرى نَفْسي وطنيًّا فلسطينيًّا يريد تحرير بلاده أوَّلًا، وقوميًّا عربيًّا ملتزمًا بالقضايا العربيَّة، يؤمن بالله وبالإسلام دِينًا. يرفض العنصريَّة والظُّلْم والطُّغيان، ويؤمن بالتَّسامح بين الأديان والأجناس، وبالدِّيمقراطيَّة والعدالة الاجتماعيَّة، وبِحَقِّ المرأة في المساواة في الحقوق والواجبات. لمْ أَجِدْ تعارُضًا بين هذه الأهداف أوْ تناقضًا في تبنِّيها جميعًا

على أنَّ تَوَسُّطَه في المعتقدات والأفكار يَرْقَى إلى ما نُشِّئَ عليه، صَبِيًّا في فلسطين، وفَتًى وشابًّا في الإسكندريَّة؛ فبيتُ

أُسْرته عامرٌ بالإيمان، مُقِيمٌ لأركان الإسلام، موصولُ العُرَى بالوطن والعروبة؛ فأبوه عليّ شعث - الَّذي أَجازَتْهُ الجامِعة الأمريكيَّة ببيروت، في الكيمياء والفيزياء والرِّياضيَّات = إنَّما هو زميلٌ قديمٌ لجمهرةٍ مِنْ دُعاة القوميَّة العربيَّة، وأُسْرتُهُ، مِنْ قِبَلِ أبيه وأُمِّه، تُنْزِل الدِّين مِنْ حياتها منزلةً ساميةً، وبيتُهم «كانَ بيتًا عامرًا بالإيمان»

كان إيمان أبي وأُمِّي صادقًا، مُطْلَقًا، وكانَتْ ممارستهما لشعائر الإسلام، مِنْ صلاة وصوم وزكاة وتَعَبُّد لا تنقطع. صُمْنا جميعًا في التَّاسعة مِنَ العُمْر

وينبئنا نبيل أنَّ أباه كانَتْ «آيات القرآن والحديث على لسانه وعلى حيطان بيتنا»، وتُفْصِحُ سِيرة أبيه وأُمِّه عنْ تَدَيُّن سَمْح، سَرْعان ما أمسكْنا به حِين اتَّصَلَ الفتى نبيل بجمعيَّة دينيَّة، لها صِلة بحركة الإخوان المسلمين، ولَمَّا آنسَ فيها ما يَحُول بينه وبين ما نُشِّئَ عليه، فارَقَ زُملاءَه الجُدُد، وإنْ لمْ يفارِقْ ما التزمَ به مِنْ رعايةٍ للدِّين، ورَأَيْناهُ لَمَّا ارتحلَ إلى سويسرة، بعد ظَفَرِهِ بالشَّهادة الجامعيَّة = يُقِيم الصَّلاة، ويزيد عليها، بأنْ واظبَ على صيام يَوْمَي الاثنين والخميس، وقراءة القرآن الكريم، كُلَّ ليلة.

خصيصتان اثنتان كَوَّنَتا الشَّخصيَّة الفلسطينيَّة، بَعْدَ النَّكبة،

حتَّى كأنَّهما جِبِلَّةٌ فيها: «الغُرْبة والشَّتات»، و«حُلُم العودة». نُطالعهما عند المثقَّف، ونَظْهَر عليهما عند السَّواد الأعظم مِنَ الفلسطينيِّين، ونَظْفَر بِمِقْدار كبير مِنْهما فيما أنشأَه الأدباء الفلسطينيُّون. وفي **حياتي.. مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة**، إحساس مؤلم بالغُرْبة والشَّتات، ومهما استقرَّتْ أُسرة نبيل شعث، في مصر أوْ بيروت، فليس سِوى الإحساس بالغُرْبة والشَّتات، وحُلُم العودة إلى فلسطين، ويلقانا مِنْ ذلك فقرات ذوات عدد، اضطرَّتْ نبيلًا إلى أن يُجافي رغائبه وأحلامه. كان يستهويه أن يَدْرُس القانون في جامِعة الإسكندريَّة، وحَمَلَه أبوه على دَرْس التِّجارة، فأنَّى لفلسطينيٍّ أن يَدْرُس القانون وهو بلا وطن! - هكذا قال والده - وحِين اقتضَتْ صُرُوف الأيَّام أن يغادر والِدُهُ الإسكندريَّة إلى عَمَّان، ثُمَّ إلى جُدَّة، إذا بِشَمْل الأُسْرة الصَّغيرة يَتبَدَّد؛ فالوالدان وأُخْتُهُ الصُّغرى في جُدَّة، والأُختان في مدرسة داخليَّة في الإسكندريَّة، والأخُ الأصغر في مدرسة في لبنان، ونبيل في فندق! لكنَّ الغُرْبة والشَّتات، مهما أحكما طَوْقَهما عليه، فإنَّهما لمْ يُسْلِماه إلى اليأس، ولمْ يَصْرِفا أُسْرته عَمَّا أراده لها أبوه عليّ شعث، ذلك المُثقَّف المستنير، ولمْ يَحُولا بين الفلسطينيّ والتَّعليم، فـ«كارثة النُّزُوح أكَّدَتْ للفلسطينيِّين أنَّ الحِفَاظ على الذَّات وحماية الأُسْرة، وخُصُوصًا في الشَّتات،

للمتعلِّمين وأصحاب المهارات والمعارف، وأنَّ العِلْم هو السِّلاح الأمضَى لتحقيق الاستمرار والصُّمُود، بلِ الحياة ذاتها. فَجَّرَ ذلك طاقات الفلسطينيِّين ووَجَّهَها نَحْوَ التَّعليم لأولادهم وبناتهم في زمن النَّكبة وما بَعْدَها».

ولوْ أَرَدْنا تحقيق هذا الشَّاهد، فلنْ تُعْيينا الأمثلة، وفي ما عاشَتْه أُسْرتُه الشَّاهد والمَثَل. والحَقُّ أنَّ الكِتاب يَجْلُو لنا سِيرة صاحِبه وجهاده، ويَجْلُو لنا، كذلك، سِيرة أبيه عليّ شعث. دَرَسَ الكيمياء والفيزياء والرِّياضيَّات في الجامِعة الأمريكيَّة ببيروت، ثُمَّ عُهِدَ إليه إدارة غير مدرسة في بلاده، وتَخَرَّجَ به جماعة واسعة مِنَ الفلسطينيِّين، وحيثما أَدَرْتَ بَصَرَكَ في **حياتي.. مِنَ النَّكبة إلى الثَّورة**، فإنَّكَ واقعٌ على سِيرة رجُلٍ نَذَرَ نَفْسه للعِلْم والثَّقافة. كان على أن يُتِمَّ دراسته العالية في الغرب، فاعترضتْ طُمُوحَهُ عِلَّةٌ في عينيه، فَقَطَعَ على نَفْسه عهدًا بأن يكون أَبًا للدَّكاترة، واشتدَّتْ عنايته بتعليم أبنائه وتثقيفهم، ولمْ تَصْرِفِ الغُرْبةُ الفلسطينيَّةُ الشَّيخَ عَمَّا عاهد نَفْسه عليه، فَجَعَلَ يُزَيِّن لأبنائه القراءة العميقة، منذ نعومة أظفارهم، وكان يُعَلِّمهم «وهو يأكل ويتنزَّه بلْ وهو يتنفَّس»! حتَّى إذا استوفوا طَرَفًا مِنْها، جَعَلَ يُزَيِّن لهم الموسيقا والغناء، وإنَّنا لَنَقْرَأُ أنَّ نبيلًا وأنَّ إخوانه وأخواته يهوون الموسيقا،

ويُحْسِنون الغناء، ونَعْرِف في نبيلٍ الفلسطينيَّ الَّذي لمْ يَصْرِفْهُ جُرْح بلاده، وهو غائرٌ أليم، عن الفوز بأعلى الشَّهادات، ولا عن الثَّقافة الَّتي تَعَمَّقَها، أمَّا الموسيقا فكان يُحْسِن العزف على «البيانو» و«الأكورديون»، تَعَمَّقَ أسرارها ومدارسها، منذ يفاعته بالإسكندريَّة، وقَوِيَتْ صِلَتُه بها في بريطانيَة لَمَّا أَمَّها، حتَّى إذا تَحَوَّلَ إلى أمريكة، اتَّخَذَ هو وأُخته نُهَى الموسيقا ذريعة للذَّود عنْ قضيَّة الوطن المحتلّ «فلسطين»

كانتْ نُهَى تَعْزِف على الجيتار وتُغَنِّي أغاني فيروز وجون بابيز، وفي مُقَدِّمتها صرخة «سوف ننتصر»، وكُنْتُ أَعْزِف على الأكورديون وأُغَنِّي، فَشَكَّلْنا فريقًا ثنائيًّا، وشاركْنا في عشرات النَّدوات والمُناسبات. كُنْتُ أقوم بالحديث عنْ فلسطين، وأَرُدُّ على الأسئلة، وتُغَنِّي نُهَى مَعَ جيتارها، ومَعَ الأكورديون، ثُمَّ نُلْهِب مشاعر الجميع بدعوتهم للوقوف والمشاركة في غناء «سوف ننتصر». طَرَحْنا قضيَّة الشَّعْب الفلسطينيّ في هذه المُناسَبات كجُزْء مِنْ حركة رفض العنصريَّة والظُّلْم والعدوان، وقَدَّرْنا أنَّ انتصار الشَّعْب الفلسطينيّ سيؤدِّي إلى السَّلام العادل، وانتشار المحبَّة بين الظَّالمين السَّابقين والمظلومين تحت الاحتلال وفي الشَّتات، العائدين إلى بلادهم، مواطنين متساوين وأصحاب حَقٍّ عادتْ لهم حُقُوقهم

حَمَلَ نبيل شعث، طوال حياته، «غُصْن الزَّيتون»، بِيَدٍ، وبالأُخرى «بُنْدُقِيَّة الثَّائر»، وكانَتْ حياته خُلاصةَ هذه «الثُّنائيَّة» الفلسطينيَّة. ذادَ عنْ بلاده بسلاح العِلْم والثَّقافة والمعرفة، وفاوَضَ المحتلِّين بالفنِّ والأدب والموسيقا، وكان يُذْكِر المفاوِضَ المحتلَّ بأغنيَّة «الآن.. أوْ لا للأبد It's now or never»، وكان يُلَوِّح، دائمًا، بالبندقيَّة، ولمْ يَصُدَّهُ خِيار الثَّورة والمعركة عنْ أن يدفع إلى العالَم، وإلى الغرب خاصَّةً، حُلُمَهُ بِدَوْلَةٍ فلسطينيَّةٍ ديمقراطيَّةٍ غير عنصريَّة، وإنَّنا لَنراه، مهما اشتدَّتِ الأزمات، يَسْتَدْنِي ساعة انفراجها، وكان حَتْمًا على رُوحٍ لا يَعْرِف اليأس، مهما أحكم خناقه، أن يبدأ سِيرته بـ«أجمل أَيَّام العُمْر»، حِين آبَ إلى وطنه، بَعْدَ طُول تَغَرُّب، وأن يختم هذه السِّيرة بالحُلُم الفلسطينيّ؛ حُلُم العودة. فالخروجُ مِنْ بيروت، بَعْدَ حصارها، لن يَحْرِف «البوصلة» عن اتِّجاهها؛ ذلك أنَّ بوصلة الفلسطينيّ «واضحةٌ، ولا تشير إلَّا لفلسطين»، و«الثَّورة مستمرَّة، وسوف ننتصر».

سِيرة هشام ناظر وتركيّ الدَّخيل ومِرآة الغريبة[١]

والعنوان أعلاه أَعْنِي به كِتاب هشام ناظر: **سِيرة لمْ تُرْوَ**[٢]، وهو الكِتاب الَّذي وضعه الكاتب الصَّحفيّ تركيّ الدَّخيل عن الوزير هشام ناظر (١٣٥١ - ١٤٣٧هـ). ويَتَمَلَّكُنِي مَيْل كبير إلى هذا الضَّرْب مِنَ الكُتُب، ولا سِيَّما ما اتَّصَلَ بالجِيل المخضرَم الَّذي أُتيحَ له أن يعيش حِقَبًا مختلفةً مِنْ تاريخ بلادنا. ورُبَّما اختلفَ ما أريده مِنَ الوقوف على حياة الشَّخصيَّة المترجَم لها، عنْ غاية المهتمِّ بتاريخ الوزراء وكِبار رجالات الدَّوْلة، مِمَّنْ عاشوا حياة عريضة لمْ تُفْسَحْ لأقران لهم، دَعْ عنك عامَّة النَّاس وبسطاءَهم.

كانَتْ عيني تبحث في الكِتاب عنْ ملامحَ أُولى لتكوين

(١) - مجلَّة **الفيصل**، شهر رمضان سنة ١٤٣٧هـ = شهر تمُّوز (يوليو) سنة ٢٠١٦م.
(٢) - الدَّخيل، تركيّ. هشام ناظر: **سِيرة لمْ تُرْوَ** (بيروت: دار مدارك، ٢٠١٦م).

النُّخَب الَّتي تألَّفَتْ مِنْها الإدارة الحديثة في الدَّوْلة، أَعْنِي النُّخْبة الَّتي أصابَ كوكبةٌ مِنْهم تعليمًا حديثًا، يباين التَّعليم الَّذي أصابه رُوَّاد الأدب والثَّقافة في البلاد، ودعاني إلى ذلك أنَّ نَفَرًا مِنَ الشُّبَّان السُّعُوديِّين، اتَّصَلُوا بالصِّحافة، في عَشْرِ السَّبعين مِنَ القرن الهِجْريّ الماضي، ورأى فيهم حسن عبد الحيّ قزَّاز مَدَدًا لصحيفته **عرفات**، تلك الَّتي آذَنَ تأسيسها عام ١٣٧٦ هـ، بتحوُّل صحافتنا عنْ هيئتها القديمة، واصطناعها سَمْتَ الصِّحافة الحديثة في الإخراج والتَّبويب، وكان أولئك الشُّبَّان الجامِعيُّون علامة بارزة فيها، وما زِلْتُ أذكر مِنْهم أحمد صلاح جمجوم، وأحمد زكيّ يمانيّ، وهشام ناظر.

لَمَّا وَقَعَتْ عيني على كِتاب **هشام ناظر: سِيرة لمْ تُرْوَ**، قُلْتُ: عسى أنْ أَظْفَرَ بشيء يُجَلِّي تلك الحقبة المبكِّرة مِنْ حياةِ إنسانٍ عَرَفْناه وزيرًا ورَجُلَ دَوْلةٍ كبيرًا، ورُبَّما كان في الكِتاب إشارة أوْ إلماحة إلى مشاركته الصَّحفيَّة تلك. والقُرَّاءُ، عادةً، يريدون مِنَ الكُتُب الَّتي يقرأونها فَوْقَ ما يُطِيقه المؤلِّفون!

لمْ أظْفَرْ بغايتي الَّتي رَجَوْتُها مِنَ الكِتاب، لكنَّني لمْ أنصرِفْ عنه، وَمَضَيْتُ في قراءته، وإنْ أَسِفْتُ على أنَّني لمْ أَجِدْ فيه ضالَّتي الَّتي كانَتْ سببًا في وقوفي عليه، وأدركْتُ أنَّ الكِتاب، في الجانب الأعظم مِنْه، انصرفَ إلى غاية جليلة أُخرى، وهي

تحقيق ما لهذا الرَّجُل مِنْ سَهْمٍ في تاريخ الوزارات السُّعُوديَّة، في زمنٍ طويلٍ يُنِيِّف على نِصْفِ القرن، وهي مُدَّةٌ لا تتاح، عادةً، إلَّا لِنفَرٍ قليلٍ مِنَ الوزراء والكُبَراء.

وأعترِف - ولا أُلْزِم أَحَدًا برأيي - أنَّ هذا الجانب لا يعنيني، وإنْ كان مُهِمًّا لِكُلِّ مَنْ أرادَ تأريخًا لعمل هشام ناظر في الدَّوْلة، والمَهامِّ الجليلة الَّتي نِيطَتْ به، منذ كان شابًّا صغيرًا، وإلى أنِ استُوزِرَ، في شبابه، وحتَّى استراحَ مِنْ أعمال الدَّوْلة والسِّفارة، إلى أنْ توفَّاه الله تبارك وتعالَى.

وفي الكِتاب، وفي الفَصْل الأوَّل مِنْه خاصَّةً، قِطَعٌ هي أدنى إلى أدب السِّيرة، أماطَ فيها هشام ناظر اللِّثام عنْ أُسْرته، ونشأته، وتَحَدَّثَ حديثًا جميلًا عنْ لَقَبِ أُسْرته الكريمة «آل ناظر»، وعنْ تربيته. لكنَّ هذا الجانبَ الإنسانيَّ الحُلْوَ العذْبَ، سَرعان ما ذَبُلَ، فغاية الكِتاب الَّتي أُلِّفَ مِنْ أَجْلِها، لمْ تكُنْ سِوى بَسْط الكلام عنْ عمله في الدَّوْلة، ذلك الَّذي مَرَّ بنا مِنْ قَبْلُ، فَطَوَيْتُ الكِتاب، وانصرفْتُ عنه، لا زُهْدًا فيه، ولكنْ لأنَّ ما رَجَوْتُهُ لمْ أَظْفَرْ به، وما دُوِّنَ فيه لا يعنيني، ولا شَكَّ أنه سيعني قُرَّاءً آخرين، يُهِمُّهم كُلُّ كلمة سُطِّرتْ في صفحاته الغزيرة.

وأنا قارئٌ «طَمَّاع»! أردْتُ أنْ أَعْرِفَ طَرَفًا مِنْ حياة النَّاس في جُدَّة القديمة، ورَجَوْتُ أنْ أَظْفَرَ بتكوين النُّخبة الَّتي

أنشأَتِ الإدارة الحديثة في الدَّوْلة، وقُلْتُ: لَعَلِّي أَجِدُ شيئًا عنْ صِلته الأُولى بالصِّحافة، وعسى أنْ أفوز بكلام مبسوط عن «الشَّاعر» المُستخفي خَلْفَ ثيابه... ولَمَّا لمْ يُحَقِّقْ لي الكِتاب شيئًا مِنْ ذلك، أَسِفْتُ وحَزِنْتُ على فُرصةٍ كان مظنونًا فيها أنْ تَجْلُوَ لنا «الإنسان» في هشام ناظر، لا «الموظَّف العامّ»، ولا «المسؤول»، ولا «الوزير»، ولا «السَّفير».

ألمْ أَقُلْ لكم إنَّني قارئٌ «طَمَّاع»!

أَدَعُ ما انطوَى عليه الكِتاب مِنْ تأريخ هشام ناظر في أعمال الدَّوْلة، لأهل الحِرفة مِنَ الاقتصاديِّين، وخُبَراء النِّفْط، والتَّخطيط، والدِّبلوماسيَّة، والسِّياسة، وسأَصْرِف هَمِّي إلى تحقيق كُلِّ ذلك في نَصٍّ اتَّخَذَ «السِّيرة» سبيلًا له، فالكِتاب، مهما ضَرَبَ في غايته الَّتي وُضِعَ لها = مظنونٌ فيه أنَّه في «أدب السِّيرة»، هذا النَّوْع الأدبيّ الَّذي لا سبيلَ إلى حَصْره في بناء واحد، مهما تَكَلَّفَ له النُّقَّادُ والدَّارسون حَصْرًا وتصنيفًا وتجنيسًا، ولن يُهِمَّ القارئَ، هُنا، أن يَعْرِفَ فَرْقَ ما بين «المُذكِّرات»، و«الذِّكريات»، و«اليوميَّات»، فمآلُها، مهما اختلفَتْ، أنَّها تَحَدَّرَتْ مِنْ شَجَرَة «السِّيرة» بِفَرْعَيْها الكبيرين؛ «السِّيرة الذَّاتيَّة»، و«السِّيرة الموضوعيَّة».

أنفقَ تركيّ الدَّخيل ثمانين ساعةً في تسجيل ما تَيَسَّرَ للوزير

هشام ناظر أن يتخيَّره وينتقيه مِنْ حياته، وكان «التَّذكُّر» الآنيّ ذريعته لاسترداد ذلك التَّاريخ، تُسعفه ذاكرته فينطلق متحدِّثًا، وتَشُحُّ فيستعين بالوثائق، وحِين استوفَى تلك الذِّكريات أنشأ تركيّ يُفرِّغها، ويُرَتِّب هيئاتها، ويُلائم ما بين الأشباه والنَّظائر، فاستوى له مِنْ ذلك كِتابٌ ضخمٌ كبيرٌ هو الَّذي أفردْتُ له حديثي هذا.

كان بِوُسْعِ تركيّ أن يَقِفَ بِكِتابه عند هذا القَدْر؛ لا يزيد على ما قاله هشام ناظر ولا ينقص، غير أنَّه سَدَّ فراغات الكِتاب بأقوالٍ استمدَّها مِنْ رُفقاء المترجَم له، وزملاء سابقين، وموظَّفين اتَّصلوا به، وعَمِلوا على مقربة مِنْه، وعَرَفُوا مِنْ ذات الرَّجُل فَوْقَ ما عَرَفَ الآخرون، فكان الحديث عنه ضَرْبًا مِنَ «الوفاء»، بَعْدَ أن استوفَى أعماله العريضة تلك، وانقطع لحياته وأُسْرته وأبنائه وحَفَدَته، وصار ماضيه كُلَّ حياته.

عادةً ما نبحث في «السِّيرة الذَّاتية» عنْ «مُسَوِّغ» الكتابة، أوْ «مُبَرِّرها»، كما يحلو للكاتِبين، وما بين أيدينا كِتابٌ في «السِّيرة الموضوعيَّة» - أو «الغيريَّة» - وعلى ما بينهما مِنْ فُرُوق، فإنَّ بينهما مشتركاتٍ كثيرةً، لنْ نخوض فيها، لأنَّ النُّقَّاد، ولا سِيَّما إحسان عباس وجورج ماي، قَدِ استوفوا الحديث فيها حتَّى الغاية، وكِتاب **هشام ناظر، سِيرة لمْ تُرْوَ**، وإنْ كان في «السِّيرة

الموضوعيَّة» = يَمُتُّ بِصلةٍ إلى «السِّيرة الذَّاتيَّة»؛ فالمؤلِّف، وهو تركيّ الدَّخيل، أنفق ثمانين ساعةً مِنَ التَّسجيل، في سنتين اثنتين، والمترجَم له، وهو هشام ناظر، يتذكَّر ويُمْلِي، فكان تركيّ، هُنا، باعثًا على التَّذكُّر ومُحَرِّكًا للسَّرد، وصَحَّ في الكِتاب تلك التَّسمية الطَّريفة، حِين جَعَلَهُ تركيّ ضَرْبًا جديدًا مِنَ «الأمالي»، هذا الاسْم الَّذي ما إنْ قَرَأْتُه حتَّى رَأَيْتُني أستذكر **أمالي أبي عليّ القالِيّ**، و**أمالي ابن الشَّجَرِيّ**، وسِواهما مِنَ الكُتُب الَّتي قام عليها قَدْرٌ وافرٌ مِنَ التَّدوين العربيّ.

ورُبَّما لمْ يختلفِ الأمر، كثيرًا، إلَّا في الزَّمان والمكان والأشخاص والغاية: جَلَسَ هشام ناظر في مجلسه - وإنْ شِئْتَ في «مَقْعَدِهِ» - وشَرَعَ «يُمْلِي»، وجَعَلَ تركيّ الدَّخيل يُدَوِّن تلك الأمالي، وإنِ اختلفَتْ آلة التَّدوين، فرُبَّما اتَّخذَ «المُسَجِّل» - أو الأجهزة الذَّكيَّة - وسيلةً له، كما كان يجلس أبو عليّ القالِيّ، أوِ الشَّريف أبو السَّعادات هِبَة الله ابن الشَّجَرِيّ، في القُرُون الزَّاهية، في المسجد، وجعلا يُمْلِيان على طُلَّابهما الأدبَ واللُّغَةَ والنَّحْوَ والتَّاريخَ والأخبارَ، فاستوى لِكُلٍّ مِنْهما كِتابٌ لمْ يُبْلِهِ مَرُّ القُرُون.

إذنْ، بِوُسْعِنا أنْ نَعْتَدَّ هذا الضَّرْب مِنَ السِّيرة «أمالِيَ» جديدةً، مهما اختلفَتِ الوسيلة والغاية. ولأنِّي مشغوفٌ بالقالِيّ وابن الشَّجَرِيّ،

رَجَوْتُ لوْ كان عنوان الكِتاب الَّذي هو مدار حديثي «أمالي هشام ناظر على تركيّ الدَّخيل»! رُبَّما لوْ كان العنوان كذلك لَأَقْبَلَ عليه طُلَّاب العربيَّة، وقُرَّاء التُّراث العربيّ القديم، ولوْ فَعَلَ تركيّ ذلك، لَبِيعَ قَدْرٌ كبيرٌ مِنْ كِتابه، ورُبَّما نالَهُ مِنْ نَقْد التُّراثيِّين، فَوْقَ ما يحتمله، لِظَنِّهم أنَّ تُرْكِيًّا لَبَّسَ عليهم الكِتاب حِين اتَّخَذَ «الأمالي» عنوانًا له، ولَطالما لَبَّسَ تركيّ على قُرَّائه!

وهذا الصِّنْف مِنَ الكُتُب - أَعْنِي كُتُبَ السِّيرة الَّتي قِوَامُها الإملاء والتَّسجيل والتَّدوين = يلتبس فيها «المُؤَلِّف»، فالَّذي «يتحدَّث» هو «المترجَم له»، والَّذي يُدَوِّن هو الَّذي اتُّفِقَ عليه أَنَّه «مؤلِّف»، وليس هذا أمرًا جديدًا، ولكنَّه قديم قِدَمَ المعرفة الإنسانيَّة، منذ انبرَى الفلاسفة وعلماء الدِّين والنُّحاة واللُّغويُّون والإخباريُّون ومَنْ إليهم، يكتبون ويؤلِّفون. ورُبَّما صَحَّ أن يسأل قارئٌ: مَنْ مؤلِّف **مُحَاورَات سقراط**، أسقراط المتحدِّث؟ أمْ أفلاطون الكاتب؟ وما نَصيب الأصمعيِّ في رسالة **فُحُولة الشُّعراء**، تلك الَّتي أَدَّاها إلينا تلميذه السِّجستانيّ؟ ومَنِ المتكلِّم في **رحلة ابن بَطُّوطة**؟ آبن بَطُّوطة «المُمْلِي»، أمْ محمَّد بن جَزِيّ الكلبيّ «المُمْلَى عليه»؟ وعلى كُلٍّ فإنَّ هذه الكُتُب يختلط فيها «الشَّفهيّ» بـ«المكتوب»، لِتَعَاوُرِهما بين هذين الشَّكلين مِن انتقال المعرفة.

وعليه، فإذا عَدَدْنا تركيّ الدَّخيل «مؤلِّفًا»، فما مِقْدار تَصَرُّفه في مادَّة الكتابة، وما المدى الَّذي أُتيحَ له كي يتصرَّف فيها، حَذْفًا، وإضافةً، وتحريرًا، ونَقْدًا، ونَقْضًا؟ وإذا عَدَدْناه «ناقلًا»، ليس له إلَّا أن يراقب شَفَتَيِ «المُمْلِي»؛ يتابعه إذا تَحَدَّثَ، ويَقِفُ حيث وَقَفَ، وتقتضيه الأمانة، أنْ لا يَتَزَيَّد، ولا يَتَقَوَّل على صاحِبه = فَشُرُوط النَّقْل وآدابه مَرْعِيَّة، وأدوات الضَّبط والتَّحَرِّي مشروطة.

غير أنَّنا إذا عَدَدْنا تركيّ الدَّخيل «مُؤَلِّفًا»، فليس له أن يَضْرِب بِشُرُوط النَّقْل والتَّحَرِّي والدِّقَّة في الضَّبْط عُرْض الحائط. لا.. لا نقول ذلك، ولكنَّه حِين يكون «مُؤَلِّفًا» يصبح أدنَى إلى أن يتوسَّل بقلم «المُؤَوِّل»، أوِ «النَّاقد»، أوِ «المؤرِّخ» المُحَقِّق، فَيُوْسِع المادَّة الَّتي أُتيحَتْ له بحثًا وتفتيشًا ومراجعةً ونَقْدًا ونَقْضًا، ولا يستسلم لِمَكْر «الإملاء»، وحِيَل «التَّذكُّر»، أمَّا إذا اكتفَى بموقع «المُمْلَى عليه»، فلن يَعْدُوَ عَمَلُهُ مَرْتبةَ «المُحَرِّر» الَّذي ينقل الكلام مِنْ طَوْر «المُشَافَهة» إلى طَوْر «الكتابة»، وهو عَمَلٌ ليس بالهَيِّن ولا اليسير، متى أرادَ «المُحَرِّر» أن «يُحَرِّر» كِتابًا في «السِّيرة»، ولوْ كان السَّبيلُ إلى ذلك الإملاءَ والنَّقْلَ.

سأعود، الآنَ، إلى دواعي الكتابة، تلك الَّتي قُلْتُ: إنَّها تُدْعَى «المُسَوِّغ» - أو «المُبَرِّر» - وعادةً ما نبحث في «السِّيرة

الذَّاتيَّة» عنْ سببٍ ظاهرٍ أوْ كامِنٍ، حَمَلَ إنسانًا مَّا على تدوين سِيرته الذَّاتيَّة، وللكُتَّاب ذرائعهم في الكتابة؛ مِنْهم منِ اندفعَ يكتب سِيرته اعترافًا، ومِنْهم مَن يكتبها تَحَدُّثًا بنعمة الله، وآخرون كتبوها كي «يُسَوُّوا حِسابهم مَعَ التَّاريخ» - كما فَعَلَ سلامة موسى - أوْ يدافعوا عن النَّفْس - كما فَعَلَ طه حسين وغيره مِنْ كُتَّاب السِّيَر والتَّراجم الشَّخصيَّة.

ويَظْهَرُ لي أنَّ كِتاب **هشام ناظر، سِيرة لمْ تُرْوَ**، يتَّخِذُ موقعًا وَسَطًا بين «السِّيرة الذَّاتيَّة»، و«السِّيرة الموضوعيَّة». فيه مِنْ كِلَيْهما ملامح وسِمَات، وما يزال لهشام ناظر سَطْوته وسُلطانه على الكِتاب، فهو صاحِب الأمر ما دامَ هو المُمْسِك بِزِمَام «الإملاء»، وكان تركيّ الدَّخيل كـ«الوسيط» النَّاقل، بلْ هو، لا شَكَّ، «وسيط» ناقل، مُهِمَّتُه الَّتي أرادها هو، أوْ أرادها المترجَم له، أن ينقل «رسالةً» مَّا إلى القارئ، وأنْ تَثْبُت هذه «الرِّسالة» في التَّاريخ، متى خَرَجَتْ هذه «الأمالي» في «كِتاب». وأقربُ الظَّنِّ أنَّ أحوال المترجَم له، والسِّياق الَّذي خَرَجَتْ فيه هذه «الأمالي»، أو «المذكِّرات» = تَحمِلنا على التَّفكير في دواعي الكتابة ومُسَوِّغاتها؛ فالرَّجُل أرادَ أن ينقل قصَّة حياته، حِين بَلَغَ الهزيع الأخير مِنْ عُمْره، وبَعْدَ أنِ استراحَ مِنَ التَّبِعات الجِسَام الَّتي نِيطَتْ به، مُدَّةَ نِصْف قرن، كُلُّها عَمَلٌ شاقٌّ مُضْنٍ، فلا أقلَّ مِنْ أن يترك للتَّاريخ «أَثَرًا» مِنْه يَدُلُّ عليه، يحيا بين النَّاس، بَعْدَ

أن يستوفي حياته، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتاب، وهذا وَحْدَهُ كافٍ لِيَكْتُبَ إنسانٌ سِيرةَ حياته أو يُمْلِيَها.

لكنَّ قارئ كِتاب **هشام ناظر، سِيرة لَمْ تُرْوَ** لن يُعْيِيهِ الظَّفَر بِمُسَوِّغٍ لإنشاء هذه السِّيرة؛ وسَرْعان ما سيظفر به، منذ الصَّفحات الأُولى للكِتاب! نعم، لَمْ يَذْكُرِ «المُمْلِي»، ولا «المُمْلَى عليه» - وإنْ شِئْتَ «المُحَرِّر» - أنَّ ذلك «مُسَوِّغُ» إنشاء هذه السِّيرة، لكنَّه لن يُعْيِيهِ ذلك متى قَرَأَ عِبارات المُقَدِّمة، ومَنَحَها ما تستحقُّه مِنْ تأمُّلٍ وتَدَبُّرٍ.

لَمْ يُمْهِلْنا الكِتاب للتَّكَهُّن والبحث والتَّفتيش، وساقَ إلينا «مُسَوِّغَ» هذه السِّيرة، دُون أنْ نتكلَّف ذلك، وكأنَّ تلك العِبارة الَّتي سَأَسُوقها، بَعْدَ قليلٍ، كانتْ كالهَمِّ الجاثم على الصَّدْر، وحِين دُفِعَتْ عنه، وُلِدَتْ هذه السِّيرة، وكانتِ الصَّوت الَّذي بَقِيَ مِنْ هشام ناظر بعد أنْ تَوَفَّاهُ الله بزمنٍ يسير، وكأنَّه كان لِزَامًا على هذا الكِتاب أن يَظْهَر، في عَجَلَةٍ مِنَ الزَّمن، بُعَيْدَ الوفاة، إنْ لَمْ يُتَحْ له أن يَظْهَر في حياة المترجَم له.

رُبَّما كانتْ عِبَارة «يا سلام عليكِ عندكِ حُلُول»! سببًا في ولادة هذه المذكِّرات، ولنا أنْ نَحْسَبَها «فَلْتَةً» مِنْ «فَلَتَات الخِطَاب»، لولاها ما أَنْفَقَ هشام ناظر ثمانين ساعةً في عامين، يُمْلِي فيها قِصَّة حياته على تركيّ الدَّخيل!

أمضى هشام ناظر حياته كُلَّها في أعمال الدَّوْلة، وحِين استُوزِرَ، كان وزيرًا للتَّخطيط، ثُمَّ وزيرًا للبترول والثَّروة المعدنيَّة، وأَخْلَدَ بَعْدَها لشُؤونه الخاصَّة، حِين أقاله مَنْ بِيَدِهِ الأمر، ولمْ يَلْبَثْ، إلَّا قليلًا، فَعُيِّنَ سفيرًا لبلاده في مصر، وكانتْ سِفَارته على ضِفاف النِّيل، كأنَّما هي استراحة «رُومنطيقيَّة» حالمة، لِرَجُلٍ عاشَ عُمْرَهُ كُلَّه وسط معمعة الأرقام والقضايا الكبرى الَّتي تَعْصِف بالعالَم مِنْ حوله، وهلْ مِنْ حياة أجمل مِنْ أن يُمْضِيَها إلى جِوَار النِّيل، غيرَ بعيدٍ مِنَ الأهرام، وفي بَلَدٍ عظيمٍ هو مصر؟!

كان كُلُّ شيءٍ مِنْ حَوْلِهِ يسيرُ سَيْرًا هنيئًا ساكنًا وادعًا، وكان كُلُّ ما حواليه يَشِي بأنَّ ذلك الوزير الَّذي كانَ، ما يزال في عُنفوان مجده، وكأنَّما استدعَى هشام ناظر شاعرًا غارَ في نَفْسه، لوْ لمْ تَكْبِتْهُ أعباء الوزارة وتَقَلُّبات النِّفْط، لكنَّه الزَّمان الَّذي ما زالَ يُضْحِكُنا أُنْسًا بقُرْبِهُمُ، قدْ عادَ يُبْكينا، كما يقول ابن زيدون! فَهَوَتْ ثورات «الرَّبيع العربيّ» بأمجاد كثيرة، وقَوَّضَتْ «مراكز» ما ظَنَّ أصحابُها أنْ ستُقَوَّض، ولَمَّا استحكَمَ الأمر في مصر، إذا بالنِّيل ليس - كما يقول شوقيّ في قصيدةٍ عامِّيَّةٍ له = «نجاشي حليوهْ أسمرْ»، ولكنَّ النِّيلَ انتفضَ وعصفَ وزمجرَ وثارَ، ولَمَّا ثارَ أصبحَتِ الكلمات الَّتي تُقَال فلا يَسمع لها أَحَدٌ = وقدْ بَلَغَتْ كُلَّ أُذُن، وتَنَاقَلَتْها الألسنة، ودارَتْ دورتها في «مواقع

التَّواصُل الاجتماعيّ». رُبَّما لمْ يُدْرِكْ هشامٌ أنَّ كلمته الَّتي قالها في وَجْهِ مُوَاطِنة سُعُوديَّة: «يا سلام عليكِ عندكِ حُلُول»! كانتْ قدِ استثارَتِ التَّاريخَ فأذْكَرَتِ النَّاس عِبَارة قريبة مِنْها، وإنْ لمْ تُطابِقْها، ولا أظنُّه، رحمه الله، كان قدْ عناها. ولكنْ، مهلًا! فنحن في زمن «الرَّبيع العربيّ»، زمن «الجماهير» = «متى استعبدْتُم النَّاسَ وقدْ وَلَدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ أحرارًا»!

لنْ أَمضي في الحديث كثيرًا، فالمُهِمُّ أنَّ السَّفير أُعْفِيَ بَعْدَ أنْ فَاهَ بِعِبَارته «الفلتة» تلك، وأنَّ تركيّ الدَّخيل، حِين هَيَّأَ الكِتاب للنَّشْر، سَرعان ما استذكرها! فهلْ كانتْ تلك العِبَارة «الفلتة»، هي الباعث على تقييد تلك المذكِّرات؟ وهلْ كانتِ الثَّمانون ساعةً - الَّتي كانتْ في سباق مَعَ الزَّمن - لِتُذْكِرَ النَّاسَ في بلادي أنَّ المترجَمَ له، صاحِبَ عِبَارة «يا سلام عليكِ عندكِ حُلُول»، الَّتي أَعْفَتْ سفيرًا، انتصارًا لمواطنة في زمن «الرَّبيع العربيّ» = هل كانتْ ترجو أنْ تُذَكِّر النَّاس في بلادي بتاريخٍ عريضٍ أمضاه السَّفير، منذ كان في شبابه «موظَّفًا كبيرًا»، ثُمَّ «وزيرًا» لوزارتين خطيرتين؟ وأنَّ هذه «الأمالي» إنْ هي إلَّا دفاعٌ عنْ تاريخٍ، خِيفَ عليه أَثَر تلك العِبَارة «الفلتة»، الَّتي نَسِيَ النَّاسُ في بلادي، مِنْ أَجْلِها، «السَّفير» الَّذي كانَ، مِنْ قَبْلُ، «وزيرًا»، فانْتَدَبَ تركيّ الدَّخيل نَفْسَهُ، أوِ انتُدِبَ، لكي يَجْلُوَ

«المِرآةَ»، حتّى تصبح، كما قال الشّاعر الأعرابيّ ذو الرُّمَّة، مِثْلَ «مِرآة الغريبة»[1]، ناصعةً مَجْلُوَّةً زاهيةً!

كان بإمكان تركيّ الدَّخيل أن يطوي تلك العِبارة «الفلتة»، فلا يَذْكُرها، فيقرأ النَّاس الكِتاب، دُون أن يَتَدَسَّسُوا إلى مَضَايِقِهِ، كما تَدَسَّسْتُ! كان بإمكان تركيّ أن يفعل ذلك، ولكنَّ للكِتاب «فلتاته»، كما للكلام «فلتاته»، تلك الَّتي كان فرويد قدْ كَشَفَ مُخَبَّآتها، فَهَدَتْنا إلى باطن النُّفُوس، وعَرَفْنا مِنْ تلك «الفلتات» ما لَمْ يَكُنْ لِتُتاح لنا معرفته!

فهلْ أَفْلَحَ تركيّ في مُهِمَّتِهِ؟!

(١) - يقول ذو الرُّمَّة:

لَهَا أُذُنٌ حَشْرٌ وَذِفْرَى أَصِيلَةٌ وَخَدٌّ كَمِرْآةِ الغَرِيبَةِ أَسْجَحُ

حَشْرٌ: لطيفةٌ مُحَدَّدَةٌ. الذِّفْرَيان: ما عَنْ يمين النُّقْرَة وشِمالها. وَخَدٌّ كَمِرْآةِ الغريبة: وذلك أنَّ المَرْأَة إذا كانَتْ في قَوْم غرباء، فهي، أبدًا، تجلو مِرْآتها، تشتهي أنْ تَحَسَّنَ وَتَزَيَّنَ، فَشَبَّهَ خَدَّها بالمِرْآةِ المَجْلُوَّة. أَسْجَح: سَهْل. ذو الرُّمَّة، غَيْلان بن عُقْبة العَدَوِيّ. **ديوان ذي الرُّمَّة**، شَرْح الإمام أبي نَصْر أحمد بن حاتم الباهليّ صاحِب الأصمعيّ، رواية الإمام أبي العبَّاس ثعلب، حَقَّقَه وقَدَّمَ له وعَلَّقَ عليه عبد القُدُّوس أبو صالح (دمشق، بيروت: دار الرَّشيد، بيروت: مؤسَّسة الإيمان، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م)، ٢/ ١٢١٧.

ويُضْرَب المَثَل بـ«مِرْآةِ الغريبة»، «لأنَّ المَرْأَة الغريبة تَتَعَهَّد مِرآتها مِنَ الجَلاء بما لا يَتَعَهَّد غيرها، وتَتَفَقَّد مِنْ مَحاسن وَجْهها ما لا يَتَفَقَّده سِوَاها، فَمِرآتُها أبدًا مَجْلُوَّة نَقِيَّة». الثَّعالبيّ، أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل. **ثِمَار القُلُوب في المُضَاف والمنسوب**، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م)، ص ٣١٩.

للمؤلِّف

١. **الجوائز الأدبيَّة؛ الحُدُود والأقنعة،** النَّادي الأدبيّ في أبها، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٢. **إطلالة على الثَّقافة في المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة،** كُتَيِّب المجلَّة العربيَّة، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

٣. **طه حسين والمثقَّفون السُّعُوديُّون،** ط ١، دار المؤلِّف، بيروت، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م، ط ٢، نادي تبوك الأدبيّ، تبوك، ١٤٣٧هـ = ٢٠١٦م.

٤. **ذاكرة الرِّواق وحُلْم المطبعة، أُصُول الثَّقافة الحديثة في مكَّة المكرَّمة،** دار المؤلِّف، بيروت، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.

٥. **مَضَايِقُ الشِّعر، حمزة شحاته والنَّظريَّة الشِّعْريَّة،** الدَّار العربيَّة للعُلُوم - ناشرون، بيروت، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م.

٦. **العيش في الكتابة، دراسة في نَقْد عبد الله عبد الجبَّار**، دار المؤلِّف، بيروت، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م.

٧. **ضَحِكٌ كالبُكَا، الشِّعْر الحلمنتيشيّ في مَبَاهِجِهِ وأحزانِه**، دار المؤلِّف، بيروت، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.

٨. **خواطر مُصَرَّحة، محمَّد حسن عوَّاد**، تحريرًا وتقديمًا، دار جداول، بيروت، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م.

٩. **الأدب الفنِّيّ، محمَّد حسن كتبيّ**، تحريرًا وتقديمًا، نادي المدينة المنوَّرة الأدبيّ، المدينة المنوَّرة، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

١٠. **ما قَبْلَ الأدب الحديث، النُّخْبة العالِمة في حائل**، نادي حائل الأدبيّ، حائل، ١٤٣٧هـ = ٢٠١٦م.

١١. **تِهامةٌ وطني، محمَّد سعيد طيِّب والثَّقافة**، مؤسَّسة الانتشار العربيّ، بيروت، ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م.

١٢. **كُلُّكُمْ يطلبُ صَيْدْ، فُصُولٌ أدبيَّة ومقالاتٌ ثقافيَّة**، مكتبة كُنُوز المعرفة، جدَّة، ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م.

١٣. **الحداثة الغائبة، بواكير النَّقْد الألسنيّ في المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة**، مكتبة كُنُوز المعرفة، جدَّة، ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.

١٤. **أفئدةٌ مِنَ النَّاس، فُصُولٌ في أدب الحَجّ وثقافته**، مركز عبد المحسن القحطانيّ للدِّراسات الثَّقافيَّة، جدَّة، ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.

١٥. **عِطْر النَّقْد**، نادي الطَّائف الأدبيّ، الطَّائف، دار المَناهِل، بيروت، ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.

١٦. **بكريّ شيخ أمين؛ مِنَ الجامِع إلى الجامِعة**، مكتبة كُنُوز المعرفة، جدَّة، ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م.

١٧. **عَبَرُوا النَّهْرَ مَرَّتَيْن: قراءاتٌ في السِّيرة الذَّاتيَّة**، مكتبة كُنُوز المعرفة، جدَّة، ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م.